

مختارات من الأدب العالمي للشباب

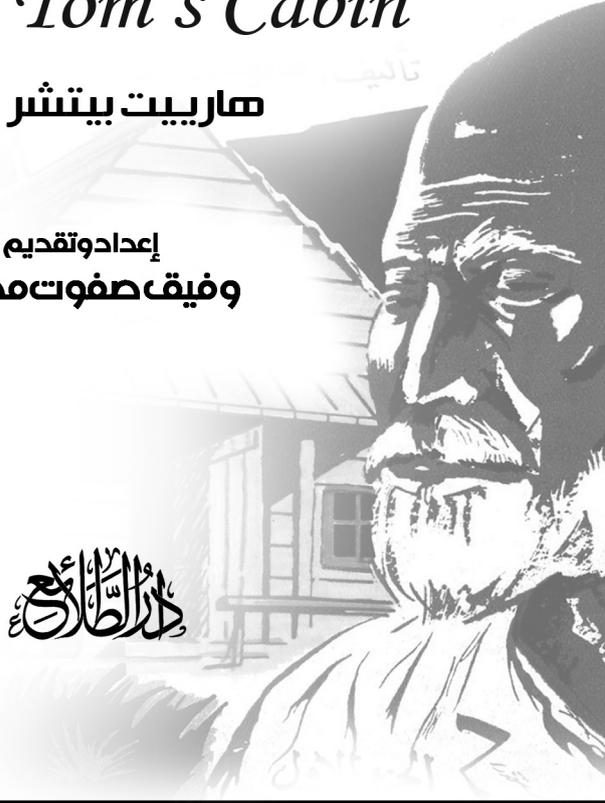
# كوخ العم توم

*Uncle Tom's Cabin*

هاريت بيتشر ستو

إعداد وتقديم  
وفيق صفوت مختار

دار الطائفة



بيتشر ستو، هاربيت

كوخ العم توم – uncle tom's cabin / هاربيت بيتشر ستو

إعداد وتقديم وفيق صفوت مختار. – القاهرة: دار الطلائع للنشر والتوزيع،  
٢٠١٧ .

٣٢٠ ص؛ ٢٠ سم. (مختارات من الإيدب العالمى للشباب)

تدمك ٩ ٨٠٨ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الإمريكية

١- مختار، وفيق صفوت (مقدم ومعد)

ب- العنوان

٨٢٣

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٣٩٩٩

الترقيم الدولى: 9-808-277-977-978

تصميم الغلاف الفنان: إبراهيم محمد إبراهيم

### ● جميع الحقوق محفوظة للناشر ●

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن  
كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.



للتشر والتوزيع والتصدير

٢٢ شارع أحمد فخرى

مدينة نصر - القاهرة

تليفون: ٢٣٥٤٦٢٩٢ ( +٢٠٢ )

فاكس: ٢٣٥٤٦٢٩٢ ( +٢٠٢ )

E-mail : info@altalae.com

Web site: www.altalae.com

## مقدمة

هذا هو الإصدار الرابع من مختارات من الأدب العالمي للشباب، والذي نقدّمه ونحن علي ثقةٍ بأنه سيكون بإذن الله تعالى عملاً متميزاً وفريداً في دقة اختياره، وطريقة عرضه.

لقد قمتُ بالاطلاع علي أغلب الإصدارات العربية التي تناولت رواية "كوخ العمّ توم" للكاتبة الأمريكية الشهيرة "هاربيت بيتشر ستو" بالترجمة، كي يتسنى تقديم الأجل والأحق بالقراءة الممتعة الشيقة. ولقد كانت الترجمات التي تمكنت من العثور عليها قليلة بعض الشيء، إلا أنّها كانت ترجمات تتسم بالعدوبة والرقّة الشديدة، وكانت في مجملها ترجمات تتميز بألفاظها الشيقة، وكلماتها السهلة البسيطة، وقد خلت من المعاني الركيكة إلا قليلاً.

وكما هو معتاد في منهجنا الذي قد ارتضيناه منذ البداية فقد تخلصت من الأحداث الغارقة في التفاصيل التي قد لا تخدم العمل الذي تقدمه. كما حاولت الابتعاد عن الكلمات الصعبة التي جاءت في بعض الترجمات علي الرغم من قلتها.

وبعد هذه المُعالجات الفنيّة والدراميّة للرواية أري أنّها أصبحت مُعدة للقراءة السهلة اليسيرة، في عدد صفحات ملائم للغاية، دون أن يؤدي الاختصار إلي أي خللٍ في مسار الأحداث، أو بنيتها الدرامية.

حافظت بالطبع علي ما جاء في النّص الأصلي للرواية الذي كان مصدرِي الرئيس في تقديم هذا العمل، والابتعاد تماماً عن النّصوص التي جاءت منسوخة بشيءٍ من الاختصارات المُخلّة إخلالاً أضر بالعمل الأصلي للرواية.

وبهذا أكون قد انتهجت الفلسفة التي نتبناها في دار الطلائع للطبع والنشر والتوزيع بقيادة الكاتب والناشر الصديق "عبد اللطيف عاشور"، التي تُحتم علينا تقديم تلك الأعمال العالمية الفريدة علي أعلى مستوى من الكفاءة، والأمانة، والمصداقية، والشفافية، مع العرض الشيق الرشيق للأحداث، وكذلك الحفاظ علي المضمون الأصلي للرواية شكلاً ومضموناً، وفقاً للترجمات الأكثر رصانة ومصداقية.

كما أود أن أنوه بأن كافة العناوين الرئيسية لفصول الرواية قد تم وضعها بمعرفتي الشخصية، وذلك لخلق نوع من الجاذبية والإثارة التي لا بد منها. كما ابتكرت منهجاً جديداً منذ إعداد وتقديم رواية "ذهب مع الريح" وهو أن نُقدّم بعض الصور التي تخدم النصّ الروائي بشتى الطرق والوسائل. من أجل أن يستمتع القارئ العزيز بأقصى استفادة من العمل الذي نُقدّمه. وسوف نستمر علي هذا النهج من التطوير والابتكار كلما سنحت الفرصة لذلك.

خالص الأمنيات بقراءة ممتعة شيقة.

وفيق صفوت مختار

القاهرة، في ديسمبر 2016.

## تمهيد

إنها الكاتبة الأمريكية الشهيرة، والناشطة الأكثر حماسة في مجال حركات التحرر من الرق والعبودية. وهي الشخصية المؤثرة في كتاباتها حينما كان لها وقفاتنا العلنية في تناول القضايا التي كانت تهم مجتمعها آنذاك.

لقد كانت روايتها "كوخ العم توم" Uncle Tom's Cabin صورة نابضة بالحياة لمعيشة الأفارقة الأمريكيين تحت وطأة الاستبداد والاستعباد. وقد صلت هذه الرواية الخالدة لملايين القراء في شتى بقاع الأرض، لتحمل رسالة إنسانية لكل العالم الطامح في بلوغ مراتب أعلى من الحرية والكرامة، يتضمّن فحواها: أنه لا فائدة تُرجى من الذل والعبودية.

وهي الرواية التي ألهمت الضمير الإنساني الأمريكي والعالمي علي حدّ سواء، وكانت سبباً رئيساً في نشوب الحرب الأهلية الأمريكية في سبعينيات القرن التاسع عشر، بعد الكتاب المقدس. ومما يُذكر للكاتبة كإنسانة تتمتع بروح الرحمة والرأفة أن خصّصت الجزء الأكبر من عائدات مبيعاتها لشراء العبيد ثمّ إعتاقهم، وإنشاء المنازل والملاجئ لضمان أن ينالوا ولو قسطاً يسيراً من الحياة الإنسانية اللائقة الكريمة.

وهكذا قال التاريخ كلمته: لقد كافحت بقلم أكثر ممّا كافحت بسلاح، وعاشت لتري معركتها ضدّ الرق والعبودية تنتصر في النهاية.

ولدت الكاتبة "هاربيت بيتشر ستو" Harriet Beecher Stowe في الرابع عشر من شهر يونيو عام 1811 في مدينة "نيو أنجلاند" New England بـ"ليتشفيلد" Litchfield بولاية "كونيتيكت" Connecticut، وهي ولاية تقع في شمال شرق الولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت الابنة الصغرى (السابعة) من بين ثلاثة عشر طفلاً. كان والدها هو أحد رعاة الكنيسة المشهورين، والذي عُرف بشجاعته في إبداء آرائه، أمًا أمها "روكسانا" Roxana، فقد كانت امرأة شديدة التدين وذات ثقافة عالية.



لم يكن راتب والدها القليل يكفي ليؤمن الأسرة الكفاف من العيش ممًا حداً بأمها إلي افتتاح مدرسة أهلية لتعليم العلوم، والفنون النسوية، واللغات بالإضافة إلي رسالتها الأولى كربة بيت وأمّ صالحة ومثالية.

هاربيت بيتشر ستو في شبابها

كان لها شقيقة تُدعى "كاترين بيتشر" Catherine Beecher التي كانت مُعلّمة وكاتبة، بالإضافة إلى عددٍ من الأخوة الذين صار بعضهم قساوسة فيما بعد، من بينهم: "تشارلز بيتشر" Beecher Charles، و"إدوارد بيتشر" Edward Beecher، وكان لها أخا يُدعى "هنري بيتشر" Henry Beecher وهو أحد المعارضين البارزين للعبودية.

في هذه البيئة الواعية المُكافحة نشأت "هاربيت" وأحسّت منذ طفولتها، بروح الحرية تسري في أعصابها ودمها وهي تتجول بين الحقول والغابات، ومن تلك الطبيعة الرائعة، ومن أرضها المشبعة بالسحب تثقفت كما تقول، ونمًا تفكيرها وفهمها للحياة بطبيعتها وتجهّمها وتقلّباتها.

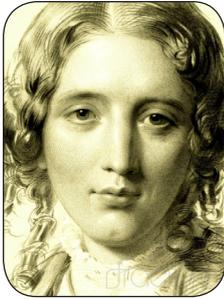
ولكن هذه الطفولة السعيدة سرعان ما نراها تتعرّض لضربة قاسية من ضربات القدر فيد الموت التي لا ترحم تغتال الأمّ المثالية المُضحية و"هاربيت" لم تتجاوز بعد الخامسة من عمّرها، وليبدو رحيل الأمّ وكأنّ الأسرة كلّها قد انكسرت وأصبحت بلا فائدة. ولم يكن الصغار هم الذين حرموا هذا النبع الفيّاض المتدفق من الإيثار والحنان وحسب، بل كان

السيد "بيتشر" ذلك الزوج الذي لم يستطع أي عزاء التخفيف من ألم فجيعة ووحده بعد رحيل شريكة حياته.

رحلت "هاربيت" إثر وفاة أمها لتعيش مع جدتها، ثم عادت إلي "نيو أنجلاند" بعد زواج أبيها للمرة الثانية. ولقد حاولت زوجة الأب أن تكون أمًا ثانية للأطفال الصغار ونجحت أن تكون محبوبة لديهم، غير أن "هاربيت" لم تحس نحوها بذلك الانعطاف الخاص.

في سن السابعة برهنت "هاربيت" علي أنها تملك ذاكرة وموهبة ساطعة فقد كانت مولعة بقراءة وتحصيل المعارف إلي حد بعيد فقد كانت مكتبة والدها مقصدها للبحث عن الغذاء الفكري وكان البحث عن هذا الغذاء يشبه لديها اكتشاف جزيرة في عرض المحيط.

في صغرها كانت تتحسس أنفها الطويل وذقنها الممتلئة وتوهمت أنها غير جميلة، وأن الآخرين لن يعجبوا بها، فانطوت على حساسية مفرطة وآثرت الصمت والعزلة. وعندما كبرت، ورغم نضج السن ورجاحة العقل والثقافة، فضلت "هاربيت" دائمًا ألا تُبدي رأيها في أحيان كثيرة، حتى عندما كانت تجلس مع بعض المثقفين الذين يناقشون قضية ما، كانت تمكث صامتة كأنها تمتص الكلام قطرة قطرة.



هاربيت بيتشر ستو

في عام 1823 حينما بلغت سن الثانية عشرة التحقت بمدرسة السيد "جون دريس" John Drees. وكان مربيًا ذا شهرة ومكانة وفضل، فظهرت براعتها وذكاؤها في التعبير والدقة في الإنشاء. وفي يوم الاحتفال بانتهاء العام الدراسي كانت الفائزة الأولى، وفي العام التالي أثبتت جدارتها العلمية واستطاعت القيام بتدريس الفلسفة الأخلاقية في نفس المدرسة.

كانت حياتها الفكرية قد أصيبت بانفصامٍ لعدة سنوات بسبب إعجابها بـ"الفلسفة التطهيرية" (البيوريتانية Puritan)، وهي عبارة عن مذهب مسيحي بروتستانتي يجمع خليطاً من الأفكار الاجتماعية، والسياسية، واللاهوتية، والأخلاقية. وظهر هذا المذهب في إنجلترا في عهد الملكة "إليزابيث الأولى" Elizabeth I (1533-1603)، وازدهر في القرنين السادس والسابع عشر، ونادي بالغاء اللباس والرتب الكهنوتية.

وتستند تعاليم هذا المذهب إلى الإيمان بالكتاب المقدس مصدرًا وحيدًا للعقيدة الدينية من دون الأخذ بأقوال القديسين ورجال الكنيسة، ويقضي بأن من واجب الإنسان أن يكون سلوكه في الحياة مطابقًا لما ورد في الكتاب المقدس، وعليه أن يؤمن بعقيدة القضاء والقدر. ولا يقتصر مذهب التطهيرية على أداء العبادة في بعض المناسبات أو في أيام مُعَيَّنَةٍ، بل يوجب تطبيق العبادة في الحياة كُلِّها، فيبدأ المتطهِّرُ يومه بسلوكٍ ظاهرٍ في علاقته الأسرية وباستقامة في تربية أولاده وبالمحافظة على صفاء روحه، ونظرته إلى شؤون الحياة بما فيها الناحية السياسية على هُدًى من الله، بعيداً عمَّا ورتته المسيحية في القرون الطويلة من شعائر شكلية ومظاهر كهنوتية. ويعتقد المتطهرون أن الله اختارهم وفضلهم على سائر البشر.



بورتريه للكاتبة

وكما أُحِبَّت "هاريت" هذه الفلسفة، كذلك رفضتها لقسوتها وصرامتها. ولم يحدث أن انقادت وراء الجوّ المُحافظ الذي عاشت فيه بل احتفظت باستقلالها الفكري الذي أدي بها إلي ولوج عالم الأدب الصاحب بكلِّ التيارات الفكرية المتعارضة وقد تحوَّل هذا الاستقلال إلي نوعٍ من الثورة الفكرية التي بلغت قمتها في روايتها الخالدة "كوخ العم توم".

وقد ظهرت بواكير الموهبة الأدبية عند "هاربيت" وهي لم تنزل في سن مبكرة، ففي عامها الحادي عشر كتبت مقالاً تُجيب فيه عن هذا السؤال: هل يمكن أن نهتدي بظواهر الطبيعة في البرهنة علي خلود الروح؟

وحينما بلغت الخامسة والعشرين من عُمرها انتقل والدها إلي "أوهايو" Ohio بعد أن أصبح رئيساً لايبارشية "لين" Lin في مدينة "سنسناتي" Cincinnati. فذهبت معه هي وشقيقتها "كاترين"، وهذه المدينة تقع علي الحدود بين الشمال والجنوب في الولايات المتحدة الأمريكية فكانت هذه فرصة لها أن تري بعينها حالة العبيد في الجزء الجنوبي من البلاد، وما إن مكثت هناك حتي أسستا هي وشقيقتها مدرسة جديدة في ضاحية المدينة.

ثمّ تلتقي "هاربيت" في "سنسناتي" بكاهن له مكانة مبدجة بين رجال الدين يُدعي "كالفن ستو" Calvin Stowe فتتزوج منه في السادس من يناير عام 1836 فأخذت منه لقب "ستو". وقد لعب زوجها دوراً مهماً في حياتها عندما أدرك قيمة موهبتها الأدبية وحثها علي الاستمرار في الكتابة لأنه كان مُحبباً للعلم والمعرفة بحكم عمله كأستاذٍ للاهوت بـ"كلية باودوين" Baodwin College منذ عام 1848.

وعندما أوشكت الحرب الأهلية عن الانتهاء نزحت عائلة "هاربيت" إلي بلدة "ماندارين" Mandarin بولاية "فلوريدا" Florida الأمريكية حيث بذلت أقصى ما في وسعها لكي ترفع الروح المعنوية لأهالي الجنوب وخاصةً الزوج منهم بعد أن طحنتهم الحرب.

وفي عام 1873 عادت مع أسرتها إلي "نيو أنجلاند" حيث أسست منزلاً في "هارتفورد" Hartford كرّست فيه حياتها للكتابة.

هاربيت بيتشر ستو ومساندتها لقضية إلغاء الرق والعبودية؛

كانت قضية الرق تهز النفوس في أرجاء القارة كافة، وبما أن مدينة "سنسناتي" كانت تقع بقرب حدود "كانتاكلي" Kentucky (الولاية الجنوبية للعبيد) فقد أصبحت مرفأً للأفكار التحريرية العاصفة، وكان العبيد يهربون إلي "أوهايو" الولاية الحرّة، فتمدّ لهم "هاربيت" يد المساعدة عن طريق رجال عُرفوا بعطفهم علي قضايا الحرية، وفي تلك البيوت الكريمة الواقعة في الشمال كان العبيد يجدون الحماية في النهار إلي حين ينقلون خلال الليل إلي تلك الولاية.

وأضحى ساحل تلك الولاية مقراً للجدل العنيف ولتأكيد قضية الخلاص من الرق بكافة صورهِ وأشكالهِ. ولقد ساعد الكثيرون من طلاب الولايات الشمالية علي تحرير العبيد، وكذلك علي تأسيس مدارس للطلبة الملونين في "سنسناتي" بالرغم من نظرية العداة التي ورثها هؤلاء عن أهلهم.



وحيثما حاولت الصحافة المحلية أن تلجأ إلي المُنَاداة بحلّ عادلٍ للقضية تعرّضت مطابعتها للتخطيم أكثر من مرّة، كما تعرّض الكثير من بيوت الملونين للحرق والتدمير. وكذلك تمّ قتل عدد من الملونين.

هاربيت وإيمانها بقضية تحرير العبيد

وقد فتحت "هاربيت" بيتها للأطفال الملونين الذين كانت تعلّمهم، وحيثما اعتقل واحد منهم تولّاهَا أسي شديد فبادرت إلي افتدائه بأموالٍ كثيرة. حينذاك أنذرت عائلة "هاربيت" بأنّ خطراً شديداً ينتظرهم، فهاجرت العائلة إلي الشمال في عام 1850. وشرع زوج "هاربيت" في التدريس بـ"كلية برونزويك" Faculty Brunswick، ولكن الأسرة كانت تمرّ بضائقة مالية شديدة فكان عليها أن تعتني بأطفال الآخرين وأن تقوم بالتدريس لهم، ثمّ تكتب المقالات المختلفة للصحف للحصول على دعم

مالي لأسرتها، وفي النهاية تُبدع وتمارس هوايتها في الرسم، وهذا كله دون أن تقطع صلتها بكفاح العبيد المرير في سبيل الحرية.

وفي أحد الأيام ذهبت لزيارة أخيها "إدوارد" في "بوسطن" Boston وهناك قابلت أحد الزوج المرموقين ويدعى "جوسياه هانسون" Josiah Hanson الذي حكي لها عن كفاحه الطويل، وكيف كان سيده يجلبه بوحشية بمناسبة وبدون مناسبة، حتى كسر كتفه الأيمن وأصيب بالشلل في ذراعية، وعندما وجد نفسه عاجزاً عن العمل والخدمة اقترح على سيده أن يعتقه في مقابل أن يدفع له مبلغاً من المال شهرياً، وراح الزوجي يعمل كحارسٍ لإحدى الكنائس ويُسدّد المبلغ شهرياً بانتظامٍ ولعدة أعوام حتى تجاوز المبلغ المتفق عليه دون أن ينال صكّ حرّيته، فاضطر إلى الهرب ليبدأ كفاحاً جماعياً ضدّ الرق حتى أصبح رمزاً لثورة الزوج في القارتين الأمريكية والأوروبية، كما أنّه التقى الملكة "فيكتوريا" Victoria (1819 - 1901) ملكة إنجلترا آنذاك. وهذا ما جعل الكاتبة تؤمن أكثر بقضية تحرير الزوج من الرق.



الملكة فيكتوريا

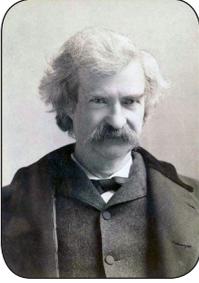
وفي السنوات التي تلت الحرب الأهلية، قامت "هاربيت" بتنظيم حملات تدعو لزيادة حقوق المرأة المتزوجة، معتبرة أن مكانة الزوجة تشبه تماماً مكانة العبد الأسود، فهي لا تستطيع أن تُحرر أية عقود قانونية، ولا أن يكون لها أية ملكية شرعية؛ فكل ما يمكن أن ترثه، أو تكسبه مُقابل عمل ما يصبح في لحظتها ملكاً لزوجها، فهو السيد الوحيد لكل ذلك، وعلي هذا لا يمكن لها أن تمتلك بنساً واحداً!!

وفي السبعينيات من القرن التاسع عشر اتهم شقيقها "هنري" بارتكاب جريمة الزنا، وصار موضعاً لفضيحةٍ قوميةٍ. ولم تستطع "هاربيت" تحمّل الهجمات الشعبیة على أخيها فهربت إلى "فلوريدا"، ولكنها أوصت أفراد عائلتها بأن يرسلوا إليها كافة أخبار القضية أولاً بأول. وعلى الرغم من هذا ظلت "هاربيت" خلال تلك القضية وفيه لأخيها ومؤمنة ببراءته.

• هاربيت بيتشر ستو في أيامها الأخيرة:

عقب وفاة زوجها "كالفن ستو" في عام 1886 بدأت صحة "هاريت" في التدهور بشكلٍ سريعٍ. وبحلول عام 1888 نقلت صحيفة الـ "واشنطن بوست" أن "هاربيت": بدأت كتابة كوخ العم "توم" مرةً أخرى نتيجة لإصابتها باضطرابٍ عقلي. تخيلت "هاريت" أنها مشغولة بتأليف الرواية لأول مرة، ولعدة ساعات كل يوم كانت تستخدم قلمًا وورقةً بجدٍ لتكتب فقرات طويلة من الرواية تقريباً بنفس الكلمات.. كلمة بكلمة. كان هذا يحدث لا شعورياً من ذاكرتها بينما كانت "هاربيت" تعتقد أنها تؤلف الرواية مع شروعها في الكتابة. وقد كانت تُرهق نفسها بالعمل الشاق الذي اعتبرته وليد اللحظة.

وقد تحدّث الأديب الكبير "مارك توين" Mark Twain (1835 - 1910) جار "هاربيت" في "هارتفورد" Hartford عن الأعوام الأخيرة في حياتها في الفقرة التالية من سيرته الذاتية: " لقد اضمحل عقلها، وصارت شخصية مثيرة للشفقة. كانت تتجوّل طوال اليوم في رعاية امرأة أيرلندية شبيهة برجل، ما بين المستعمرين، وكانت أبواب بيتها دائماً مفتوحة عندما يكون الجو جميلاً. وكانت دائماً ما تتسلل بخفةٍ حيث تستطيع أن تتعامل مع المفاجآت بل وأحبت أن تصنعها؛ فمن الممكن أن تتسلل وراء شخص يغط في الأحلام أو التأمّلات وتصدر صوت مثل صيحة في حربٍ ممّا يجعل



مارك توين

الشخص يقفز من ملابسه. وكان لها أمزجة أخرى أيضاً، ففي بعض الأحيان كنا نسمع موسيقى هادئة من غرفة الرسم الخاصّة بها، ونجدها هناك تعزف البيانو، وتغني أغاني قديمة وحزينة بصوتٍ مؤثرٍ بشكلٍ لا يوصف". والباحثين المحدثين اليوم يخمّنون أن "هاريت" عانت من مرض الزهايمر في نهاية حياتها.

وقد طوي الموت "هاريت" في الأوّل من شهر يوليو عام 1896 في "هارتفورد" عن عُمر يناهز الخامسة والثمانين. ودفنت في المقبرة التاريخية في "أكاديمية فيليبس" Phillips Academy في "أندوفر" Andover بـ"ماساتشوستس" Massachusetts.

من أهم أعمالها الأدبية رواية "كوخ العم توم" والتي صدرت في عام 1852 وقد بيع منها ثلاثة آلاف نسخة في الأيام الأولى لصدورها، وأكثر من ثلاث مئة ألف نسخة في العام الأوّل، وبين 1852 و1860 طبعت الرواية في حوالي 32 لغة.

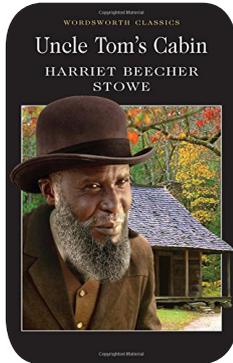
لم تقتصر الفكرة الرئيسة للرواية حول جلد العم "توم" العجوز الأسود حتي الموت، بل قدّمت أيضاً بانوراما عريضة مليئة بالأحداث الدامية لحياة الجنوب الأمريكي الذي يتبني الرق والعبودية والاستبداد.

وقد استطاعت الكاتبة أن تُرسخ مكانتها في الأدب الأمريكي بفضل واحدة فقط من رواياتها التي مازالت تُقرأ إلي الآن، ومن هنا كان اختيارنا لتقديمها ضمن إصدارات دار الطلائع لروائع الأدب العالمي للشباب.

كان السبب المباشر الذي دفعها لكتابة هذا العمل الخالد أنّها في صباح يوم من أيام الأحاد في عام 1851 وهي تصلي في كنيسة مدينة

"برونزويك" وفجأة رأت فيما يشبه الرؤيا عبداً أسود اشتعل رأسه شيباً بأسماله البالية وهو يُجلد بالسياط في قسوة لا نظير لها، وقد ظلّ العمال يجلدونه بأوامر من سيدهم الأبيض العنصري حتي فاضت روحه، وهو يبتهل إلي الله أن يغفر لجلاديه.

بعدها بدأت "هاريت" تكتب هذا الحلم وتصف آلام العبد وآثار السوط على جلده، ومشاعر زميليه اللذين يضربانه امتثالاً لأوامر السيد، ثم وصفت همجية هذا السيد الأبيض وتلذذه بالتعذيب. وتركت "هاريت" تلك الأوراق في غرفة النوم، وأثناء انشغالها في المطبخ اطلع عليها زوجها فأسرع ينادي عليها: ماذا تفعلين هنا، ولم تهدرين الوقت؟ اتركي كل شيء يا هاريت وأكملي قصتك لأنها عظيمة. وبالفعل تركت كل شيء وأرسلت إلى "غاماييل بيلى" Gamaliel Bailey، مدير "صحيفة العصر الوطني" journal National Era المعارضة للعبودية التي تكتب لها المقالات اعتذاراً رسمياً لأنها ستقطع من أجل كتابة قصة طويلة عن العبد، وممّا قالته في الرسالة: "نحن اليوم نعيش مأساة عبودية مستهجنة ورهيبة، من الواجب علينا جميعاً نساءً ورجالاً بذل الغالي والتمين للتحرر منها، لكي نرفع العار عن جباهنا".



رواية كوخ العم توم

وتضامناً مع موقفها وافق مدير الصحيفة على تفرغها وأن تنجز روايتها، وأرسل لها شيكاً بمبلغ أربعمائة دولار، فتفرغت عاماً كاملاً، كأنها وسيط في حالة استغراق كلي، تكتب بالليل والنهار، في الغرفة، والمطبخ، وعلى درجات السلم وترسل ما تنجزه إلى الجريدة ولم تتوقع أبداً أن "كوخ العم توم" سوف توزع للوهلة الأولى عشرين ألف نسخة، وأنها ستصبح بين عشية وضحاها أحد المشاهير في أوروبا وأمريكا.

ومما يجدر ذكره لطرافته وروعته، أن "هاربيت" بدأت كتابة الرواية بفصلٍ عن موت العمّ "توم" وقبل أن تمضي في إنشاء قصّتها كاملة، قرأت ذلك الفصل علي أطفالها، فبكي الأطفال بكاءً مرّاً، فمضت المؤلّفة تكتب الرواية فصلاً فصلاً، وكلّما فرغت من فصلٍ نشرته، فلم تلتفت الأنظار للرواية إبان نشرها علي حلقاتٍ متتابعةٍ، لكنها لم تكد تُجمع في كتابٍ واحدٍ حتي طار ذكرها في الأفاق.

في الأصل استخدمت "هاربيت" عنواناً فرعياً هو: "الرّجل الذي كان مُجرّد شيء" *The Man That Was A Thing*، ولكنها استبدلته بعد ذلك بقليل بعنوان "الحياة وسط الوضعاء" *Life Among the Lowly*. نُشرت الحلقات أسبوعياً في الفترة ما بين الخامس من يونيو لعام 1851 حتى الأوّل من أبريل لعام 1852.

بعد ذلك نشر "جون. ب جويت" John P. Jewett "كوخ العمّ توم" على هيئة كتاب في العشرين من مارس عام 1852 بطبعةٍ أولى ضمت خمسة آلاف نسخة. كلُّ مجلد من مجلدي الكتاب ضمّ ثلاثة رسوم إيضاحية وصفحة للعنوان، صمّمها "هامات بلينجز" Hammatt Billings. وفي أقلّ من سنة تم بيع عدد غير مسبوق من نسخ الكتاب وهو ثلاثة مائة ألف نسخة. وبحلول شهر ديسمبر بدأت المبيعات تقلّ فنشر "جويت" طبعة شعبيةً بهدف إنعاش المبيعات.

التصوير الشعوري الذي صوّرتة الرواية لأثار العبودية أسراهما الأمة الأمريكية، وزاد من الجدل حول العبودية والغائها، كما أثار المعارضة في الجنوب. وفي خلال عام واحد، سميت ثلاثمائة طفلة بـ "إيفا" *Eva* بطلة الرواية الصغيرة في "بوسطن"، وحدها، وتمّ افتتاح مسرحية مبنية على الرواية في "نيويورك" *New York* في نوفمبر من تلك السنة.

تدور الفكرة الرئيسة للرواية حول عبد زنجي أمريكي يدعي العمّ "توم" الذي نعرف من خلال الرواية بأنّه كان من الناحية الشكلية ضخم

الجسم، عريض المنكبين أو الكتفين، تدل ملامحه الإفريقية علي الإباء، وعزة النفس، ورجاحة العقل، وهذا ما كان يرغب النحّاسين في شرائه.

وكان "توم" فضلاً عن ذلك يمتاز بالوداعة، والسماحة، والبساطة، وطيبة القلب، والعطف، والحنو، كما كان حسن التدبير فقد أدار مزرعة سيّده "شيلبي" بتنظيم وإخلاص. وظهرت أمانته عندما كلّفه سيّده هذا للقيام بإحدى المهام التي تتعلّق بتحصيل الأموال فأداها بكلّ وفاء وإخلاص.

وكذلك تتسم شخصيته بروح التقوى والإيمان العميق، ولقد استمر إيمانه بالله يشدّ عزيمته عبْر كلِّ ما تعرّض له من أذى جسدي ومعنوي.

ولعلّ من الرائع أن نذكر عن "توم" رفته ولطفه، وقد تجلي هذا الجانب في علاقته بالطفلة "إيفا" التي كان يُلاعبها ويُلطفها ويحملها أثناء مرضها وهو ييطوف بها في أرجاء القصر.



تمثال نصفي للكاتبة

والعمّ "توم" يمرّ بمراحل مُتعدّدة وقاسية من المُعاناة والعذاب والألم، وهذه كلّها عوامل تضيف إلي شخصيته هالات من الوقار والكبرياء والصمود. ولكن الرواية لا تقتصر علي هذا العمود الفقري من الأحداث بل تُقدّم الكاتبة بانوراما عريضة لحياة الجنوب الأمريكي من خلال شخصيات مُتعدّدة ومتنوعة.

في الرواية هناك أربع شخصيات تشترك في ناحية واحدة، هي امتلاك العبيد والمتاجرة بهم، لكنها تتفاوت من حيث مُعاملتهم للزواج الأرقاء، فالسيد الأبيض "شيلبي" يميل إلي الطيبة والعطف، ولقد كان شديد الثقة بـ"توم" لكنه اضطر إلي بيعه في النهاية بسبب تراكم ديونه. يشبه هذه الشخصية بدرجة كبيرة شخصية السيد "أوغسطين سانت كلير" الذي

اشترى العم "توم" بالراح من ابنته "إيفا"، وهو مزارع طيب القلب، عطوف علي المساكين، مُحبّ للأطفال، وقد دافع بشدة عن حقوق العبيد في الحوار الذي دار بينه وبين شقيقه "ألفريد". أما "ليغري" فهو علي العكس تمامًا من الشخصيتين السابقتين، لأنّه كان قاسي القلب، عنيف، لا يعرف قلبه الرّحمة، ولم يكن بارًا بأمّه أبدًا، وكان يحمل بداخله خوفًا وهلعًا شديدين، وهو الرّجل الذي تسبّب في موت العم "توم".

ومن الشخصيات النسائية في الرواية السيّدة "شيلبي" وهي تتصف بالورع والتقوى، وكانت كريمة كلّ الكرم مع عبيدها، شأنها شأن زوجها. أما "ماري" زوجة "سانت كلير" فقد كانت علي النقيض تمامًا، حيث تكره العبيد وتحترقهم، وهي التي تسبّبت في بيع عبيدها ومنهم العم "توم" بعد وفاة زوجها مباشرة.

وهناك أيضًا "أوفيليا" ابنة عمّ "سانت كلير" فقد كانت تنظر إلي العبيد نظرة إيجابية، لدرجة أنّها أخذت علي عاتقها تربية وتعليم زنجية صغيرة بحنو ومحبة.



وتمثال آخر للكاتبة

وهناك نساء منتميات إلي طبقة العبيد من بينهم علي سبيل المثال: "إليزا" الأمّ البائسة المخاطرة التي هربت بطفلها لتلحق بزوجها "جورج". و"كلو" زوجة العم "توم" التي قرّرت أن تفتديه بالعمل لدي بائع حلوي، كذلك المرأة "كاسي" التي ذاقت الذل والهوان مرارًا حتي انتهى بها الأمر إلي بيع أطفالها، ولكن السماء تحمل لها ولرفيقتها "إميلين" مضاجات سارة.

ومن المشاهد التي لا تُنسى في الرواية المشهد الذي تصف فيه الكاتبة موت الطفلة "إيفا"، وهو مشهد زاخر بكل الأحاسيس الإنسانية. كذلك المشهد الذي تهرب فيه "إليزا" فوق الجليد حاملة طفلها "هنري"، وأيضاً مشهد اللقاء الأخير بين العمّ "توم" وسيده الصغير "جورج شيلبي" الذي جاء ليفتديه لكن بعد فوات الأوان.



تمثال يجسد اللقاء التاريخي بين الكاتبة والرئيس الأمريكي

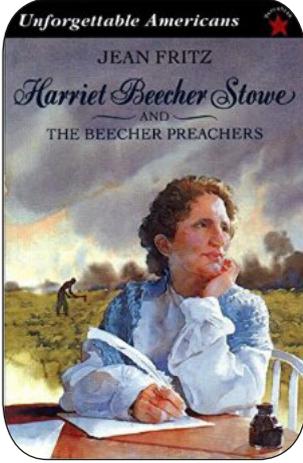
وقد تمثلت الخلفية لكلّ هذه الأحداث في مزارع القطن والقمح وغيرهما من المحاصيل التي أنتجها أصحاب الأراضي البيضاء في الجنوب الأمريكي، واستخدموا فيها العبيد لكي

يستخرجوا كل ما يمكن أن تأتي به. لا يهم في ذلك حياة الأرقاء الذين كانت تقلّ في القيمة عن حياة الدواب والماشية. لقد كان قلم "هاربيت" ناضحاً بكل العطف والحُب والحنان سواء للزواج أو لأهالي الجنوب التي طحتهم الحروب الأهلية.

وفي هذه الرواية أثبتت الكاتبة لأهالي الشمال أن الرق نظام يتنافى مع أبسط المبادئ والقيم الإنسانية، أمّا الجنوب الأمريكي فكان ينضح بالكراهية والعداء للرواية وصاحبته. وقد شن الإقطاعيين في الجنوب على الكاتبة حملات إعلامية ضارية، كما تلقت رسائل تهديد بدون توقيع، ومع ذلك ظلت تدعم قضية العبيد بالعائد المادي الذي كسبته من نشر مؤلفاتها.

وعندما احتدم الصّراع بوصول "أبراهام لينكولن" Abraham Lincoln (1809 - 1865) إلى سُدة الرئاسة في عام 1861، قال خصمه: "يجب على لينكولن أن يشكر كوخ العمّ "توم" الذي أشعل جذوة حرب تحرير العبيد".

وكانت "هاربيت" تستمد من إيمان "لينكولن" جذوة حماس مضاعف  
فراحت تكتب المقالات النارية وحثت ابنها على التطوع في الحرب، كما



من الكتب التي رصدت حياتها وكتاباتها

إن تحرير العبيد من التعسف والاضطهاد والظلم هو غايته الأسمى". وكان  
لنشر هذا المقال أثناء اشتداد المعارك دوي كبير في الأوساط الشعبية،  
مما جعل "لينكولن" يعدل من موقفه، بل ويقابل "هاربيت" شخصياً مدة  
ساعة كاملة.

وفي مطلع عام 1863 فوجئت "هاربيت" بالأنباء تُذاع بأن "لينكولن"  
وَقَعَ على قانون التحرير، كما فوجئت بالأصدقاء وبالجميع يهنئونها  
كأنه نصر شخصي لها، وكأن لسان حالها يقول إن الكفاح العنيد والنبالة  
والتضحية تلك هي المعاني الباقية.

كذلك لم يقتصر أثر الرواية علي مُحاربة نظام الرق والاستعباد في  
الولايات المتحدة الأمريكية فقط بل أمتد ليشمل معظم مناطق الرق في  
العالم كُلّه.

كان التجاوب مع الرواية في كافة أرجاء العالم قوياً عاصفاً تبدي في فيض من رسائل التشجيع من ملوك وأمراء وكُتَّاب وأدباء، فقد كتب لها الكاتب الكبير "تشارلز ديكنز" Charles Dickens (1812 - 1870) يقول: "إن كتابك لجدير بكلِّ عقلٍ وبكلِّ قلبٍ". كما مدحت الرواية الكاتبة الإنجليزية "جورج إليوت" George Eliot (1819 - 1880). كذلك قرأت الرواية عند صدورها الروائية الفرنسية "جورج صاند" George Sand (1804 - 1876) فامتدحتها وعرفت للكاتبة قدرها العظيم، كما قرأتها بشغف الملكة "فيكتوريا" ملكة بريطانيا.

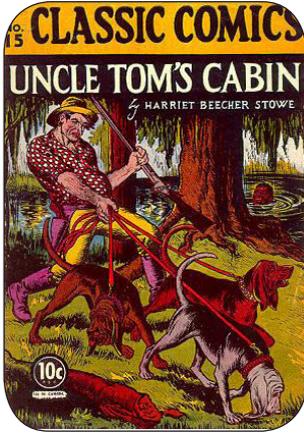
ومع هذا لم تخل الرواية من بعض الثغرات التاريخية، والتنوؤات الاجتماعية، والأخطاء الفنيّة، بل إن بعض النُقَّاد قال بأن الروايات الأخرى للكاتبة ترتفع درجات كثيرة عن "كوخ العم توم" إذا ما قورنت بالناحية الفنيّة.

ويقول الدكتور "نبيل راغب" أنه علي الرغم من أن "هاريت بيتشرستو" لم تكن واعية ومدركة تماماً لضرورات الشكل الفني التي تحتمها معايير النقد الحديث إلا أنها قدّمت إضافة ضخمة إلي تراث الرواية الأمريكية بصفة خاصّة، وتراث الرواية العالمية بصفة عامّة، فلم تكن الأخطاء الفنيّة التي وقعت فيها الكاتبة سوي أخطاء الرؤاد العظام الذين يكتبون بلا خلفية ضخمة من التقاليد الراسخة.



• الأعمال الأدبية الأخرى للكاتبة :

ينبغي أن نُشير إلي أن "هاربيت بيتشر ستو" كتبت أول قصة لها في عام 1834 وحازت جائزة في مسابقة للقصة كان "إدجار آلان بو" Edgar Allan Poe (1809 - 1849) من المشتركين فيها، كانت القصة بعنوان "العمّ لوط"، ونُشرت في مجلة "وسترن" الشهرية.



وفي عام 1835 عندما كانت تقوم بالتدريس في "سنساتي" نشرت كتاباً عن الجغرافيا. ثم كتبت في عام 1853 كتاب "المرشد إلي كوخ العمّ توم" لتوضح بالبراهين والأسانيد أنها أخذت المشاهد والشخصيات والأفكار مما يدور فعلاً في الحياة ولم تدع شيئاً من خيالها علي سبيل الإثارة وتهيج المشاعر.

كوخ العمّ "توم" في مجلات الكوميكس

وفي كتابها "دريد" أو "مستنقع الرعب

العظيم" الذي نُشر عام 1856 ناقشت "هاربيت" نظام الرق من وجهات نظر مُتعدّدة وجديدة وأعدت فيه إظهار شخصيات رواياتها الأولى ولكن بأسماء جديدة، بل إنها قالت للذين أظهروا لها العداء: "إنّ الله عزّ وجلّ هو الذي أملي عليّ كوخ العمّ توم، ولم أكن أنا سوي الوسيلة التي كتبت الإملاء".

وقد حازت أعمال "هاربيت" الأخرى علي الإعجاب والاحترام علي أساس ريادتها في مجال الأدب الإقليمي المحلي الذي يحاول الخروج بقضايا الانسانية إلي المجال العالمي.

كما يعتبر النُقّاد أن أفضل كتبها هي التي تستمد مادتها من الحياة في "نيو أنجلاند" ومن خبرتها الشخصية بهذه الحياة، فهي يبدو أنها درست

الأساطير المحلية والحكايات الشعبيّة، كما تجلّت موهبتها الأصلية في الرسم المرح لشخصياتها الروائية والقصصية.

وكذلك استطاعت أن تستخرج من صبا زوجها مادة خصبة للذكريات،



ومع ذلك لم تحصل هذه الأعمال علي أيه شهرة، لعلّ من هذه الأعمال نذكر تحديداً: "إغراء الكاهن عام 1859"، و"ثؤلوة الجزيرة" عام 1862، و"أهالي

الكتابة علي إحدى العملات الأمريكية تكريماً لها

المدينة القديمة" عام 1869، و"قصص المدفأة" عام 1872.

وفي أثناء معيشة "هاربيت" بمدينة "ماندارين" بولاية "فلوريدا"، كتبت أعمالاً عدة تشمل وصفاً روائياً للمناظر المحلية التي وقعت عيناها عليها، يتجلي هذا في رواية "أوراق النخيل الصغيرة" عام 1873.

وكان من الطبيعي أن نتوقع لكتابات "هاربيت" أن تكون من باب السيرة الذاتية، مثل: "عزيزي تشارلي" عام 1858، و"نحن وجيراننا" عام 1875. وممّا يجدر ذكره أن المؤلفة كانت تكتب أحياناً باسم مستعار وهو: "كريستوفر كراوفيلد".

في عام 1853، وهو العام التالي لصدور الرواية الرائعة "كوخ العمّ توم" قامت "هاربيت" بزيارة أوروبا مع زوجها، فكانت تُقابل في كلّ مدينة تزورها بحماسة منقطعة النظير.

وقد افتتح اكتتاب عام لتحرير العبيد، حيث قُدم لها مبلغ ألف جنيه إسترليني علي صينية مصنوعة من الفضة. كما دعتهإ إحدى الدوقات إلي حفل كبير في بيتها. وقدمت لها خلال الحفل سواراً ذهبياً علي شكل قيد

لعبد نُقش علي الحلقة الأولى منه عبارة: "إننا نؤمن بأنه رمز لتقيّد سوف يتحطم عاجلاً".

• اللقاء التاريخي بين الكاتبة والرئيس:



عندما زارت "هاربيت بيتشر ستو" الرئيس الأمريكي "أبراهام لنكولن" المُحرراً الأعظم للعبيد. ذات يوم من أيام عام 1862 في البيت الأبيض، وقف في تبجيل واحترام لهذه المرأة التي قُدر لها أن تهز بروايتها الخالدة "كوخ العمّ توم" ضمير العالم، وتُجنّد الرأي العام الأمريكي ضدّ الظلم الساحق النازل بالزنج،

وأن تكون الموحية والمدافعة هاربيت بيتشر ستو والرئيس أبراهام لنكولن لحرب تحرير العبيد الأهلية التي انتصرت فيها الولايات الشمالية علي نظيراتها الولايات الجنوبية قال: "أهذه أنتِ أيتها السيّدّة الصغيرة التي سببت كل هذه الحرب الكبيرة؟".

ثمّ استطرد يقول: "حسنًا، إنني لسعيد بأن أرحب بكِ بوصفك مؤلّفة تلك الرواية العظيمة".





### الرجل الحنون.. والصفقة

## Compassionate man and deal

في أمسيةٍ من أمسيات شهر فبراير الباردة، كان في غرفةٍ غنيّةٍ بالأثاث الفاخر في إحدى مدن ولاية «كانتاكّي» Kentucky رجلان يحتسيان الخمر وحدهما، وكأنّهما يبحثان موضوعًا شائعًا استأثر باهتمامهما وامتلك كل انتباههما.

كان أحدهم قصير القامة، بدينًا، ذا ملامح تدل علي غلظته ونفسيّة مليئةٍ بالمكر الأجوف الذي يبدو عادةً علي الرّجل الوضيع، عندما يسعى لأن يشق طريقه في عالم الرفاهية والشراء. وكان يلبس ثيابًا مُنفاّرةً تتعدّد ألوانها وتتضّارب، وكانت يده الغليظتان مثقلتين بالخواتم، أمّا لفته فكانت في عداٍ مع قواعد اللغة لا تتمسك بقيدٍ ولا ضابط.

أمّا جلسه، السيّد «شيلبي» Shelby، فكان مظهره يدل علي أنه عريق في النّبيل والوجاهة.

- يجب أن تسوي القضية علي هذا الشكل. (قال السيّد شيلبي).

- ولكن لا أوافق هذا العرض! (ردّ السيّد هيلي Haley).

- كن علي ثقةٍ، يا هيلي، إنّ «توم» Tom يندُر وجود شبيه له. وهو يستحق هذا الثمن، فهو قوي مخلص، كما أنّه يُدير مزرعتي كُلّها بإخلاصٍ وتنظيمٍ.

- تقصد أنه مخلص كما يعرف الزوج الإخلاص!

- لا، بل أعني أن «توم» شاب طيب وحساس وتقي. ولقد اعتنق الدين المسيحي منذ أربع سنوات فعَمَرَ قلبه بالإيمان. ومنذ ذلك الحين وأنا أأتمنه علي مالي وبيتي وعائلي. وفي الخريف المنصرم أرسلته إلي «سنسناتي» Cincinnati في عملٍ من أعماله، وكلفتُه أن يجلب لي معه خمس مئة دولار فلم يُخَيِّب ظني به، وقد حاول بعضهم أن يغروه فقالوا له: توم، لماذا لا تهرب؟ فأجاب: لقد وضع سيدي ثقته فيّ وقد وعدته بأن أعود، وليس من طبعي أن أخون الأمانة أو أُعذر بمن وثق بي. وعلي أيّ حال، فأنا آسف لاضطراري إلي التخلي عن توم، وأعتقد أنك لن تُخيب رجائي في أن تعدّ هذه الصفقة سدادًا مني لدينك كُلّه.

ولكن «هيللي» أعذرت بلطفٍ جمٍّ لعدم تلبيةه رغبة السيّد «شيلبي». ثمّ فكّر وقال:

- أليس عندك صبيّ تستطيع أن تستغني عنه أو صبية تستطيع أن تُقدّمها لي مع توم؟

- لا، لا! أقول لك الحق، وأعلم أنّها الضرورة القاهرة هي التي تحمّلني علي بيع «توم» لاشيء سواها.

وبينما كان الجليسان يتناقشان في هذا الموضوع الخطير، فُتح الباب. ودخل الغرفة صبيّ في منتصف العِدَّة الأوّل، أسمر اللّون، له شعر أسود فاحم يتدلي علي جبهته الجميلة، وكانت عيناه السوداوان تلمعان من تحت أهدابه المنبسطة ما أكسبه جمالاً نادرًا. وكان ثوبه الأحمر الزاهي، ورداؤه المُخَطَّط الأصفر يُزيدان جماله روعةً وبهاءً.

دُهِشَ السَّيِّدُ «شَيْلِبِي» لِرؤْيَةِ الصَّبِيِّ، وَرَاحَ يَتَحَسَّسُ بِيَدِهِ شَعْرَهُ الْجَعْدُ فِي رِقَّةٍ بِالْغَةِ، ثُمَّ قَالَ:

- أَرِ السَّيِّدَ كَيْفَ يَكُونُ الرَّقْصُ وَالْغِنَاءُ.

فَأَخَذَ الصَّبِيُّ يُنْشِدُ أَغْنِيَةً مِنْ تِلْكَ الْأَغَانِي الْقَدِيمَةِ الشَّائِعَةِ بَيْنَ الزَّنُوجِ.

فُتِنَ «هَيْلِي» بِالصَّبِيِّ، فَالْتَفَتَ إِلَى السَّيِّدِ «شَيْلِبِي»، وَقَالَ:

- إِنِّي عَلِيٌّ اسْتَعْدَادٌ لِأَنَّ أَعْفِيكَ مِنَ الدِّينِ كُلِّهِ إِذَا سَلَمْتَنِي هَذَا الْغَلَامُ.

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ فَتَحَ الْبَابَ بَرَفَقٍ، وَدَخَلَتِ الْغُرْفَةَ شَابَةً لَا يَزِيدُ عُمْرُهَا

عَنْ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ أُمُّ الْغَلَامِ لِأَنَّ لَهَا عَيْنِيهِ الْكُحَيْلَتَيْنِ وَأَهْدَابَهُ الطَّوِيلَةَ،

فَضْلًا عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ الْجَمَالِ الْأَثْوِيِّ. وَقَدْ اسْتَأْثَرَتِ الْمَرْأَةُ بِانْتِبَاهِ

تَاجِرِ الرَّقِيقِ، صَلَبَ الطَّبَاعِ عَدِيمِ الْعَاطِفَةِ.

وَهُنَا سَأَلَهَا السَّيِّدُ «شَيْلِبِي»، قَائِلًا:

- مَا الَّذِي أَتَى بِكَ يَا إِيْزَا Eliza؟

- كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ هَارِي يَا سَيِّدِي!

وَرَكِضَ الْفَتَى نَحْوَ أُمِّهِ يَضْمُهَا، فَطَلَبَ مِنْهَا السَّيِّدُ «شَيْلِبِي» أَنْ تَأْخُذَ

الْغَلَامَ وَتُغَادِرَ الْغُرْفَةَ.

وَلَكِنِ النَّخَاسَ بَائِعَ الْعَبِيدِ الَّذِي أُعْجِبَ بِالْمَرْأَةِ وَبِجَمَالِهَا عَرَضَ عَلَيَّ

«شَيْلِبِي» أَنْ يَبِيعَهُ إِيَّاهَا بِأَيِّ ثَمَنٍ، فَأَبَى «شَيْلِبِي» بِإِصْرَارٍ. وَلَمَّا فَشِلَ فِي إِقْنَاعِهِ

سَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ الْغَلَامَ، فَأَبَى كَذَلِكَ قَائِلًا:

- لا تحاول عبثاً، فلن أبيعهُ. إني يا سيّدي، رجل مفطورٌ علي حُبِّ بني الإنسان، وأكره أن أنتزع الغلام من حضن أمّه!

وأدرك تاجر الرقيق أنّ مُحدثه يُحبّ العبيد، فشرع يُحدثه عن عطفه علي العبيد، وعمّا يعتمر به قلبه من حُبِّ لبني البشر. حتي إذا أنس ولاحظ من السيّد «شيلبي» نزعَةً وميلاً إلي تصديقه، أشرقت عيناه ببريق الأمل، وقال:

- والآن ماذا تري؟

- سأدرس الموضوع مع زوجتي، وباستطاعتك أن تسمع جوابي النهائي هذا المساء.

كان نظام الرق في ولاية «كانتاكي» أخفّ وطأة علي الزوج منه في سائر الولايات الأخرى، إذ يبدو ذلك واضحاً لمن يتسنى ويُتاح له أن يزور، ولو لمرةً واحدة، إحدى مزارع الولاية، فيري تلك المُعاملة الطيبة التي يلقاها الزوج من قبل البيض رجالاً ونساءً. وعلي الرغم من ذلك كُلّه، كان شبح القانون يُخيّم علي هذا البلد، فما دام القانون يجعل جميع أولئك الكائنات البشرية، بقلوبها النابضة وأحاسيسها الحيّة، ملكاً للسيّد الأبيض، يتصرّف بها كما يتصرّف بما يملك من أشياء، وما دام موت المالك الرؤوف أو افتقاره، كثيراً ما يُبدّل حال الزوج من التسامح والحماية الرقيقة إلي حال من الكفاح المتواصل والشقاء المُحتمّ، فإنَّ أنظمة الرّق، مهما امتازت باللطف والرّحمة، لا تسوّغ أو تُعلّل بقاءه.

وكان السيّد «شيلبي» رجلاً نبيل النفس، كبير القلب، ميلاً إلي العطف علي كُلِّ مَنْ يعيش معه، ولم يكن يضمن أو يبخل علي زوجه بأيّ شيء

يُساعد علي تمّتعهم بالفاهية. بيد أن إسرافه الطائش أغرقه في خِصْمٍ من الديون. فإذا بدائه النخّاس «هيلي» يُطالبه بماله.

لقد أدركت «إليزا» بفطرتها، وهي تقترب من باب الغرفة، أنّ النخّاس يعرض علي مولاها بيع شخص ما، ومنّ يدري؟ فقد يكون المباع هو ابنها. وعندما خطر هذا خاطر في خَلْدِها وبالها رجف قلبها وانقبضت نفسها. حتي إذ رأتها السيّدة «شيلبي» علي هذه الحال، وسألتها عمّا بها، أجابت والدمع يترقرق من عينيها، والزفرات تتصاعد من صدرها:

- أوّاه، يا سيّدتِي، هنالك نخّاس يتحدّث إلي سيّدي في قاعة الاستقبال، وقد تم الصفقة!

- وأي مأساة في ذلك؟

- أتعقدين يا سيّدتِي أن سيّدي يُقدّم علي بيع هاري Hary؟

قالت هذا، وارتمت علي الكرسي منتحبة بصوتٍ منخفضٍ.

- ماذا تقولين؟ بيع هاري.. هذا هراء أيتها الحمقاء، فأنتِ تعرفين سيّدك، وتعلمين أنّه لا يتعامل مع أولئك النخّاسين الجنوبيين، وهو لا يُفكّر في بيع أحد من خدمه ما داموا يسلكون النهج المستقيم. ولكن تُري من يكون ذلك المغفل الذي يطمع بامتلاك هاري؟ أتعقدين أن مصائر جميع الناس باتت مرتبطة به كما هو مصيرك؟ ألا عودي إلي محرك أيتها الحمقاء، وابتعدي عن استراق السمع من وراء الأبواب، فذلك يُجلب الشكّ فيك!



## الحرية في مقابل الموت Freedom versus death

نشأت «إليزا» منذ نعومة أظفارها تحت رعاية مولاتها السيِّدة «شيلبي» التقية الورعة، طيبة القلب. ومَرَّت بسنِّ النضج من دون أن تتعرَّض للتجارب التي تعترض الفتاة الجميلة فتجعل من جمالها سببًا لشقائها.. ثمَّ تزوّجت «إليزا» من شاب فطن ذكي كان ملكًا لسيِّد المزرعة المجاورة. وكان زوجها «جورج هاريس» George Harris يعمل في مصنعٍ للأكياس، فأخترع آلة لتنظيف القنْب تُعدُّ حقًا من الأعمال العبقريّة.

وعلم سيِّد الإقطاعية وكان فظًّا غليظ القلب، بنأ الاختراع، فأسرع إلي المصنع ليري الآلة البارعة التي يتحدّث عنها العمال بإعجاب. وفيما كان «جورج» يشرح لسيِّده حسنات اختراعه ويعرض عليه حركات الآلة مزهواً فخوراً بما اخترع، استشعر السيِّد ضرباً أو نوعاً من الشعور بالنقص، فإذا هو ثائر، وإذا به يأمر المسؤول علي المصنع أن يفصل «جورج» عن العمل، وأن ينقله إلي أحد الحقول ليعزق الأرض ويحرثها.

و كان أوَّل لقاء مثمر جري بينهما، حينما كانت «إليزا» واقفة علي شرفة المنزل الذي تعمل فيه، ففاجأها «جورج» بربّته رقيقة علي كتفها إذ كانت غافلة، فصرخت والفرح يغمر قلبها:

- جورج! أهذا أنت؟ لقد أفرعتني. حسناً، كم أنا سعيدة بلقائك أتراني وحدي. فقد خرجت سيّدتني لزيارة بعض معارفها، وليس في المنزل أحد يمكن أن يُعكر صفونا. تعال معي إلي غرفتي الصغيرة لنقضي فترة الأصيل معاً.

قالت ذلك، وانسحبت هي وزوجها إلي غرفتها المؤدية إلي الشرفة، ثم استطردت تقول:

- ما أشدّ سعادتني! ولكن ما بالك؟ إنك لا تبسّم، ولا تنظر إلي هاري الصغير كيف ينمو ويتعرّع؟  
وطبعت علي جبين طفلها قبلة تنضجُ بالعطف والحنان، وكأنّها تُظهر بهذا حبّاً لزوجها.

- ليته لم يولد! وليتني أنا لم أولد قطّ!  
وهنا ارتاعت «إليزا»، فجلست تهيّئاً للموقف، وأسندت رأسها إلي كتف زوجها وانفجرت تبكي.

فقال «جورج» بحزن:

- يبدو أنّني أُسبّب لك المتاعب الكثيرة. وكم كنت أتمني ألا تريني ولا أراك! فلعلّ في ذلك سعادة لك وراحة البال.

- جورج! جورج! كيف تقوي علي ذكر هذا؟ أيّ كارثة حدثت أو توشك أن تحدث لنا؟ لم أكن لأشك بأننا كُنّا سعيدين جدّاً، فما بالك مُعكّر الخاطر اليوم؟

- بالصواب تنطقين يا عزيزتي .

قال ذلك، وأجلس الصبي علي ركبته، وانشأ يُحدِّق إلي عينيه الصافيتين،  
ويُمِرُّ أنامله من خلال شعره الجعْد الطويل، وأردف:

- أجل يا إليزا، لقد عَدَّتْ حياتي مريرة حتي لا تكاد تُطاق. فأنا عامل  
بئس فقير ممتهن و مُحْتَقِر فما الغاية من معيشتي؟ ليتني فارقت الدنيا قبل  
أن يُعذِّبني الدهر!

- أنا أعلم يا «جورج» أنك مازلت متحسراً علي عملك الذي فقدته في  
المصنع، كما أعلم أن لك سيِّداً قاسي القلب لا تعرف الرَّحمة إلي قلبه  
سيلاً، ولكن اصبر فلعلّ..

- أصبر؟! ألم أتحمّل و أصبر طوال هذه المدة؟

- إنّه حقاً أمر مُرِيع، مُخيف فما الحلّ ما دام سيِّدك هو نفسه الذي طردك  
من العمل؟

- تقولين سيِّدي! مَنْ الذي جعله سيِّدي؟ ومَنْ أعطاه الحق في امتلاكه؟  
إن هذا الأمر يقضي مضجعي. تُري أيّ حق له عليّ؟ وبم يمتاز عني؟ أنا  
إنسان بقدر ما هو إنسان، بل إنني إنسان أفضل منه. وباستطاعتي أن أقرأ خيراً  
مما يقرأ، وأن أكتب خطأ أفضل من خطه. لقد تعلّمت ذلك كُلّه بنفسِي، ولم  
يكن له أي فضل عليّ في هذا. بل إنني تعلّمت علي الرغم منه. والآن أله  
الحق في أن يطردني من عملي، ويحملني علي القيام بأعمالٍ يستطيع أيّ  
عامل أن يقوم بها؟

- أوه يا جورج.. لم أسمعك تتحدّث بهذه اللهجة قبل اليوم فاعتصم بحبل الأناة والصبر، بحقي أنا، بل بحق ابنا هاري..

- لقد اعتصمت طويلاً بحبل الصبر. فأنا مخلوق من لحمٍ ودمٍ لذا لا أقوى علي احتمال كلِّ هذا الظلم. وللصبر حدود. تصوّري.. بالأمس كنت منهمكاً في نقل الحجارة إلي العربة فرأيت «توم» ابن السيّد، يُلوّح بسوطه قرب الفرس فأفزعها، فخشيت عليه وطلبت منه في كثيرٍ من التأمُّد أن يُقلع عن ذلك فاستمر في عبثه السمع القبيح، حتي إذا التمسْتُ منه الإقلاع عن عبثه مرّةً أخرى، ارتدَّ إليّ وأخذ يُلهب جسدي بسّوطه. فأمسكت به فصرخ ورفسني. وانطلق إلي أبيه وزعم أنّني ضربته ضرباً مُبرِّحاً. فما كان من الأب إلّا أن أقبل نحوي والشرر يتطاير من عينيه فشدّني إلي جذع شجرة وقطع للسيّد الصغير عدداً من القضبان، وأمره أن يضربني بها حتي ينهكه التَّعب. ففعل الصبي ما أمره به أبوه.

وارتعدت «إليزا» ولم تنبس بكلمةٍ. ثمّ ملكت عواطفها وتساءلت:

- والآن ماذا تنوي أن تفعل يا جورج؟ أوه.. حذار أن تقوم بعملٍ طائشٍ. وأعلم أنّك إذا أسلمت أمرك إلي الله وحاولت أن تعمل صالحاً أنقذك من هذا البلاء.

- أنا لستُ مسيحياً مثلك يا إليزا. إنّ قلبي يأكله نمل قاتل، فلا أستطع أن أسلم أموري إلي الله. ولستُ أعلم، علي كلِّ حالٍ، لماذا يسمح الله بأن تجري الأمور علي هذه الشاكلة؟



- ولكن يُحسن بك أن تعتصم بالإيمان، يا «جورج»، فسيّدتي تقول: علي الإنسان مهما قاسي وعاني من الظلم وذاق من المتاعب، أن يبقي إيمانه بالله شديداً، فالله يكون معنا دائماً ويُساعدنا.

- هذا كلام يمكن أن يؤمن به أولئك الغارقون في أسرتهم، والمختالون علي متون خيولهم. ولكن دعيهم يعيشون لحظة كما أعيش، فإنهم سيرتابون أكثر ممّا أرتاب. إنني أتمني لو أجد إلي الطمأنينة سبيلاً أو طريقاً، ولكن قلبي يشتعل بالحقد، وليس في قدرتي تهدئته. وأنت لا تستطيعين أن تتحملي أكثر ممّا تحملي، لا سيما إذا علمتِ ببقية الحادث..

- وهل من بقية لهذه القصة؟

- لم يخجل سيّدي من أن يُصرّح بأنّه قد ندم علي تزويجي من امرأة تحيناً في إقطاعية لا تخصه، وهُدّد بأنّه لن يسمح لي بعد اليوم بأن أزورك، وأنّه من الأفضل لي أن أتزوِّج من امرأة تعيش علي أرضه وتكون ملكه. وقد ابتعد في تهديده هذا حتي إنّه أمرني أمس أن أتزوِّج مينا Mina، وإلا باعني لأحد الأسياد في الجنوب.

- ولكنك زوجي وحدي. وقد تزوجنا كما لو كنا بيض البشره!

- ولكن ألا تعلمين يا حبيبتي أنّه لا يجوز للعبد أن يتزوج؟ فليس في قانون البلاد ما ينصّ علي هذا الزواج. لهذا ليس في استطاعتي أن أحتفظ بكِ زوجة لي إذا شاء سيّدي أن يُفَرِّق بيننا. لهذا قلت لكِ إنني أتمني لو أنّني لم أولد ولم أرك، ولو لم يولد هذا الطفل لكان ذلك أفضل لنا جميعاً، فقد يقع له هذا المصاب في مستقبلٍ غير بعيد..

- لا تقل هذا، فمولاي أرأف من سواه بكثيرٍ.

- صحيحٌ ولكن مَنْ يعلم؟ فقد يموت. وعند ذلك يبتاع ابننا سيّدٌ لا نعرفه ولا نعرف من أمره شيئاً، من غير أن يدفع عنه الضرر جماله وذكاؤه. وأنتِ أتدرين أن جمالكِ سوف يجزّ عليكِ الوبال وسوء العاقبة فتدفعين ثمن هذه المفاتن، فبمثلكِ يطمع تجار الرقيق، وبهذا تخسرين ولدكِ إلي الأبد.

وارتجفت «إليزا» رعباً. لقد تراءت لها صورة «هيلي» النخّاس، فامتقع لونها وتابعت أنفاسها، ثمّ تطلّعت في عصبيةٍ، إلي الشرفة حيث كان الصبيّ يعبث بعضاً للسيدة «شيلبي» ويتخذ منها حصاناً يركبه. وفكّرت في أن تبوح لزوجها بما يُقلقُ بالها وما تخشاه من وجود النخّاس عند «شيلبي» سيّدها، ولكنها فضّلت أن تصمت خشية أن تضيف إلي جروح زوجها جراحاً بالغةً.

وأردف الزوج أن يقول في حسرةٍ بالغةٍ:

- إنَّ كلَّ ما أوصيكِ به يا إليزا هو أن تصبري علي المصائب، واسمحي لي الآن أن أودعكِ فإني ذاهب..

- ولكن إلي أين ذاهب يا جورج؟

- إلي كندا. وعندما أبلغ تلك الديار سأبعث بالمال لأشتریکما. ذلك هو الأمل الوحيد الذي بقي أمامي. إنَّ لكِ سيّداً كريماً، وهو لن يرفض أن يبيعكِ لي. أشتریکِ وأشترى هاري، إذا أسعدني الله..

- ولكني أخشي أن يُقبض عليكِ في الطريق.

- لن يُقبض عليّ أحد يا إليزا. وإني أفضل الموت علي هذه الحياة. فإمّا أن أصبح حرّاً وإمّا أن أموت.

## الهروب العظيم Great Escape

كان كوخ العمّ «توم» يقع في حديقةٍ نظيفةٍ مليئةٍ بأنواع الأزهار والرياحين التي تُدخل السرور إلي قلب زوجته «كلو» Chloe، التي كانت في الوقت نفسه الطاهية الرئيسة، والمُسيطرة علي كُلِّ ما في تلك المنطقة.

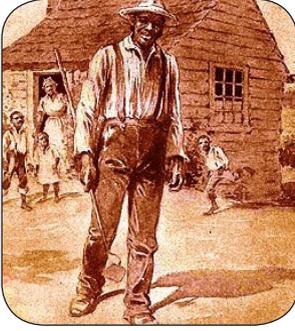
حتي الدجاج، والأوز التي تعجّ بها حظائر آل «شيلبي»، كانت تخشاها وترتعد منها فرعًا حين تُشاهد وجهها الأبنوسي اللامع من بعيد.

أمّا العمّ «توم» نفسه فكان رجلاً ضخماً الجسم عريض الكتفين، تدل ملامحه الإفريقية علي الإباء والترُّفُع عن الدنيا، يمتاز بعزة النفس، ورجاحة العقل، فكان إلي جانب ما هو عليه من الوداعة، والبساطة، محبوباً ومبجلاً ومتديناً حقيقياً.

وعندما أقبلت «إليزا» إلي كوخه حاملة ولدها «هاري» وجدته يُصلي في تلك السّاعة المتأخرة من الليل، وعندما سمع نقر «إليزا» علي زجاج النافذة، نهض من مكانه وفتح الباب، فدخلت «إليزا»، وقالت:

- لقد تركت المزرعة وهربت بولدي هاري أيها العمّ توم، وأيتها العمّة «كلو». لقد أنقذت ابني من الجحيم الذي ينتظره. فقد باعه سيّدي لأحد النّخّاسين.

وصاح العجوزان متعجبين ورفعا أيديهما في ذعر:



- باعه؟!

- أجل! باعه. لقد استغني عنه. وقد سمعت السيد يقول لزوجته إنه باعك أيضًا أيها العمّ «توم» لأحد التجار، وإنّ المشتري سيصل اليوم لاستلامكما.

العمّ "توم" أمام كوخه

وجمد «توم» في مكانه حين سمع هذا واتّسعت حدقاته، وأحسّ كأنّه يحلم. وفي هدوءٍ مُدهش ارتمي علي كرتسي قديم، وأرخي رأسه حتي كاد يلامس ركبتيه. أمّا العمّة «كلو» فداخلها القلق الشديد، وقالت:

- ليرحمنا الله، أيّ ذنب اقترفنا؟

ثمّ قالت «إليزا»:

- بالطبع، إنّه لم يفعل شيئًا قبيحًا. واعتقد أن السيّد لم يكن يودّ بيعه ولا بيعك. أمّا سيّدتي فقد سمعتها تبكي وتتوسل إلي زوجها أن يعفّ عن هذا البيع وينقذنا. فكان يعتذر لها متألّمًا، وصرّح بأنّه أقدم علي هذه الفعلة الشنيعة للتخلّص من الديون المتراكمة التي مدينّا بها لذلك النحاس، وأنّه مضطر لهذا البيع وإلا طالبه النحاس بالمزرعة كلّها.

فالتفتت العمّة «كلو» إلي زوجها، وقالت:

- حسنًا أيها العجوز، لماذا لا تهرب وتنقذ نفسك؟ أليس أفضل لك من أن تنقل إلي حيث يموت الزنوج جوعًا وتعبًا وراء النهر؟

فرغ «توم» رأسه في بطءٍ ونظر حوله بحسرةٍ، وقال:

- لا. لا. لن أعادر هذا المكان هربًا. لتفر إليزا إذا شاءت فإنَّ ذلك من حقها. أمّا أنا فقد كنت دومًا عند حُسن ظن السيّد شيلبي، وسأظلّ علي ذلك ما حييت.

فقال «إليزا» وهي تلتصق بباب الغرفة:

والآن، ما العمل؟ لا أدري أين يكون زوجي فلم أراه إلا ظهيرة اليوم، وما كنت أعلم وقتها ما أخبرتكما به. فأرجوكم، إذا بقيتما هنا، أن تخبرا عن هريي. و قولاً له إني سأحاول اللحاق به إلي كندا. ولا تنسب أن تُبلغاه سلامي، وتنتقلا إليه حُبّي. كما أرجو أن توصياه ما دام بعيدًا عني بأن يكون مُخلصًا لي، وأن يسعي للاجتماع بي إن لم يكن علي الأرض ففي السماء. واختنق صوتها، وانسلت تحت جناح الظلام.



ليس في الوجود مخلوق بشري يمكنه أن يكون أشدَّ بؤسًا من «إليزا»، حين غادرت كوخ العمّ «توم» في ذلك المساء. فقد تخيلت الآلام التي سيُعانيها زوجها، والمستقبل المظلم الذي يُهددها وابنها. وقد

شق عليها، فوق كلِّ هذا، أن تُغادر المنزل الذي ضمَّ حياتها الماضية متمتعة بحنو سيّدتها التي تُحبها وتحترمها. وصعب عليها أن تنقطع صلتها نهائيًا بالمكان الذي نشأت فيه، والأشجار التي عاصرتها واستظلت تحتها، ولكن جزعها علي ابنها كان أقوى من هذه العواصف كُلّها.. والواقع أن ابنها كان

في سنّ تمكنه من السير إلي جانبها، ولكن فكرة إنزاله عن صدرها كانت تجلب لها الرعدة والاضطراب وترخي أوصالها وتلهب قلبها، فتضرب وتمتنع عن هذه الفكرة، وتشده إلي صدرها الخفاق، وتسرع في سيرها من دون أن تلوي أو تنظر علي شيءٍ.

وقبل الغروب وصلت «إليزا» إلي نهر «أوهايو» Ohio الفاصل ما بينها وبين بلاد الحرية. وكان الربيع في بدئه وأمواج مياه النهر المتلاطمة تحدث دويًا ساحرًا، وفي بعض جوانب النهر كانت قطع ضخمة من الجليد تتأرجح حائرة طائشة.

فتشت «إليزا» عن قارب أو مركب ينقلها إلي الضفة الثانية من النهر حيث تنجو من الملاحقة، فلم تجد ما يُساعدها علي ذلك، فاضطرت أن



رجل يسأل إليزا للوصول إلي اليابسة

تأوي إلي نزل صغير اتخذه صاحبه فندقًا من دون أن يكون له صفات الفندق. فنامت مع ابنها التعب ليلتها تلك، وكانت الهواجس والأفكار المزعجة

تشغل بالها وتقضي مضجعها فيطير منها النوم. ولكن كلّ ذلك لم ينقذها من شرّ النخّاس الذي جن جنونه عندما علم بفرارها فلاحق بها مع جماعة له وعبثًا حاولت السيّدّة «شيلبي» أن تُعيق سيره، فقد توصل في تحرياته الحثيثة المُتسارعة والمتواصلة لمعرفة مكان «إليزا» في تلك الليلة نفسها. وقد

أحسَّت بالخطر المُحدق بها فغادرت المنزل وحملت طفلها، وانطلقت نحو النهر الهادر فبلغته من دون تأخر. قرَّرت أن تقطعه مُخاطرة بحياتها، وخاصَّة عندما رأت النخَّاس وجماعته يلحقون بها، ويقتفون أثرها، ويتبعونها.

وبشجاعةٍ بالغةٍ نادرةٍ لا يمنحها الله إلا للبائسين المساكين، قفزت «إليزا» من الشاطئ المُخيف الذي تقف عليه إلى النهر، فأدركت قطعه من الجليد كانت عائمة علي النهر فوقفت عليها وهي تشدُّ ابنها إلى صدرها. ثم انفصلت قطع عن الجليد، فتكسرت القطعة التي كانت تقف عليها، فأسرعت «إليزا» من دون أن تفقد توازنها لحظة واحدة، فوثبت إلى قطعةٍ أُخري قريبة منها، ثم انتقلت إلى الثالثة. وفي أثناء ذلك فقدت حذائها، ومُزق جوربها، وجُرحت قدماها وعمل فيها الصقيع عمله، ولكنها لم تر شيئاً، ولم تشعر بما حولها إلى أن رأت عيناها، وكأنَّها في حلم، شاطئ أوهايو، إذ كان رجل يُساعدها علي النزول إلى اليابسة.





## القلوب الرحيمة تنتصر للأمل

### Compassionate hearts triumph of hope

كان تَوْهُّج المدفأة يُكسب أثاث حجرة الاستقبال الفخمة روعة فبدت جوانب الكؤوس وإبريق الشاي المصقول اللامع متوهجة بلهب النار ما يزيد الغرفة جمالاً علي جمال. وفي وسط هذا الثراء الفاخر شرع السناتور «بيرد» Bird عضو مجلس الشيوخ يخلع حذاءه لينتعل الخفين الجديدين اللذين صنعتهما زوجته من الصوف الفاخر، أثناء غيابه عن منزله لحضور انعقاد الدورة البرلمانية.

وبينما كان يرتدي خفيه الجديدين، التفت إلي زوجته، وقال بصوتٍ متهدجٍ مرتجفٍ:

- الحق يا ماري Marie أن مهمة التشريع هذه مهمة مضية!

- حسنًا، ولكن ما الذي فعلتموه في هذه الدورة؟

- لا شيء يستحق الذكر والاهتمام الشديد..

- تُري، هل كان المجلس يناقش قانوناً يفرض علي البيّض أن يمنعوا الطعام والشراب عن أولئك الملونين البائسين الذين يلجأون إلي الولاية؟ لقد علمتُ أنّهم يُعالجون شيئاً من هذا القبيل، ولكني لا أعتقد أن ثمة مجلساً مسيحياً يُقره بحالٍ من الأحوال.

- يبدو لي أنك انقلبت فجأة، إلي سياسية متحمسة.

- لا، إنَّ هذا مستحيل فإنني أفضل ألا أفقد ثانية واحدة من عمري في مناقشة سياستكم، ولكنني أظن أنكم تقدمون علي عمل وحشي منافٍ و مناقض لروح المسيحية، وأرجو يا عزيزي، ألا تقدموا علي إقرار مثل هذا القانون.

- إنَّ عبيد كانتاكي قد أفسدوا الكثيرين من أبناء الولاية، وإنَّ الكثيرين من أعداء الرق باتوا يثيرون أهل الولاية علي الدولة بتصرُّفاتهم الشاذة.. لهذا قرَّر مجلس شيوخ ولاية أوهايو ذلك القانون الذي سمعت به لتهدئة الخواطر في الولايات المجاورة لها.

وما إن سمعت السيِّدة «بيرد» كلام زوجها حتي امتنَّع وجهها بالدم، وظهرت عليها أمارات الغيظ فسألَّت زوجها بحزم:

- ولكن قلَّ لي بصراحة، يا جون John، هل ذلك القانون عادل؟ أو هل ينسجم مع تعاليم المسيحية؟

فقال في شيءٍ من السخرية:

- إنَّك لن تطلقي النار عليَّ إذا ما قلتُ إنني أجده عادلاً ومنسجماً مع الروح المسيحية.

- ولكنك لم تصدِّق علي القانون طبعاً!

- لقد فعلت حقاً!

فازدادت السيِّدة «بيرد» ثورةً وغيظاً، وقالت:

- يُحسن بك أن تخجل من عملك هذا، يا جون، قانون معيب مُلحد فاسد مجرم، ولسوف أحاول تحطيمه بنفسي عندما تسنح لي الفرصة

المؤاتية المناسبة، وإني لأرجو الله أن يُتيح لي مثل هذه الفرصة. كم تكون الحياة بشعة ووحشية حين ينتهي الأمر إلي أن تُمنع المرأة من تقديم عشاء ساخن و فراش دافئ إلي المخلوقات البائسة الجائعة، لا لشيءٍ إلا لأنَّ لهذه المخلوقات بشرة سوداء، ولأنَّها خضعت طوال عُمرها للمستغلين!

وحاول السيّد «بيرد» أن يُهدئ من ثورة زوجته، ولكنها أبت الإصغاء والاستماع إلي كلامه وصرخت في وجهه بقوة:

- هذا هُراء، وكُلُّ ما تدّعيه لا يُطاق، وإنك تستطيع أن تتكلم منذ الآن وحتي ينبلج الفجر، ولكنك لن تتوصّل إلي إقناعي بصحّة رأيك. وإني أوجه إليك سؤالاً بسيطاً لتري مدي الوحشية التي ينطوي عليها قانونكم الأبر الناقص: تُري لو طرقت بابنا الآن مخلوقة بائسة جائعة وطلبت منك طعاماً، فهل تراك تنتهرها وتردها خائبة ذليلة النفس مكلومة مجروحة الفؤاد، لمُجرّد أنّها عبدة وأنَّها هربت من ظلم جلاّديها المجرمين؟ كم أودُّ حقاً أن أري ما يمكنك أن تفعله في مثل هذه الحال يا جون! هل تطرد هذه المرأة تحت العاصفة الثلجية، أم تلقي عليها القبض وتسوقها إلي السجن؟ ولا أخالك أنّذ خليقاً وجديرًا بأن تفخر بتلك الأعمال النبيلة التي تُقدم عليها.

وفي هذه اللَّحظة الحرجة مدّ «كودجو» Cudjoe الزنجي العجوز رأسه من وراء الباب، وطلب من سيّدته أن تحضر إلي المطبخ. فتنفس عضو مجلس الشيوخ الصعداء واسترخي في كرسيه ذي الذراعين، وشرع يتصفح جرائد اليوم.

وما هي إلَّا لحظات حتي سمع صوت زوجته يدوي في أرجاء المنزل،  
قائلةً:

- أسرع يا جون وتعال إلي هنا حالاً لتري..

ورمي السناتور صحيفته، وأسرع إلي المطبخ حيث زوجته تُناديه، فإذا به يري امرأة هزيلة شابة، ترتدي أسماً ممزقةً، وكانت ترتعد وترتجف من البرد، وتلبس في إحدى قدميها حذاء، فيما كان الدّم يسيل من القدم الأخرى ذات الجورب الممزق.

وكانت ملامح هذه المرأة تدل دلالة واضحة علي أنّها تنحدر من العرق المُحتقر، ولكن جمالها الحزين ورَجْفَها من التعب والجوع أوقعا الخوف والهلع في قلب السناتور، فأخذ يتأمّل تلك المرأة من دون أن ينبس بكلمة واحدة.

في حين انصرفت زوجته وخادمتها السوداء العجوز العمّة «دينا» Dinah إلي إنعاش المرأة فاقدة الوعي، ووضع «كودجو» الصبيّ علي ركبتيه، وانهمك في خلع حذائه وجوربه من قدميه الصغيرتين الباردتين.

وصرخت السيّدة «بيرد» في حنانٍ:

- لا تخافي أيتها البائسة المسكينة.

وذلك عندما رأت المرأة تفتح عينيها الواسعتين السوداويين وتديرهما فيما حولها، محاولة النهوض وعلي وجهها أمارات الموت. ثمّ فتحت هذه المخلوقة فاهها، وقالت:

- أوه هاري، ابني هاري! تُري هل قبضوا عليه؟

وهنا وثب الصبيّ من حجر «كودجو» وعاد إلي أمّه، فتلقفته بذراعيها مُتّنهدة، وقالت بحنوٍ:

- آه! إنّه هنا.. إنّه هنا!

ثمّ التفتت إلي السيّدة «بيرد»، وقالت في انكسارٍ:

- أتوسل إليك يا سيّدي وأرجو أن يوفقك الله لقبولنا عندك، وأن تمنحنا  
حمايتك ورعايتك. بربك لا تسمحي لهم بأن يأخذوا ابني مني!

فأجابتها السيّدة «بيرد» بلهجة متحمسة دافئة:

- لن يَفُوي أحد أن يُصيبك بأذى وأنتِ عندنا. لا تخافي أيتها المرأة  
البائسة فأنتِ في ملجأ أمين منذ اليوم.

وأدخلت السيّدة «بيرد» تلك المرأة المسكينة إلي فراش دافئ وثير،  
فنامت عليه ملء جفونها، وهي تحتضن ولدها بذراعيها. وقد أبت بشدة ما  
أرادت السيّدة «بيرد» أن تفعله بأن تنقل الطفل إلي سريرٍ آخرٍ ليرتاح أكثر.

وعاد السيّد «بيرد» وزوجته إلي الحجرة التي كانا فيها من غير أن يتعرضا  
بكلمةٍ واحدةٍ إلي حديثهما السابق. وتشاغلت السيّدة «بيرد» بحياكة الصوف،  
في حين تظاهر السيّد «بيرد» بقراءة الصحيفة.

وأخيراً خرج السيّد عن صمته، وقال:

- إني لأتساءل من تكون تلك المرأة؟

أجابت السيّدة «بيرد» والرضي يملأ نفسها:

- سوف تعرف ذلك بعد أن تنعم بقسطٍ وافٍ من الرّاحة وتنهض من نومها.

وساد الصمت في الغرفة من جديد. وما هي إلاّ لحظة حتى أقبلت العمّة  
«دينا» لتخبرهما أن المرأة قد أفادت من سباتها وأنها ترغب في مقابلة السيّد  
«بيرد».

وعاد السناتور و زوجته إلي المطبخ فوجدا المرأة جالسة علي مقعدٍ  
خشبي قرب النار. وكانت ترنو ببصرها إلي اللّهب في وداعةٍ ورقةٍ. فابتدرتها  
السيّدة «بيرد» بصوتٍ رقيقٍ:

- أمل أن تكوني مرتاحة وفي وضع أفضل منذ اليوم.

فتنهدت المرأة الغريبة ووجهت إلي السيّدة «بيرد» نظرة ابتهاال وتضرّع صارخ من عينيها الكحيلتين، كان لها أبعاد الأثر في نفس السيّدة «بيرد» حتي إنّها، إزاء تلك النظرة المُعبّرة، لم تتمالك أنفاسها اللاهثة ولا حبست دموعها المنهمرة، فقالت بوداعةٍ مطمئنة المرأة:

- لا تسمح لي للخوف أن يُسيطر عليك، فأنت هنا بين أصدقائك أيتها المرأة المُعذبة. ولكن بربك، ألا تُصارحيني بحقيقتك؟ ومن أين أقبلت؟ وماذا تبتغين؟

فأجابت المرأة فورًا:

- من ولاية كانتاكي، يا سيّدي.

وهنا بدأ السناتور الحديث فأخذ يسألها:

- متى؟

- هذه الليلة.

- وبأيّ وسيلة؟

- لقد عبرت النهر فوق الجليد.

فبهت الجميع وصرخوا بصوتٍ واحدٍ:

- فوق الجليد؟!!

فقالت المرأة في أناةٍ ولطفٍ:

- أجل لقد فعلت ذلك، وقد ساعدني الله. لقد اجتزت الجليد لأنهم كانوا

يلاحقونني ولم يكن ثمة سبيلٍ آخر.



وسألها «بيرد» :

- وهل كنتِ خادمة من الرقيق؟

- نعم يا سيّدي، وكان مالكي رجلاً من كانتاكي.

- وهل أساء معاملتكِ؟

- كلا يا سيّدي، فهو سيّد كريم الشمائل!

- وهل أساءت إليكِ سيّدتكِ؟

- لا، لا! كانت تلاطفني دائماً وتُحسن إليّ في معاملتي.

- إذاً ما الذي دعاكِ لمُغادرة ذلك المنزل الكريم، ومُجابهة تلك المخاطر؟

هنا زفرت المرأة المُعذبة زفرةً عميقةً، وتطلعت إليّ السيّدة «بيرد» بعينٍ باكيةً، وقالت:

- أيتها السيّدة المُحسنة، هل خانكِ الدهر وفقدتِ يوماً ولدًا من أولادكِ؟

لم يكن صاحبنا المنزل يتوقعان مثل هذا السؤال. فقد سقط قاسياً عليّ قلبيهما، وأثار فيهما ألمًا كامناً، وأهاج جرحاً لم يلتئم. ذلك لأنّهما فقدتا منذ شهر ولدًا عزيزاً، فكانت الصدمة عليهما قاسية.

فقالَت السيّدة «بيرد» متألّمة:

- تُري لماذا توّجهين إليّ مثل هذا السؤال؟ لقد فقدت ابناً غالياً عليّ قلبي!

- لا ريب إذاً في أنّكِ ستعطفين عليّ، فقد فقدت ولدي، وقد دفتيهما في الولاية التي هربت منها. ولم يبق لي في الوجود سوي هذا الولد، فهو كلّ ما أملك، وقد أرادوا انتزاعه مني لبيعه للنجّاسين. لم أحتمل ذلك، فحملته وهربت، فتعقبني النجّاس مع نفرٍ من جماعة مولاي القديم، وكادوا يقبضون

عليّ لو لم أقفز إلي النهر وأركب الجليد. فعبرت النهر ودموعي علي كفيّ،  
ولا أدري كيف وصلت هنا!؟

وأجهشت السيّدة «بيرد» بالبكاء. وصرخت «دينا» والدمع يغمر وجهها  
الأسود، وهي تقول:  
- اللّهم أرحمنا.

في حين فرك «كودجو» العجوز عينيه فرغاً عنيفاً. أمّا السناتور «بيرد»  
فكان رجل دولة، فليس منتظر منه طبعاً أن يتأثّر بالبكاء شأن بقية الناس.  
ولكنه صاح:

- ولكنك زعمت منذ قليل أنّ سيّدك رجل طيب القلب كريم النفس!  
- أجل إنّه طيب، ولكنه اضطر لاتخاذ ذلك القرار لتغطية دين كان يروح  
تحت ثقله المذل.

- وزوجك، ألا يستطيع أن يفعل شيئاً؟

- أجل، ولكنه هو ملك لسيّد آخر، وهو لاقى مثل ما لاقيت، وسيّده كان  
يُعذبه، ويهدده بأن يبيعه إلي نخاسي الجنوب، فهرب، وأغلب الظن أنني لم  
أره بعد اليوم.

- والي أين تفكرين في أن تذهبي؟

- هل تكون كندا بعيدة من هنا يا سيّدتى؟

فأجابتها السيّدة «بيرد» بوداعةٍ ظاهرة:

- إنّها بعيدة من هنا..

وعندما رجع السيّد «بيرد» وزوجته إلي غرفتهما، قال السناتور لزوجته  
غاضبًا:

- يجب أن تبعد هذه المرأة عن بيتنا حالاً فأنا لا أقبل أن يُلقني القبض  
عليّ لمُجرّد وجودها عندي. فلا تنسي أن بقاءها يُسيء إلي مركزي ويلوث  
سمعتي.

فردّت السيّد «بيرد» والدموع تملأ عينيها:

- نقذف بها حالاً؟ وكيف السبيل إلي ذلك؟ والي أين؟

فقال «بيرد» وهو يشرع في لبس نعليه:

إنّي لا أعرف إلي أين أقودها؟ عمومًا، ليس أمامي سوي أن أحملها  
إلي صديقي جون فان ترومب John van tromp فهو يعطف علي مثل  
هذه المخلوقات، وقد أعتق في يوم من الأيام عبده جميعًا، وهجر كاتناكي  
ليشتري بيتًا يقع بعيدًا في قلب الغابة. إنّه بيت لا سبيل للوصول إليه من قبل  
الدولة. ولكن المشكلة تكمن في أنّه لا يستطيع أحد أن يقطع ذلك الطريق  
الوعر سواي..

وبعد أن ارتدي ثيابه، قام ليُعدّ العربة للسفر الشاق، وقبل أن يُغادر الغرفة  
التفت إلي زوجته، وقال لها في تردّد ظاهر:

- لستُ أدري، يا ماري، أيّ شعور سيستولي عليك من جراء عملي هذا..  
أرجو أن تهرع إلي تلك الخزانة حيث ثياب ولدنا هنري Henry الفقيد..  
قال هذا، وأشاح بوجهه، ثمّ مشي وأغلق الباب وراءه.

لن تكن «ماري» لترتاب من رقة عواطف زوجها وقلبه الكبير. ولكن كلامه أثار كوامن نفسها فظفرت عيناها بالدموع، وهرعت حالاً إلي الدُّرج الصغيرة متنوعة الأشكال والألوان، وصفاً من الجوارب الصغيرة، ووجدت نعلين صغيرين، وفرساً خشبياً، وعربة.. فأجهشت بالبكاء حتي وصلت مدامعها إلي ثيابها، ثم جلست إلي جانب الدُّرج وأسندت رأسها إلي يديها، ثم رفعت رأسها فجأةً وشرعت تختار في سرعةٍ عصبيةٍ، أخف الأشياء وأثمنها، وتجمعها كلها في ربطةٍ واحدةٍ.

وصاح أحد ولديها، متسائلاً:

- ماما! أتريدين أن تُقدمي هذه الأشياء إلي أحدٍ؟

فقالت الأمُّ في حنانٍ وصدقٍ:

- لو تطلع هنري الصغير إلينا من عليائه، لابتهج بما نفعله الآن، لم يكن في مقدوري أن أقدم هذه الأشياء إلي شخصٍ أعرفه، إلي أيِّ إنسانٍ سعيدٍ. ولكن أقدمها اليوم إلي أمِّ عرفت انسحاق الفؤاد أكثر ممَّا عرفته أنا.

وبعد ذلك فتحت خزانة ملابسها، وانتزعت منها ثوبين لتعطيها للمرأة المسكينة. وعندما دقت السَّاعة القديمة المُعلقة علي الحائط مُعلنة الثانية عشرة ليلاً، حمل «بيرد» المرأة المُحطمة «إليزا» وابنها إلي منزل «جون» فان ترومب، فبلغوه بعد جهدٍ متواصلٍ ومخاطرٍ بالغَةٍ. وقد رحب «جون» بالمرأة وطفلها. وبعد أن مكثا عنده مدةٍ وجيزة، ساعدهما علي الفرار إلي مستعمرةٍ صغيرةٍ من مستعمرات «الكويكرز» (جماعة الأصدقاء) المشهورة بالتقوى والتدين. وهناك التقت «إليزا» بزوجها «جورج» وسعدت بلقائه، وكحلت عيناها برويئته، بعد أن كان اليأس من لقائه قد سيطر علي نفسها وروحها!!

## الرحيل إلى المجهول

### Move into the unknown

انبلج صباح ذلك اليوم الكالح العابس من أيام فبراير علي مخلوقاتٍ بشريةٍ حزينةٍ مهمومةٍ، وقلوب مكلومة كانت تعيش في كوخ العمّ «توم». لقد كوت العمّة «كلو» قميصين خشنين ولكنهما نظيفان، واستعدت لكي قميص ثالث علي المنضدة قرب النار. وكان من عاداتها أن تُبلّل كلّ جزء من أجزاء القميص قبل أن تكويه. ولعلّ دموعها المنهمرة من مآقيها كانت تُساعدها علي تليل الثياب المُعدة للكي.

وكان «توم» غير بعيد عنها يتصفح الكتاب المقدس الكبير الموضوع علي ركبته مسنداً رأسه إلي راحة يديه. ولم ينطق الزوجان بكلمةٍ، وكأنّهما أصبحا أحرسين. وقد بدأ النهار بوضوح وأولادهما ما يزالون نائمين في سريرهم الصغير المصنوع بطريقةٍ بدائيةٍ، وهو عبارة عن رفوف من الخشب تركز علي عجالاتٍ كعجلات العربات.

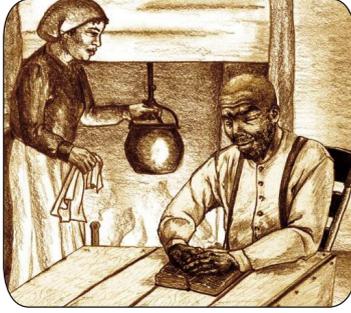
نهض العمّ «توم» من مكانه مثقل الرأس ومشى في اتجاه أولاده، ثمّ خرج عن صمته فقال:

قد تكون المرّة الأخيرة التي يُتاح لي أن أراهم فيها!

ولم تُجب العمّة «كلو»، بل أخذت تكثر من تمليس القميص بالمكواة جيئةً وذهابًا بحركاتٍ عصبيةٍ. حتى أنّ القميص غدا مع خشونته ناعمًا بعض الشيء. وعندما انتهت من عملها ارتمت بياسٍ علي المقعد الخشبي وأخذت تنتحب.

فقال «توم» بجرعةٍ من الإيمان:

- لا تجزعي يا كلو! سيكون معي هناك الله نفسه الذي أسبغ وأفاض علينا رعايته هنا.



- هب أن ذلك صحيح! ولكن الله كثيرًا ما يسمح بحدوث أشياء مروعة مخيفة. إنني خائفة عليك جدًّا يا توم.

"توم" ينتظر مصيره نحو المجهول

- إنني أترك نفسي لله، وهو كفيل بأن يُعينني علي ما رسمه لي. والحقيقة أنّ هنالك ما يمكنني أن أحمدّه عليه رغم كلّ شيء، وهو أن السيّد باعني وحدي ولم يبعك أو يبيع ولدًا من الأولاد. فما دمتم أنتم في مأمن هنا فإنني لا أعبأ ولا أهتم بأيّ شرٍّ قد يُصنبي وحدي. وسأستعين بالله علي احتمال كلّ ما يمكن أن ألاقيه من متاعب، وهو يساعدنني من دون شكّ.

- كان باستطاعة السيّد أن يعفّ ويمتنع عن بيعك لو أراد. ولا يمكنني إلّا أن ألومه.



- كلو، زوجتي العزيزة، بما أنكِ تحبينني حتمًا، لا تتحدثي بهذه اللّهجة، فلا أريد أن أسمع أيّ تجريحٍ موجهٍ للسيد شيلبي.. ألا تعلمين أننا ربيناها معًا فحملته علي كتفي وهو صغير، واعتنيت به كأحد أولادي؟!

- لا أعلم! ففي الأمر ملابس لا أفهمها..

وبعد أن قالت هذا، انصرفت لإعداد طعام الفطور الأخير لزوجها الراحل عنها بعيدًا. وقد عنيت أن يكون ذلك الفطور أشهي ما يكون.. أفضل دجاجة عندها، وأنواع من الحلوى والفطائر، فضلًا عن الحساء الشهي.

واستغرب ولدها «مُوز» Mose من تلك المآكل التي تضعها والدته علي تلك المائدة، فمدّ يده وانتشل قطعة من الدجاجة، فما كان منها إلا أن نهزته وزجرته بعنفٍ وضربته بكفها علي أذنه، وصرخت في وجهه:

- كيف تجرؤ أن تمسّها؟ أما تعلم أنّه آخر فطور يتناوله أبوك في هذا المنزل؟

ولامها «توم» علي تصرّفها. فقالت وهي تخفي وجهها وراء منزرها:

- لا تؤاخذني، فما كنت أقصد.

وجمد الأولاد مكانهم لدي صراخ أمهم، وأخذوا يتفحصون حركات أمهم وأبيهم باهتمام بالغ، ثمّ أسرع الطفل الصغير وتعلّق بثياب أمه وبكى بكاءً صارمًا مدويًا.

بعدها قالت «كلو» وهي شبه منهارة:

- والآن يجب أن أعدَّ لك ثيابك. ها هو ذا ثوبك الصوفي الذي يقيك ويحميك الروماتيزم، في هذه الزاوية. وهذه هي قمصانك الجديدة والعتيقة قد رفَّوَّتْها أمس.. ولكن يا إلهي مَنْ سيرتأ لك جواربك بعد اليوم؟!

وأسندت رأسها إلي جانب الصندوق وتنهدت. وهنا صاح أحد الأولاد:  
- ها هي السيِّدة تأتي نحونا.

فقال «كلو» مندهشة:

- إنَّها لا تستطيع أن تبدِّل الوقت، فلماذا تراها جاءت؟

ودخلت السيِّدة شيلبي، فقدَّمت لها «كلو» في خشونةٍ واضحةٍ كرسياً لتجلس عليه.

ثمَّ قالت السيِّدة مترددة:

- يا توم! إني آتية..

وصمتت إذ لم تقوي علي النطق أمام هؤلاء الحزاني، بعدها ارتمت علي الكرسي وأجهشت بالبكاء.

وإذ رأتها «كلو» علي هذه الحالة، قالت لها:

- لا تبكي يا سيِّدتي. رجاء، لا تبكي!

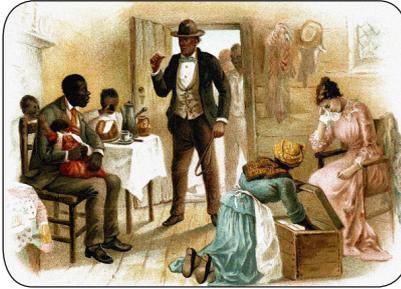
ثمَّ انفجرت «كلو» بدورها بالبكاء، وبكي الجميع مدة من الزمن بصمتٍ.

وأخيراً قالت السيِّدة «شيلبي»:

- ثق يا «توم» بأني لا أستطيع أن أهبك شيئاً ينفَعك في مصيبتك. فهب أني أعطيتك الآن بعض المال فإنهم سيأخذونه منك من دون شك. لهذا فإنني لم أجد ما أقدمه لك سوي أن أقسم بالله القدير أني سأعمل دوماً لتلقَّف أخبارك أملاً في أن أفتديك وأستعيدك من المالك الجديد، عندما يتيسر لي المال الكافي لذلك. والي أن يتم لي ذلك أمل أن تُسلم أمورك لله.

وفي هذه اللَّحظة، أعلن الأولاد وصول السيّد «هيللي» مالك «توم» الجديد. ولم يمض علي ذلك برهة حتي فُتح الباب برفسةٍ خشنةٍ وقحةٍ وجَّهها القادم إلي باب الغرفة، ثمَّ ظهر السيّد «هيللي» في باب الغرفة بوجهه الفظّ، القاسي، وعلامات الانتقام بادية عليه من جراء ما عاناه بالأمس من جهدٍ ضاع جزأفاً في ملاحقة «إليزا». وما كان منه إلا أن صرخ قائلاً:

- قم أيها العبد، هل أنت مستعد؟



هيللي يقتحم كوخ العم توم

وأقفلت «كلو» الصندوق وتطلعت عابسة إلي النخّاس، وهي تنهض متثاقلة، وقد تبدي لها الموقف مُحرجًا، فاستحالت دموعها فجأةً إلي شرار من نارٍ توجَّه إلي النخّاس.

ونهض «توم» في هدوءٍ انصياعاً للأمر، ورفع الصندوق الثقيل، ووضعهُ علي كتفه، وحملت زوجته طفلها الصغير بين يديها لتتبعه إلي العربة، ولحق بها الطفلان الآخران وهما يتتجبان.

وأخذت السيِّدة «شيلبي» تتحدَّث بصوتٍ خافتٍ إلي النِّحاس، وفيما هما يتحدَّثان، تقدَّمت الأسرة كُلُّها إلي العربة الواقفة بمحاذاة الباب، حيث احتشدت جمهرة من نساء المنطقة ورجالها وأولادها لتوديع الراحل العجوز الوداع الأخير.

والتفتت إحدى النساء المنتحبات إلي العمَّة «كلو»، وقالت لها:

- يُخَيِّلُ إلينا أنَّكَ تتحملين وقع المصيبة أكثر ممَّا نتحملة نحن يا كلو؟  
فأجابتها الزوجة التعسة، وهي ترمق النِّحاس الذي كان يتقدَّم نحو العربة شزرًا:

- لقد جفت دموعي يا أختاه، وإنِّي لا أحسُّ بالقدرة علي البكاء بعد اليوم.

وصرخ «هيلبي» في وجه «توم»:

- اصعد!

فصعد «توم». أمَّا النحاس فقد سحب من تحت المقعد في العربة قيدين حديديين ثقيلين، وصدف بهما رجلي العجوز من دون أن يبدي هذا تمنعًا أو اشمئزًا.

وصاح الجمع المحتشد صيحة استنكار. في حين قالت السيِّدة «شيلبي» وهي واقفة علي شرفتها:

أؤكِّد لك يا سيِّد هيلبي أنَّه لا حاجة تضطرك لاتخاذ كُلِّ هذا الحذر!

وهنا أدرك الصبيان الصغيران حقيقة المصير الذي سيق إليه أبوهما، فتعلقا بثوب والدتهما، وطفقا ينشجان.

وسمع الجمع العمَّ «توم»، يقول:

- آسف لعدم تمكيني من توديع السيّد «جورج» George.

وكان «جورج» هذا نجل السيّد «شيلبي» غائبًا عن الإقطاعية، فلم يدر بالمصير الذي انتهى إليه العمّ «توم».

ثمّ استطرد يصرخ قائلاً بصدقٍ وإخلاصٍ:

- أخبروا السيّد «جورج» حُبِّي وسلامي.

وهنا ألهب السيّد «هيلي» بسوطه ظهر الفرس، فانطلقت بهما العربة مسرعة، وكان «توم» يلتفت بعينه وبقلبه إلي بيته وامراته وأولاده، حتي خفي عنه الكوخ والمودعون المحتشدون قربه.

وتابعت العربة سيرها في سرعةٍ خاطفةٍ، ووقفت أمام دكان أحد الحدادين. وأخرج «هيلي» من تحت المقعد قيدين، وخاطب الحداد بقوله:

- إن هذين القيدين صغيرين بالنسبة إلي يد هذا العبد، فهل لك أن توسعهما ليصبحا صالحين له؟

وعرف الحداد «توم» فصاح:

- ولكنه توم، فهل باعه سيّده؟

- أجل، باعه!

- ولكنك غير مضطر يا هذا لتقييده بالأصفاد والأغلال فهو أشدّ الناس صدقًا، وأكرمهم نفسًا وتهديبًا.

ولكن «هيلي» طلب من الحداد بغلظةٍ واشمئزازٍ أن يُسرّع بما أمره به، فانصرف الحداد إلي إعداد القيد. وفيما كان «توم» خارج الدكان مطرق الرأس يُفكّر فيما جري له، والحزن يحز في نفسه، إذا به يسمع وقوع حوافر

حصان وراءه. وقبل أن يعلم مصدر الصوت ويفيق من غمرة استغرابه، قفز الفارس وهو «جورج» ابن السيّد «شيلبي» كالسهم إلي العربية، وطوّق العمّ «توم» بذراعيه وهو يبكي بكاءً مُرّاً، وقال لـ «توم»:

- إني أُصرِّح علي رؤوس الأَشهاد أن ما عملوه وضيع وخسيس. فأنا لا أبه ولا أهتم لما يقولونه فيّ. إنّه من المخجل حقّاً أن يتمّ هذا العمل. وثقّ لو أنّي رجل له كل صفات الرّجال لما سمحت لأبي أن يفعل بك مثل هذا!

ورّد «توم» بحزنٍ والدموع تنهمر من عينيه:

- كم أنا سعيد أن أراك يا مولاي جورج! فكلامك هذا يسبغ عليّ من النعم المسرات أكثر ممّا كنت أحلم به.

قال ذلك ثمّ حرّك قدميه، فوقعت عين «جورج» علي الأصفاد فصرخ رافعاً يديه:

- يا للعار! يجب أن أرمي هذا الوغد أرضاً. أجل يجب أن أؤدبه!

- حذار من أن تفعل ما يُغضب هذا السيّد، وأرجو ألا يرتفع صوتك بالكلام، فليس من مصلحتي أن أغضبه فهو رجل شرير وقاسي القلب.

- لن أقدم علي ذلك إكراماً لك. ولكن بربك فكّر معي، كم هو أمر معيب وحقير، أنّهم فعلوا بك ذلك من دون أن يستدعوني. ولولا رفيقي «توم» لنكون Tom Lincoln لما علمت بالفاجعة. وإنّي لن أسامحهم، وسأعاتبهم جميعاً عندما أقوي علي ذلك.

- ولكنك تنطق بالخطأ يا سيّدي الحبيب، وليس في انتقامك ما يرضيني ويروق لي.

وهنا أدار «جورج» ظهره إلي الدكان وهمس في أذن «توم» :

- لقد جئتكَ بدولار فضي!

فغلب التأثر علي «توم»، فقال بصوتٍ متهدجٍ مرتجفٍ:

- آه. ولكن لا أستطيع أن أخذه أيها السيّد. لا، لا.. أعذرنِي.

- بل عليك أن تقبله مني، وأعلم أنني قد أخبرت العمّة كلو بذلك فنبهتني إلي أن أثقبه وأربطه بشريطٍ ليكون في مقدورك أن تُعلقه حول عنقك وتخفيه عن الأنظار. وإلا سلبك إياه هذا الوغد الكريه. وإني أُصارك يا «توم» بأنني أود أن أسحق بقدمي هذا النّحاس.

- لا، لا تفعل يا سيّدي فهذا لن يعود عليّ بالفائدة المرجوة!

- حسناً! لن أفعل ما يزعجك.

ثمّ انهمك بتعليق الدولار في رقبة «توم»، بعدها استطرد يقول:

- والآن زرر سترتك فوقه، وحافظ عليه، وتذكّر كلّما رأيته أنّني ساتي ذات يوم لأنقذك من أسرك. وأني أثق بأنني سأتدبر الأمر بنفسي من دون مساعدة والديّ.

- والآن يا سيّدي الصغير كن مُطيعاً لوالديك، ولازم أمك وأطلب رضاها، فالله قادر أن يمنحنا الحسنات والطيبات مراراً، ولكنه لا يمنحنا أمّا إلّا مرّة واحدة. فإنّك مهما عشت، لن تفوز بمعاشرة امرأة مثل أمك، حتي ولو عشت أكثر من مئة عام.

- أعدك بذلك يا عمّ توم.

وهنا أقبل السيّد «هيلي» وفي يده القيدان، فابتدره «جورج»، بقوله:

- أعتقد أنّه قد حان لك أن تخجل من اتباع الرّجال والنساء وتصفيدهم بالأغلال وكأنّهم بهائم متوحشة.

- ولكن يا صغيري ما دامت عائلتك ترغب في بيع هؤلاء الرّجال والنساء فلست أجد غضاضة في شرائهم، فإنّ اتباع الرّجال والنساء ليس أدعي إلي الخجل من بيعهم!

- إني لن أقترف أيّا من هذه الآثام حين أصبح رجلاً. وإني لأستحي من انتسابي إلي ولاية كانتاكي، وقد كنت شديد الاعتزاز بها!

ثمّ امتطي «جورج» جواده، ملتمتاً إلي «توم» وهو يودعه:

- استودعك الله يا توم.

- مع السلامة أيها السيّد الصغير ليحميك الله القدير وليباركك. آه، ليس في كانتاكي كثيرون من أمثالك.

قال ذلك من أعماق قلبه. واتبع نظره الوجه النبيل الذي مضى في سبيله. وظلت عينا «توم» مسمرتين في ذلك الاتجاه حتي تلاشي وقع حوافر الفرس. وبهذا فقد «توم» آخر مشهد من مشاهد بيته القديم، وفاضت عيناه بالدموع، وسرت في أوصاله رعدة مؤلمة، بيد أن أملاً دافئاً كان يُدغدغ فؤاده علي ما يبدو. والأمل هو ذلك الدولار الثمين الفضي الذي وضعه «جورج» حول عنقه، فرفع «توم» أنامله المعروقة وشدّ علي التذكار بأقصى ما يستطيع من قوّة، وكأنّه يُريد أن يُدخله قلبه وأحشاءه.



البشر التعساء في المزاد العلني

**Hapless humans at auction**

راحت العربَة تسير بالسيد «هيلي»، و «توم»، وكلُّ منهما مستغرق في أفكاره. ف «هيلي» كان يُفكر في «توم» والسعر الذي سيبيعه به إذا ما ظلَّ هكذا بدينًا، حتى ذلك اليوم الذي سينقله فيه إلى سوق النخاسة. فهو عبد ضخم الجثة، وقليلون هم الذين يُقدمون علي شراء أمثاله.

وأما «توم» فكان يتذكر آية من العهد القديم ما فتئت تراود ذهنه، وتطوف في خياله، فتهتز جوانب نفسه: ليس علي الأرض ههنا مدينة خالدة، ولكننا نطلب واحدة لابدّ آتية. من أجل هذا، لا يملّ الله من دعوتنا إياه إلهنا، ذلك لأنّه قد أعدّ لنا هذه المدينة ووعدنا بها.

وتناول «هيلي» صحيفة من جيبه، وراح يبحث عن الإعلانات في سوقٍ بالغ. ولم يكن يُحسن القراءة، وهو يرفع صوته قليلاً عندما يقرأ، وهكذا تلا الفقرة التالية بصوتٍ مرتفع: رتركةٌ للبيع زوج! ونزولاً عند أمر القضاء سيّباع يوم الثلاثاء 20 ر فبراير أمام قصر العدل بمدينة واشنطن كانتاكي، الزوج الآتية أسماؤهم: «هاجر» 60 Hagar سنة، «جون» 30 John سنة، «بين» 20 Bean سنة، «ألبرت» 14 Albert سنة..

ثم التفت إلي «توم»، وقال:

- لقد قرّرت أن أشتري لك رفاقاً يا توم، وأرجوا أن يكونوا طيبين مثلك حتى تنعم برفقتهم. لذلك يتعيّن علينا أن نقصد واشنطن مباشرة، حتى إذا بلغناها أودعتك السجن وانصرفت لإتمام الصفقة!

وتلقي «توم» النبأ في صبرٍ، وراح يتساءل في نفسه: «كم واحدٌ من هؤلاء البائسين له زوج وأولاد، ومدى ما يشعرون به من ألمٍ عندما يفارقون ذويهم؟!».

وانقضي النهار وهبط الليل علي «هيلي»، و «توم» في العاصمة واشنطن، ف «هيلي» أوي إلي الفندق، و «توم» زُج في غياهب السجون وظلماتها.

وفي صباح اليوم التالي، احتشد جمع غفير أمام قصر العدل ينتظرون افتتاح المزاد. كان الرّجال والنساء المعدون للبيع ينتحون زاوية خاصّة بهم، ويتحدّثون بصوتٍ خفيّ، وكانت الأُمَّة «هاجر» في الستين من عُمرها، ولكنها بدت أكبر من سنّها بسبب المرض والتّعب الشديدين، وكانت إلي جانب هذا نصف عمياء وشبه مُقعّدة جرّاء مرض الروماتيزم، وكان يقف قربها «ألبرت» ابنها الوحيد، وهو فتىّ تبدو علي وجهه علامات الذكاء.



كانت «هاجر» تخاف أن يُباع ابنها دونها، وقد لاحظ ذلك أحدهم فقال لها مطمئنّاً:

- لا تخافي أيتها العمّة

هاجر. فلقد حدثت السيّد

توماس Thomas في أمرِك ووعدني بأن يسعي لبيعكما معاً إلي سيّد واحدٍ.



فقلت وهي ترفع يديها المرتجفتين:

- إني لا أزال قادرة علي الطهي والغسل.. قل لهم إني لست امرأة عاجزة، فباستطاعتي أن أخدم العائلة جيداً. قل لهم ذلك.

وهنا وصل «هيلي» إلي مكان المزاد، وشق لنفسه طريقاً وسط الجمع المحتشدة واقترب من أحد العبيد ففتح شذقيه وفحص أسنانه، ثم استعرض مشيته وطلب منه أن يقوم بحركاتٍ مُتعدِّدة لاختبار قوة عضلاته ورشاقته، بعدها انتقل إلي عبدٍ ثانٍ فأخضعه للفحوص ذاتها حتي إذا ما وصل إلي الغلام جسَّ ذراعيه، وتطلع إلي أصابعه، وأمره أن يقفز ليري مدي ما يتَّمَع به من خفَّة ورشاقَّة.

وبنبرةٍ جزعيةٍ متحمسةٍ قالت المرأة العجوز:

- لن يُباع هذا الغلام إلاّ معي. إننا نؤلِّف صفقة واحدة، فأنا لا أزال قوية، وأستطيع أن أنهض بكثيرٍ من الأعمال.

- في الزراعة أليس كذلك؟

قالها «هيلي» في سخريةٍ، ثم مشي والارتياح باد علي وجهه، ليقف بعيداً ويده في جيبه، وسيجاره مُعلَّق بين شفتيه، وقبعته مائلة إلي جانب، وكأنَّه مستعد للمساومة.

وفيما أخذ «هيلي» يتحدَّث إلي أحد التجار مُعلنًا رغبته في شراء الفتية من دون أمِّه العجوز الشمطاء، سرت دمدمة مجنونة، فتقدَّم الدلال يشق طريقه في قلب الحشد ليصل إلي الفتية، فأمسكت العجوز أنفاسها، وتعلَّقت بابنها أكثر من ذي قبل، وهي تقول:

- ابق قريباً مني يا ألبرت، إنهم سيبيعوننا معاً.

- أوَاهِ يَا أُمَّاهُ، وَلَكِنِّي أَخْشِي أَنْ يَحْجُمُوا وَيَمْتَنِعُوا عَن ذَلِكَ!

- يَجِبُ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، فَأَنَا لَا أَقْوِي عَلَيَّ الْعَيْشَ بِدُونِكَ.

وَبَدَأَ الْمَزَادَ.

فَقَالَ الدَّلَالُ صَارِخًا وَهُوَ يُوَكِّزُ «أَلْبِرْتَ» بِمَطْرَقَتِهِ:

- وَالآنَ، تَعَالِي أَيُّهَا الْفَتَى الصَّغِيرَ. اصْعَدِي إِلَيَّ الْمَنْصَةَ وَأَرْنَا عَدُوكَ،

وَوَثْبِكَ، وَرِشَاقَتِكَ، وَقُوَّةَ عَضَلَاتِكَ.

فَصَاحَتِ الْعَجُوزُ وَهِيَ تَمْسِكُ بِتَلَابِيْبِ وَلَدِهَا:

- ضَعْنَا نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ مَعًا عَلَيَّ الْمَنْصَةَ، مِنْ فَضْلِكَ أَيُّهَا السَّيِّدَ.

فَاتَهَرَهَا الرَّجُلُ وَأَبْعَدَ يَدَيْهَا الْمَتَوَسِّلَتَيْنِ قَائِلًا:

- سَوْفَ يَأْتِي دَوْرُكَ فِي النِّهَايَةِ. اقْفِزِي الْآنَ أَيُّهَا الْأَسْوَدُ الصَّغِيرَ.

وَانْبَرِي الْفَتَى إِلَيَّ الْمَنْصَةَ. وَوَقِفِي بِهَدْوٍ وَأَخْذِي جَيْلَ نَظَرِهِ إِلَيَّ الْأَمَامَ

وَالِي الْوَرَاءِ. وَلَكِنِ الدَّلَالُ دَفَعَهُ بِشِدَّةٍ إِلَيَّ دَاخِلَ الْمَنْصَةَ، وَدَمَعَتِ الْفَتَى يَسِيلَ

مِنْ عَيْنَيْهِ الْوِاسِعَتَيْنِ اللَّامِعَتَيْنِ. وَقَدْ أَثَارَتِ طَلْعَتُهُ الْبَهِيَّةَ وَقَوَامَهُ الرِّشِيقَ

مُنَافَسَةً حَادَةً بَيْنَ النَّخَّاسِينَ. وَتَهَافَتَتِ الْعُرُوضُ عَلَيَّ الدَّلَالُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

أَمَّا الْفَتَى فَكَانَ حَزِينًا يَنْقُلُ نَظَرَهُ مِنْ جِهَةٍ إِلَيَّ أُخْرَى. وَأَخِيرًا أَعْلَنَتِ

الْمَطْرَقَةُ اخْتِطَامَ الْمَزَادِ، وَفَازَ «هَيْلِي» بِالصَّفْقَةِ، فَاقْتِيدَتِ الْفَتَى مِنَ الْمَنْصَةِ إِلَيَّ

سَيِّدَهُ الْجَدِيدَ، وَلَكِنَّهُ وَقَفَ لِحِظَةٍ وَتَلَفَّتْ إِلَيَّ الْوَرَاءِ، فِي حِينٍ كَانَتْ أُمُّهُ

الْعَجُوزُ تَمُدُّ يَدَيْهَا الْمَرْتَعِشَتَيْنِ نَحْوَهُ:

- اشْتَرِنِي أَيْضًا، أَيُّهَا السَّيِّدَ، اسْتَحْلِفْكَ بِاللَّهِ اشْتَرِنِي، وَإِلَّا قَضَيْتِ نَحْبِي

مِنْ الْغَمِّ وَالْحَزَنِ.

ولكن «هيلي» لم يأبه لتوسّلاتها، فاشتراها أحد النحّاسين بثمنٍ بخسٍ.  
بينما كانت العجوز تصرخ:

- أما كان في إمكانهم أن يتعاوني مع ولدي. فما كنتُ أعتقد أن قسوة  
الدهر تستطيع أن تصل معي إلي هذا الحدّ؟

فقال لها أحد العبيد يواسيها:

- سلمني أمرِك لله أيتها العمّة هاجر.

فتنهدت وقالت في يأسٍ:

- وما فائدة الاتكال علي الله بعد اليوم؟

فصاح الفتى:

- أمي، أمي لا تقولي هذا، إنَّهم يقولون إنَّ سيّدك الجديد رجل طيب.

- لستُ أبالي، لستُ أبالي. آه يا ولدي. إنَّك ابني الوحيد الذي بقي لي في  
هذه الدنيا. إلهي كيف أقوى علي احتمال ألم الفراق.

وصاح «هيلي» في غلظة:

- تعالوا، أبعدها من هنا، فليس من الخير لها أن تستمر علي هذه الشاكلة.

وفُصلت المخلوقة البائسة عن ابنها، واقتيدت إلي عربة مولاها الجديد.

وانصرف «هيلي» لتقييد أيدي السلع البشرية التي امتلكها اليوم بعد أن

ربطها بسلسلةٍ حديدٍ طويلةٍ اقتاد بها بضائعه الجديدة إلي السجن!



علي متن السفينة.. قلب الأمرينكسر

**Aboard the mother's heart is broken**

بعد أيام، ركب «هيلي» وممتلكاته البشرية سفينة من سفن «أوهايو» التي كانت تشق عباب السماء في زهو وبشر تحت سماء صافية الأديم، وفي ظل العلم الأمريكي ذي الخطوط والنجوم.

وكان الحرس مختلطين بالرجال والنساء الحسان الذين يمشون علي ظهر السفينة، ويستمتعون بطقس ذلك النهار الساحر فكل شيء كان يمور بالسعادة إلا المخلوقات البشرية التي يمتلكها «هيلي»، والتي حُشدت في الطبقة السفلي من السفينة وقد بدأوا في التحدث بحرية عن سيدهم، ولكن «هيلي» تنبه أخيراً إلي هفوته، فهرع إلي مقتنياته مُسرِعاً، قائلاً لهم:

- أمل أن تكونوا فرحين مستبشرين. وثقوا أنكم إذا ما خلصت نياتكم نحوي وجدتم عندي الخير الكثير.

وأجاب العبيد دفعة واحدة:

- نعم يا سيدي.

ولكن أولئك العبيد لم يأنسوا إلي كلامه، فقد كانوا يذكرون زوجاتهم وأمهاتهم وأولادهم، وكانوا قلقين علي مصيرهم.

ثم تحدث العبد المدعو «جون» فقال:

- إن لي زوجة تعسة لا تعلم شيئاً عمّا آلت إليه حالي!

فسأله «توم»:

- وأين تعيش زوجتك؟

- في فندقٍ غير بعيد من هنا، وكم أتمني لو أستطيع أن أراها مرّةٍ أخرى قبل أن أموت.

وقد بكى، وكان بكاؤه هادئاً وطبيعياً جداً، فكانت دموعه تسيل علي خديه ثم تنحدر علي عنقه من دون أن يتكلم. فتنهد «توم» من قلبٍ جريحٍ وحاول أن يُسري عن الرّجل وأن يُخفّف عنه.

وفي ذات يوم وصلت السفينة إلي مدينة صغيرة في ولاية «كانتاكي»، فنزل «هيلي» لغرض تجاري بالطبع. وفي تلك الأثناء، تمكّن «توم» الذي لم تكن قيوده تشلّه عن الحركة بصورةٍ كليةٍ، من أن يزحف إلي حافة السفينة، فاسترعي بصره منظر مهم.

شاهد «هيلي» النّخاس يعود إلي السفينة ومعه زنجية تحمل رضيعاً، وهي تمتاز بحسن المنظر وجمال الصورة. وكان يمشي وراءها زنجي ويده حقيبة صغيرة. وكانت أمارات السرور تطفح علي وجه الزنجية وهي تُحدّث الزنجي أثناء سيرها إلي السفينة.

وقرع الجرس، وأنّت الآلة البخارية وشق صدر السفينة عباب الماء. ومشت المرأة عبر الصناديق والبالات المترامية في الطبقة السفلي من السفينة، حتي إذا جلست تشاغلّت بمُداعبة طفلها.



وتجول «هيلي» حول السفينة، ثم اقترب من المرأة الجميلة وشرع يُحدّثها بشكل هامس. ولاحظ القوم أن وجه المرأة قد تجهمّ وعبس وأنّها فقدت سرورها، فكانت تُجيب النّخاس بكلامٍ عالٍ دالٍ علي غضب وحنق فقد سمعوها تقول له:

- إني لا أصدق ذلك، لا أصدق، فأنت تريد أن تخدعني.

فقال «هيلي» وهو يسحب ورقة ما من جيبه:

- وإذا كان كلامي لا يقنعك فأليك هذه الوثيقة التي تثبت بيعك لي، وعليها توقيع سيّدك. وأعلمي أنّك كلفتني مالا ضخماً.

فقالَت المرأة بغضبٍ متزايدٍ:

- لا أستطيع أن أصدق أن سيّدي يمكن أن يتخلّي عني علي هذا النحو. لا. لا أصدق.

- في استطاعتك أن تسألني أيّاً من هؤلاء الرّجال الذين يحسنون القراءة.

قال ذلك ونادي أحد المسافرين قائلاً:

- أرجو يا سيّدي أن تتلطف وتقرأ هذه الورقة علي مسامع هذه المرأة فإنّها لا تصدقني.

فقال الرّجل:

- ولكنها وثيقة بيع موقعة من جون فوسديك John phusidk وهي تنصّ علي أنّ الأمة لوسي Lucy وطفلها صارا ملك يمينك. إنّه كلام واضح لا لبس فيه.

وأدي هذا الموقف إليّ تجمهر المسافرين حول المرأة الغضبيّة، فاضطر  
«هيلي» أن يشرح لهم سبب خلافه معها. ولكن المرأة قالت لهم بصراحة:

- لقد كذب عليّ، فقد ادعي أنّه ينقلني إليّ مدينة لويسفيل Louisville  
لأعمل طاهية في الفندق نفسه الذي يعمل فيه زوجي، وبمثل هذا ادعي  
سيّدي فوسديك، ولا يمكنني أن أتصوّر سيّدي كاذباً!

فقال رجل تبدو عليّ مُحيّاه أمارات الطيبة وكرم النفس بعد أن ألقى نظرة  
علي الورقة:

- ولكنه قد باعكِ أيتها المرأة المسكينة.

- إذًا فهذا صحيح ولا فائدة من العصيان!

قالت المرأة هذا، وركنت إليّ الهدوء كمَنْ اقتنع بصحّة أمر كان يُعارضه  
ولا يُصدقه، ثمّ شدّت طفلها إليّ صدرها لتثبته، وصارت تجيل بصرها في  
النهر الكبير.

وواصلت السفينة سيرها، وهبّت فوق رأسها نسمة من نسّمات الصيف  
الناعمة التي لا تتساءل عمّا إذا كان الجبين الذي تمرّ عليه أسود أم أبيض.  
ونظرت إليّ أشعة الشمس التي كانت تتلألأ عليّ سطح الماء في تموجاتٍ  
ذهبية. وسمعت أصواتاً متبعثرة تتحدّث حولها من كلّ جانب. ولكن فؤادها  
كان مثقلاً بالهموم، فأحسّت وكأنّ جبلاً قد سقط عليها، تململ طفلها بين  
يديها ولا مس خديها براحتيه الصغيرتين، فشدّته إليّ صدرها، وراحت تتأوه  
ثم سقطت الدموع من عينيها السوداويين عليّ وجه الطفل.



ومرّ بها رجل فرأى نشاط الغلام وصحّته الموفورة، فوقف إلي جانبها  
فجأَةً، وقال:

- إنه لغلامٍ جميلٍ! كم عُمره؟

- عشرة أشهر ونصف يا سيّدي.

ولاطف الرّجل الغلام، وصنفر له ثمّ قدّم له قطعة من حلوي، بعدها  
واصل سيره، حتي إذا بلغ جانب السفينة الآخر، ووقف قرب «هيلي» الذي  
كان جالساً يُدخن فوق الصناديق المكومة، وسأله:

- ما الذي ستفعله بتلك المرأة السوداء؟

فقال «هيلي»:

- إني سأستخدمها في جنّي وقطاف القطن فأناملها قوية.

- إذا كنت بحاجة إلي المرأة فلا أعتقد أنّك بحاجة إلي الطفل في الزراعة.

- سوف أبيعه حالما أجد له شاريًا.

- إنّك ترضي ببيعه بثمان زهيدٍ طبعًا.

- هذا يتوقف علي الظروف. ولكن ألا تري معي أنّه طفل رائع! أنظر إلي  
شكله وإلي طوله وبدانته، وإلي لحمه المتراس فوق عظامه.

- أري كلّ هذا، ولكن لا أخالك تطلب ثمنًا له أكثر من عشرة دولارات،  
خاصّة وأنّه من العسير عليك أن تعني بتربيته وترعاه بنفسك.

- لا، لكن يمكنني أن أُرَبِّي الطفل بنفسِي أو أن أعهد به إلي مُرَبِّية ما دام صحيح البنية وعندئذ أستطيع أن أبيعَه بمئة دولار بعد ستة أشهر، وقد أبيعَه بعد سنة بمئتين. لهذا فلا أوافق علي بيعه بأقل من خمسين دولار.

- ولكن طلبك هذا يُثير الضَّحك!

- لن أراجع عن قراري.

- إني علي استعداد لأن أدفع ثلاثين دولار ثمناً له. ولو سألتني ستناً واحداً فوق ذلك لما فعلت.

- يمكننا أن نتفاهم. إني اقبل منك أربعين دولار فقط. وثق أنه أقصي ما يمكنني أن أتنازل عنه.

- حسناً، لقد اتفقنا.

- اتفقنا، في أيِّ بلدٍ سنهبط؟

- في لويسفيل.

- سوف نصلها قبل الغسق. وأعتقد أن الطفل سيكون نائماً فأنا من الذين يكرهون الغضب والعويل، وأفضل أن أقوم بكلِّ صفقاتي بسلامٍ وهدوءٍ.

ووصلت السفينة إلي ميناء «لويسفيل» مساءً، وكان الجوَّ جميلاً، فاستاقت المرأة من تفكيرها، والنشوة تغمر نفسها، يقيناً منها أنها بعد قليل ستلاقي رفيق حياتها. فوضعت الطفل الغارق في النوم بمكانٍ ضيقٍ بين الصناديق، ثمَّ أسرعَت إلي جانب السفينة المُطل علي الرصيف حيث

المستقبلون متجمهرون أملاً في أن تجد زوجها بين نزل الفندق العديدين المتزاحمين علي الرصيف.

وفيما كانت الأمّ منصرفة في البحث عن زوجها، حمل «هيلي» الطفل النائم وقدمه إلي مشتريه وهو يقول:

- حذار أن توقظه، فتهرع أمه لانتزاعه من بين يديك عندما تسمع صراخه.

فتناول الرجل الرضيع وولّي به عائداً إلي رصيف الميناء. وعادت المرأة إلي حيث وضعت طفلها بعد أن يئست من العثور علي زوجها، فوجدت «هيلي» النخّاس، ولكنها لم تجد طفلها فصرخت:

- ولدي، ولدي، أين هو؟ أين أرسلته؟

- اعلمي أنّ ولدك لم يكن لك. ولقد كنت متأكّد من أنّك لن تستطيعي أن تصحّيه إلي الجنوب، وساعدتني الظروف فبعته لأسرة من الأسر الكريمة التي تتمكّن من تربيته أفضل ممّا لو بقي معك.

وارتعدت فرائص المرأة لديّ سماعها هذا الكلام، فحدجت النخّاس بعينين تنفجران غيظاً وحنقاً. ولكن مثل هذه النظرات لم تكن لتُثقل «هيلي»، فقد اعتاد رؤية مثل هذه المواقف مئات المرّات قبل اليوم. ولهذا لم تهزه غضبة المرأة ولا ما أصابها من ألم. كان يخشي فقط أن تنفجر بالبكاء والعيويل، فتُسبّب له إزعاجاً هو بعني عنه علي ظهر السفينة.

ولكن المرأة التعسة لم تتحب. لقد أصابت الطعنة شغاف قلبها فلم يبق فيه مكان لصرخة أو ألم. وجلست في مكانها شاردة الذهن.. وتطلعت بعينها إلي الأمام، ولكن من دون أن تري شيئاً بعينه. واختلط ضجيج السفينة

وهدير آلاتها في أذنيها المشوشتين، وأصابها الخرس فهي ساكنة كسكوت  
الأموات. وأحب النخّاس أن يُحاكي بعض الساسة من مُقلدي أصحاب  
القلب الإنساني الرقيق فراح يُقدّم لها أفانين العزاء:

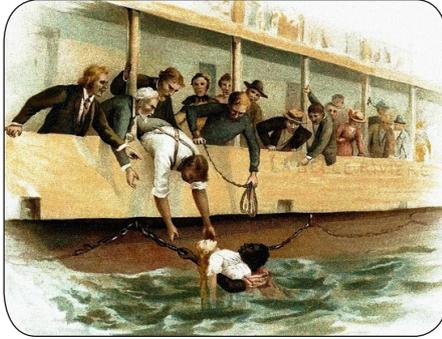
- أعلم أن مصيبتك ستكون شديدة الوطأة بادئ الأمر، ولكن امرأة ذكية  
مثلك لا تدع للغم سلطاناً علي نفسها. لقد كان ذلك ضرورياً ليس إلي  
اجتنابه سبيل.

فقالَت المرأة بصوتٍ مختنقٍ:

- حبذا لو تسكت!

ولكن النخّاس أصرّ علي الكلام:

- إنك امرأة ذكية يا لوسي. وإني مزعم علي أن أعاملك أحسن مُعاملة.  
ولسوف تجدين في وقتٍ قريبٍ زوجاً جميلاً يُرضي أهواءك.



- كم أودّ يا سيّدي،  
لو تصمت أو تعفيني من  
الإجابة عن كلامك!  
وأشاحت بوجهها عن  
النخّاس، فلم يجد بُدّاً من  
قطع الحديث، وتأجيله  
إلي فرصةٍ أُخري.

المرأة المسكينة وقد أنهت حياتها حزناً وكمداً

وكان «توم» يتبّع المشهد من أوّله إلي آخره. وتقطّر قلبه أسّي علي هذه  
المرأة المسكينة، فاقترب منها وحاول أن يقول شيئاً. ولكنّها كانت مُغرقةً في

الأنين ترسله فتقطع له نياط القلوب. وبلهجة صادقةٍ وعيون مليئةٍ بالدموع، أخذ «توم» يُحدّث المرأة عن الحياة وعن الخيرات السماوية، إن هي صبرت. وبإيمانٍ شديدٍ وطيدٍ أخذ يُحدّثها عن يسوع الرحيم الرؤوف، وعن الجنة في العالم الآخر التي وعد بها المؤمنين. ولكن غمّ المرأة الشديد حال دون سماعها أقوال «توم»، وكان قلبها متعطلاً عن الشعور والإحساس.

وهبط الليل رائحاً مشرقاً بعيونه الملائكية التي لا تُعدُّ والتي تومض بالجمال، ولم تبعث من تلك السماء النائية البعيدة كلمة حنون رءوم، أو تمتدّ منها يد مُسعفة.

واختنقت صيحات التجارة واللّهو واحدة إثر الأخرى، ونامت السفينة كلّها نومًا هادئًا عميقًا، وتمدّد «توم» علي أحد الصناديق، وهناك حيث كان مستلقيًا سمع أنّات مخلوق بشري مُتعب الفؤاد.

- آه، ماذا أصنع؟ يا إلهي ساعدني، يا إلهي؟

وظلت هذه الأنات ترن في أذنه دهرًا طويلًا، وأخيرًا غرقت الهمهمة في بحر من الصّمت الكبير. واستفاق «توم» قبيل منتصف الليل مذعورًا إذ أحسّ بطيفٍ أسودٍ يمرّ به ثمّ ينطلق إلي جانب السفينة الآخر، بعدها يُلقى بنفسه في خضم الماء.

ورفع «توم» رأسه ليتحقّق من صحّة ما جال في خاطره من وساوس، فوجد مكان المرأة خاليًا، فأدرك أن المرأة قد رمت بنفسها في النهر.

ولقد حاول العجوز أن يعمل شيئًا، ولكن عبثًا فقد كف قلب المرأة عن الخفقان، بعد أن غمرت أمواج النهر جثتها وابتلعت كلّ ما كان يجول في خاطرها وقلبها من الآمٍ وأحزانٍ!!



## ثلاثة قلوب أحبت العمر توم

### Three hearts of loved Uncle Tom

كان من بين رُكَّاب السفينة التي تُسافر إلي «نيو أورليانز» New Orleans ثلاثة رُكَّاب توطّدت روابط المحبّة والألفة بينهم وبين «توم»، حتي إنّه يمكننا القول إن مصيره قد ارتبط بهم ارتباطًا شديدًا، وتعلّق قلبه بهم تعلُّقًا كبيرًا. الأوّل اسمه «سانت كلير» st. clare فهو مزارع طيب النفس، ولكنه يمتاز بسخريةٍ لاذعةٍ وتهكُّمٍ جارح. ولعله اكتسب هذه الصفة من حياته الزوجية المريرة، فقد ابتلاه القدر بزوجٍ غنيةٍ غيور تُدعي «ماري» Marie، فلم ينعم معها بالسعادة التي ينشدها فراح يُكثر السفر فرارًا من منزله الكئيب وعيشه التعس.

أمّا الثاني فكانت «أوفيليا» Ophelia ابنة عمّ السيّد «كلير»، وهي عانس في الخامس والأربعين من العُمُر، متزمتة، متجهمة الوجه أبدًا، تبدو عليها أمارات الصّرامة والقسوة. وقد جاء بها «سانت كلير» لتُدبر قصره وتُشرف علي تربية ابنته.

والراكب الثالث فكانت «إيفانجيلين» Evangeline، ابنة السيّد «كلير»، وعُمُرها يتراوح ما بين الخامسة والسادسة، وهي آية في الجمال، رشيقة خفيفة لا تستقرّ في مكانٍ إلّا بمقدار ما تستقر أشعة الشمس أو نسيمات الربيع. وكانت تعلق وجهها ملامح البراءة الحالمة، وكان شعرها الذهبي

الطويل كسحابةٍ يُحيطُ بوجهها الجميل، وكانت عيناها البنفسجيتان تشعان ببريقٍ جذابٍ وتظللهمَا أهداب شقراء ما يجعلها تختلف عن باقي الأطفال. وكان جمالها الخلاب يجذب أنظار مَنْ يُشاهدها وهي تلهو و تنتقل هنا وهناك علي متن الباخرة.

وكان «توم» يُراقب هذه المخلوقة الصغيرة المرتدية روبًا أبيض بسرورٍ متعاضم يومًا بعد يوم. لقد بدت في عينيه مخلوقًا سماويًا. فهو لا يكاد يلمح رأسها الذهبي وعينيها الزرقاوين تطلان عليه من وراء إحدى بالات القطن الداكنة حتي يُخيَّل إليه وكأنَّ عينيه قد وقعتا علي أحد الملائكة الأطهار الذين يتحدث عنهم الكتاب المقدس.

و كانت «إيفا» حزينة، ثقيلة النَّفس كُلمًا مرَّت بالقرب من ممتلكات «هيلي» البشرية المصفدة بالقيود، فكانت تسير بينهم واللوعة بادية علي مُحيّاها. وأحيانًا ترفع يديها الرقيقتين سلاسلهم الغليظة ثم تنهد بعمقٍ وتنسحب من بينهم بخفةٍ. وكم من مرّة كانت تزورهم ويدها وجيوبها مليئة بالحلوى، والجوز، والبرتقال لتوزعها عليهم ثمَّ تعود فرحة بعملها هذا.

وذات يوم سألتها «توم» :

- ما اسم مولاتي الجميلة؟

- إيفانجيلين سانت كلير، ولكن الجميع يسمونني إيفا.

ثمَّ التفّت إليه وسألته:

- ولكن ما أسمك أنت؟



- اسمي توم. وكان الصُّغار يدعونني العمّ توم، هناك بعيداً حيث عشنا في كانتاكي.

- اسمح لي إذاً أن ادعوك العمّ توم، فأني أحببتك. والآن أيها العمّ توم، إلي أين أنت ذاهب؟

- لست أعلم يا مولاتي الصغيرة!

فاستغربت «إيفا»، وقالت بدهشة:

- لستُ تدري؟

- لا. كلُّ ما أعرفه أنّني سأباع لواحدٍ من الناس. أمّا من يكون هذا الرَّجل فذلك ما أجهله!

- باستطاعة بابا أن يشتريك، وإذا تمّ ذلك فعندئذ يمكنك أن تتمتع بالحياة. سوف أسأله أن يفعل ذلك هذا اليوم.

- شكراً يا سيّدي الصغيرة.

كان اليوم قائظاً شديد الحرارة تنقبص منه الأنفاس. وكانت السفينة قد اقتربت من «نيو أورليانز» ما جعل جوّها مليئاً بالحركة. وقد بدأ البحارة بالاستعداد للنزول، وأخذ المسؤولون عن نظافة السفينة يتولون تنظيفها استعداداً لدخول الثغر، كما أخذ المسافرون يجمعون أمتعتهم ويرتبونها بانتظار النزول إلي اليابسة.

وكان «توم» في تلك الأثناء يجول ببصره بين الفينة والفينة نحو الجانب الآخر من السفينة بشوقٍ بالغٍ. فرأى علي مقربةٍ منه «إيفا» شاحبة الوجه شاردة

الذهن، وإلي جانبها شاب أنيق لابد من أن يُدرك الناظر إليه للوهلة الأولى أنه والدها «سانت كلير». كان يسند أحد مرفقيه إلي بالة القطن مستمعاً في لامبالاة واضحة إلي «هيلي» المُتدفِّق في امتداح السلعة التي تجري عليها المساومة. حتي إذا أتم «هيلي» كلامه قال «سانت كلير» بلهجةٍ ساخرةٍ:

- تعني أن الفضائل الأخلاقية والمسيحية قد اجتمعت كلها هنا ضمن دفتين من الجلد الأسود الناضر! حسناً أيها الأخ الطيب! كم تطلب في صاحبنا هذا؟

فقال هيلي:

- أحسب أن ألفاً وثلاث مئة دولار تكون كافية.

- ولاشك أنك لم تطلب هذا الثمن إلا إكراماً للخاطري!

- لاشك أنك تعتقد أنني أغالي وأبالغ في الطلب، ولكن حبذا لو تنظر إلي يديه ورجليه الكبيرة وإلي اتساع صدره، فهو قوي كالحصان، ومثل هذا الزنجي يستحق ثمناً باهظاً حتي لو كان غيباً، فكيف به وهو يتحلي بمواهب عقلية وأخلاقية عالية؟ إن هذا الزنجي كان يُشرف علي مزرعة سيده بأكملها، وكان ناجحاً في عمله كل النجاح.

فقال «كلير» ساخراً كعادته:

- إن ادعائك هذا غير مُرض، فالعبد كما تدعي يعرف كل شيء ويقوم بأعظم الخدمات، فهو ذكي جداً وأنا أخشي العبيد الأذكياء، فقد يطلقون سيقانهم للريح ويسرقون الخيول ويتحالفون مع الشعب عندما تسنح لهم

الفرصة، لهذا كُلُّه أري من الضروري أن تُخفِّض سعره بضع مئات الدولارات  
نظرًا لما يمتاز به من ذكاءٍ خارق!

- قد تكون علي صوابٍ في حذرِك لولا أنني واثق من خُلُقهِ الرفيع.  
وبإمكانني أن أطلعك علي شهادة سيِّده القديم، وشهاداتٍ سواه ممَّا يثبت لك  
أن هذا العبد هو من أشدَّ المؤمنين ورعًا، ولعلك لا تستغرب عندما أطلقوا  
عليه هناك في موطنه السابق لقب المُبشِّر.

- وعلي هذا سوف أجعل منه قسيس الأسرة.. تلك فكرة رائعة! فالدين  
بضاعة نادرة في منزلنا!

- أنت تمزح من دون شك؟

- ومن أين عرفت ذلك؟ ألم تقل أنَّه كان يُعرف بالمُبشِّر؟

وهنا همست «إيفا» في أذن والدها، بعد أن ارتقت وصعدت متن إحدى  
الرزم وطوّقت عنقه:

- بابا اشتره بأيِّ ثمن. إن معك مالًا كثيرًا، وإنِّي أريده علي كُلِّ حال.

- ولكن ما حاجتكِ إليه إيفا؟ أتريدين أن تعلمي منه حصانًا خشبيًا هزازًا،  
أم لُعبةً، أم ماذا يا بُنتي؟

فقالت «إيفا» بإصرار:

- أريد أن أجعله سعيدًا!

- هذا سبب وجيه ومقبول، طبعًا!

وهنا قدَّم النحاس شهادة موقعه من السيِّد «شيلبي» تدل بوضوح علي  
التقوى والصفات الحسنة التي يتحلي بها «توم». فتناولها «سانت كلير»  
بأطراف أصابعه، وألقي عليها نظرة باردة وقال:

- حسناً، ولكن لسْتُ واثقاً، علي آيَّة حال، من مسالة الدين هذه. إن بين الأتقياء البيض مَنْ هم علي شاكلة أولئك الورعين الذين نصادفهم قبيل المعارك الانتخابية، حتي إننا أصبحنا لا نعلم مَنْ الذي سيتمكّن من خداعنا في المرّة القادمة. ثمَّ أنّي أجهل تماماً ما ارتقت إليه منزلة الدين، وما وصلت إليه أسعاره في هذه الآونة. فأنا لم أراجع الصحف في الفترة الأخيرة. كم فئة من الدولارات ستقاضي مُقابل الدين؟

فقال النخّاس:

- إنك تُحب المزاح يا سيّد كبير، ولكن ثقْ إن ما أقوله لك عن ورع هذا العبد صحيح مئة بالمئة.

و أخيراً، قال الشاب، وهو يسحب من جيبه مجموعة من الأوراق المالية ويُقدّمها للنخّاس:

- علي كلِّ حالٍ خذ المال فعدهُ.

وتهللت أسارير «هيلي»، وعدّ المال ثمّ دسه في جيبه، وراح يملأ وثيقة من وثائق البيع ليُقدّمها، بعد لحظاتٍ إلي «سانت كبير».

ونظر «سانت كبير» إلي الوثيقة التي قدّمها له «هيلي». بعدها أمسك يد ابنته ومضيا إلي حيث كان يجلس «توم» مطرق الرأس، جريح الفؤاد كليم. حتي إذا انتهيا إليه وضع «سانت كبير» إصبعه تحت ذقن العبد وقال له مُداعباً:

- ارفع رأسك يا توم. وقلّ لي هل يعجبك مولاك الجديد؟

ورفع «توم» رأسه، وألقي نظرة وادعة علي الشاب الأنيق، وأحس بالدمع يترقق في عينيه، وقال:

- ليباركك الله أيها السيّد ويحفظك.

- حسناً إني لأرجو الله أن يفعل. قلّ لي يا توم، هل تستطيع أن تتركب الخيل؟

- لقد تعودت ذلك منذ زمن بعيد. وكان السيّد شيلبي يملك عشرات من الخيول.

- اتفقنا إذًا، فلسوف أكلّفك بقيادة العربة، شريطة ألا تُعاقر الخمر غير مرّة في الأسبوع، وذلك عند الضرورة المُلحّة القاهرة.

ونظر «توم» إلي سيّده الجديد باستغرابٍ، وكأنّه أحس بالإهانة تنبعث من كلام ذلك السيّد الجديد حيث قال:

- أنا لا أشرب الخمر أيها السيّد.

- لقد سمعت هذه القصة من قبل، يا توم، ولكن الأيام سوف تُظهر لنا حقيقة هذا الأمر.

وعندما تبدّي له أن كلامه قد آذي «توم»، وأن سحابة الغمّ قد غطت وجهه، تلطّف كثيرًا في كلامه وأردف قائلاً:

- لا تبتئس يا بُني، لست أشكّ في أنّك سوف تسلك النهج القويم.  
- من دون ريب يا سيّدي.

فقالت «إيفا»:

- لسوف تستمتع بحياة حرّة أيها العمّ توم، فأبي يُحبّ جميع الناس، ولكنه مُعتاد السخرية منهم دائماً!

- بابا يشكرُك جزيل الشكر علي هذا المديح.

قال «سانت كلير» ذلك، ثمّ استدار علي عقبه، ومضي في سبيله.



العمر «توم» في وطنه الجديد

## Uncle Tom in its new home



بوصول العربة التي أفلت السيّد «كلير» ومرافقيه إلي حديقة القصر ظهرت علي وجه «إيفا» الصغيرة أمارات البهجة، وبدت كأنّها طائر سجين ينطلق في الفضاء الرّحّب، وقالت للآنسة «أوفيليا» بسرورٍ بالغ:

- آه.. أليس منزلنا رائع الجمال، ألا ترينه هكذا يا عمّتي؟

فأجابتها الآنسة «أوفيليا»، وهي تتّرجل من العربة:

- إنّه جميل حقًا، وإن كان يبدو قديمًا ووثنى الطابع في نظري!

وتّرجل «توم»، وأجال النظر في المكان، وقد طفت علي وجهه علامات ابتهاج هادئ ساكن.

وتبسّم «سانت كلير» لدي سماعه ما قالت «أوفيليا»، والتفت إلي «توم»، وكان واقفًا يجيل النظر في موطنه الجديد، وقد أخذ وجهه الأسود يُشعّ ببريق الإعجاب، وقال:

- يبدو يا توم، أنّ هذا المكان يناسبك.

- نعم يا سيّدي، حقًا، يبدو لي أنّه المكان المناسب والأفضل.

جري ذلك كُلّه في لحظةٍ، فيما كانت الحقائق تنزل من العربة إلي الأرض. وفيما حشد كبير من مختلف الأعمار والأحجام رجالاً ونساءً وأطفالاً يحتفلون بدخول السيّد إلي قصره الرائع. وكان أبرز هؤلاء شاب حسن الثياب، أنيق المظهر ما يدل علي أن له في القصر مكانة مرموقة. فلم يكن يري احتشادهم وازدحامهم علي هذا النحو حتي راح يردهم بيديه إلي الجانب الآخر من الشرفة صائحًا:

- إلي الورااء جميعًا! أنريدون أن تتدخلوا في شؤون السيّد المنزلية منذ السّاعة الأولى لعودته؟

وانصاع الخدم لأمر السيّد «أدولف» Adolph، وهو اسم الشاب الأنيق. وتقدّم «سانت كلير» فلم يجد في استقباله غير «أدولف» نفسه، فقال:

- آه أدولف، أهذا أنت، كيف حالك يا بُني؟

ولللحال، وقبل كلّ شيء، تصدي «أدولف» لإلقاء قطعة ترحيبية لسيّده كان قد قضى زهاء أسبوعين كاملين في إعدادها، فشكره «سانت كلير» علي طريقتة الساخرة، ومشى مع الأنسة «أوفيليا» إلي إحدى غرف القصر الواسعة المُطلّة علي الحديقة. وكانت «إيفا»، في الوقت نفسه قد أسرعّت فدخلت إلي غرفةٍ أُخري مُطلّة علي الشرفة نفسها التي دخلها والدها. فنهضت لاستقبالها نصف نهضة، سيّدة فارعة الطول، سوداء العينين، شاحبة الوجه، كانت مسترخية علي فراشٍ وثيرٍ.

وهجمت «إيفا» علي أمّها وطوّقتها بذراعيها مرّة ومرّة صائحة صيحة الغبطة والسرور:

- ماما! ماما.

فتبعتهَا أمُّهَا باسترخاء، ثمَّ قالت:

- يكفي هذا يا ابنتي، فحذارِ أن تفعلِي هذا مرَّةً ثانية، فإنَّكَ تُثيرين الصُّدَاع في رأسي.

ودخل «سانت كلير» الغرفة التي تمكث فيها زوجته فعانقها عناقًا زوجيًّا فاترًا، ثمَّ قدَّم لها ابنة عمِّه الأُنسَة «أوفيليا».

فرفعت «ماري» عينها الواسعتين إلي ابنة عمِّه في شيءٍ من الفضول، ورحبت بها في كياسةٍ متحفظةٍ ولطفٍ متزنٍ، وكان قد تجمهر أمام الغرفة في تلك الأثناء جماعة من الرقيق خُدام القصر، وعلي رأسهم امرأة في خريف العُمُر مُسنَة الهيئة، متهللة الأسارير. وما إن شاهدت «إيفا» تلك الأُمَّ الباشة حتي هرولت إليها وقالت:

- أوه، هذه مامي Mammy.

وألقت نفسها بين ذراعيها، وطفقت تطبع علي وجهها قبلات ما تكاد تنتهي.

ولم تدع هذه المرأة قبلات «إيفا» تُثير الصُّدَاع في رأسها، بل نقيض ذلك، احتضنت الطفلة بسرورٍ بالغٍ وضحكت، وصرخت ملء صوتها، وهي تستقبل «إيفا» حتي ارتاب بصحَّة عقلها الكثيرون ممَّن شاهدوها. وعندما انتهت «إيفا» من معانقة مُربَّيتها أخذت تُصافح الخدم واحدًا إثر واحد، بل كانت تُقبِّلهم بشوقٍ بالغٍ أثار حنق الأُنسَة «أوفيليا» واشمئزها، فصرخت إثر ذلك بأن طريقة مُصافحة «إيفا» للخدم تُثير التقرُّز في النفس، فقالت:

- حسنًا أنتم يا أبناء الجنوب، تستطيعون أن تأتوا أعمالًا اعترف أنني لا أقوي علي الإتيان بها!

فسألها «سانت كلير» باستغراب:

- ماذا تعنين بذلك؟

- يمكنني أن أكون لطيفة مع جميع الناس. فأنا إنسانة اجتماعية. لا أؤذي أحدًا ولا أسيء إلي مخلوقٍ، ولكن طريقة هذا العناق...

- تعنين أن الزوج لا يرقون إلي هذه المرتبة. أليس كذلك؟

- حقًا هذا ما أعنيه بالضبط، فكيف تقوي علي تحمّل كل هذا؟

وضحك «سانت كلير» فيما كان يُغادر الغرفة. ولما رأى الأقرباء المبتهجين بعودته صاح:

- أهلاً. ما عساكم تفعلون هنا جميعًا يا جيمي Jimmy، وبول Paul، وساكي Sake؟ تري هل تكونون سعداء بعودة السيّد؟

وصافحهم واحدًا واحدًا، ووزّع عليهم بعض القطع النقدية الصغيرة. وبينما كان «سانت كلير» يستدير عائداً إلي غرفة زوجته، وقعت عيناه علي «توم» الذي كان واقفاً وهو يتململ بانزعاج حين كان «أدولف» يتفحصه من خلال نظارة من نظارات الأوبرا في كثيرٍ من الأزدياء والاستخفاف، فصاح به «سانت كلير»:

- ما هذا يا أدولف؟ أتعامل مرؤوسيك بهذه الطريقة المستهجنة؟ وبعد، ما هذا الثوب الأنيق الذي ترتديه، أفلا يكون هذا ثوبي؟



- حقًا يا مولاي، ولكن هذه البذلة مُلطخة ببقع الحبر، وأشكّ في أن رجلاً بمنزلة مولاي يُقدم علي ارتدائها. فقلت في نفسي، إنَّها لا تصلح إلا لزنجي مسكين مثلي فلبستها، ولعلي مخطئ في ذلك.

- إذًا، هكذا هي المسألة. وعلي أية حال، أنا ذاهب لأُقَدِّم «توم» إلي سيِّدته، ثمَّ عليك بعد ذلك أن تأخذه إلي المطبخ. ولا أريد أن أوصيك بضرورة معاملته علي أحسن وجه فهو عبد يساوي رجلين علي شاكلتك مغرورين.

ودخل «توم» الغرفة مع سيِّده فهاله أن يري فيها تلك البُسُط المخملية الثمينة، والمرايا، والصور، والتمائيل، والستائر الغالية فكاد يسقط علي رجله من شدة الإعجاب والدهشة.

وقال «سانت كلير» لزوجته:

- أنظري يا ماري. لقد اشتريت لك آخر الأمر سائق عربية يعجبك، إنَّه مثال للرصانة والوقار، وفي استطاعته أن يقود عربتك وكأنَّه في جنازة، إذا شئت. افتحي عينيك الآن وانظري إليه. لا تقولي بعد اليوم إنني لا أفكر فيك أثناء غيابي عنك كما تدَّعين دائماً!

وفتحت «ماري» عينها وركزتهما علي «توم»، من غير أن تنهض من مضجعها، ثمَّ قالت:

يُخَيَّل إليّ وكأني واثقة من أنَّه يُعافر الخمر!

- لا. لا إنَّه بضاعة مكفولة التقى والورع.

- أرجو أن يكون كما ذكرت.

وبعد أن غادر «توم» الغرفة، دنا «سانت كلير» من زوجته وقال بلهجة رقيقة:

- والآن، يا ماري، كوني رقيقة، وترفقي بي وزوديني بكلمة تدل علي شوقك إليّ..

فاكفهر وجه السيّدة وتجهّم وقالت:

- لقد تأخرت أسبوعين عن موعد عودتك المُقرر!

- صحيح ولكن كتبت لكِ وشرحت الأسباب القاهرة.

- وهل تعني أنّك كتبت لي تلك الرسالة الموجزة الجافة؟

- كنت أريد ألا يفوتني البريد، وكان عليّ أن أختار إحدى طريقتين: أن أكتب تلك الكلمات، أو لا أكتب شيئاً.

- لا بأس فقد اعتدت هذا، ففي كلّ مرّة تكون رسائلك مختصرة قصيرة ورحلاتك ممتدة طويلة!

وهنا سحب «سانت كلير» من جيبه علبة مخملية أنيقة وفتحها قائلاً:

- خذي هذه الهدية التي حملتها لكِ من نيويورك.

وكانت الهدية صورة لـ «سانت كلير» وابنته، ويد كلّ منهما في يد الآخر. والصورة مستخرجة علي صفيحة معدنية مطلية بالفضة.

وأمعنت «ماري» النظر في الصورة، ثمّ قالت في لهجة الاستنكار:

- وما الذي حملكما أن تجلسا هذه الجلسة الحمقاء؟

- قد يكون الوضع غريبًا، فالأمر يعود لرأينا الشخصي. ولكن وربك ما رأيك في الصورة من الوجة الفنيّة وفي إحكام صنعها ومدى الشبه بينها وبين الأصل؟

فأغلقت السيّدة العلبة وقالت غاضبة:

- مادمت لا تحترم رأيي في مسألةٍ واحدةٍ، فإنّك حقًا لا تحترمه في جميع القضايا الأخرى.

فقال «سانت كلير» في نفسه: «سحق الله النساء»، ثمّ التفت إلي زوجته، وقال بلطفٍ:

- ولكني يا ماري، أحبّ أن أعرف رأيك في مدى التشابه ودقة الصنع؟  
- إنّه لغباء منك يا سانت كلير أن تُلح عليّ في أن أتحدّث عن الأشياء وأمعن النظر فيها. أنت تعلم أنّي قضيت النهار كلّهُ فريسة الصّداق، ومع ذلك فإنّ جلبة لا تُطاق عمّت أرجاء البيت منذ عودتك حتي أنّي صرت اعتقد بأنّني نصف ميتة!

وهنا أفاقت الآنسة «أوفيليا» من غمرة ذهولها، فجأةً، وكانت تُفكّر في الرياش الفخمة التي تُزين القصر وتحسب نفقاتها، ثمّ قالت:

- وهل تشكين الصّداق دائمًا يا سيّدتني؟

- إني شهيدة حيّة من شهداء الصّداق!

ثمّ قال «سانت كلير» إلي «أوفيليا»:

- لك أن تأوي إلي غرفتك لترتاحي من عناء السفر.. أدولف قل لمامي  
أن تأتي إلي هنا.

ودخلت الغرفة للحال المرأة التي غمرت «إيفا» بقبلايتها، وكانت  
كعادتها نظيفة الثياب وهي تضع علي رأسها منديلاً ملوئاً أهدهته إياه «إيفا»  
بعد وصولها، فخاطبها «سانت كلير» قائلاً:

- مامي! أحيطي هذه السيّدة بعنايتك. إنّها متعبة ومن حقها أن تجد الرّاحة.  
خذيها إلي غرفتها، وابذلي جهدك لتحظي بالهدوء والرّاحة اللازمين لها.  
وغادرت «أوفيليا» الغرفة إثر «مامي» لتأوي إلي الغرفة التي أفردت لها.



امرأة غريبة الأطوار!

Strange woman eccentric



بينما كان «سانت كلير» وزوجته يتناولان طعام الإفطار، صباح اليوم التالي، قال لها:

- والآن يا ماري اعلمي أن ابنة عمّنا، وهي امرأة حكيمة وعملية ستعتني بشؤون المنزل، وستحمل عنك مهام إدارته كُلّها ليفسح لك مجال الاهتمام بنفسك، فتتجولين علي الأقدام ما طاب لك، وتستجمين متى يحلو لك، حتي يعود شبابك. أمّا مهمة التسليم والتسلّم فأري من الأفضل أن نقيّمها حالاً.

فقلت «ماري» وهي تسند رأسها إلي يدها:

- أنا واثقة من أنّها ستكشف شيئاً واحداً إذا فعلت، وهو أنّ السيّدات في هذا البيت هن العبيد في واقع الأمر!  
فقال «سانت كلير»: :

- آه، طبعاً، سوف تكتشف ذلك وعشرات من الحقائق الأخرى غيره.

- وستري أن علّه هذا البيت هم أولئك العبيد المكره الخادعون. فالحق أنّ صحّتي لم تتدهور إلا بسببهم.

- يبدو أن جَوَّ التشاؤم قد سيطر عليك منذ الصباح. والحق أنك تعرفين أن الأمر غير ما تقولين. فمامي لا شبه لها في طيبة القلب. وإني لأتساءل ماذا كان باستطاعتك أن تفعلي لو حُرمت مساعدتها والتفاتها إليك؟  
- إن مامي أحسن مَنْ عرفت من الخدم. ومع ذلك فهي أنانية علي شكلٍ سخيفٍ.

- حتمًا إن الأنانية خطيئة مميتة!

- والآن ها هي مامي. أنا أعتقد أن من الأنانية أن تنام ملء أجفانها. إنها تعلم أنني بحاجة إلي مَنْ يعني بي بين ساعةٍ وأخرى. ومع ذلك فهي لا تفيق من سباتها بسهولة. الواقع أنني أحسّ هذا الصباح. بتقهقرٍ في حالتي الصحيّة بسبب ما بذلت لإيقاظها في الليلة الماضية!  
وهنا تدّخلت «إيفا» الصغيرة، فسألت:

- ألم تسهر معكِ ليلي بطولها في الآونة الأخيرة يا ماما؟

فغضبت الأمّ وانتابتها عصبية قوية، ثمّ قالت:

- وكيف عرفت ذلك، أكانت تشكو وتندمّر من سلوكي معها؟

- أبدأ، إنها لم تشكّ ولم تندمّر. بل كلّ ما هنالك أنّها أخبرتني أنّك قاسيت كثيرًا من الأوجاع طوال ليالٍ متعاقبة.

فقال «سانت كلير»:

- ولماذا لم تكلفي ساكي أو روزا Rosal للقيام مقامها ليلة أو ليلتين حتي تستطيع أن تخلد إلي السكينة فيهما؟

- غريبٌ أمرُك يا سانت كلير. كيف تقترح مثل هذا الاقتراح وأنت تعلم أنني في حالتي الراهنة أضعف من أن احتمل رؤية يد غريبة حولي؟! فلو

اهتمت بي مامي اهتمامًا حقيقيًا لما كانت تستغرق في نومها ذلك الاستغراق كُلَّهُ! يا لتعاسة حظي! هنالك أناس أنعم الله عليهم بخادِماتٍ متفانياتٍ، ولكنني لم أسعد يوماً بمثل هذا الحظ!

وكانت الأنسة «أوفيليا» تصغي إلي هذه المناقشة الحادة بكثيرٍ من الانتباه ضاغطة علي شفيتها، وكأنَّها عازمة علي أن ترسِّخ مركزها قبل أن تُدلي برأيِّها ما.

واستطردت «ماري»:

- إنَّ مامي تمتاز بطيبة القلب، ولكنها أنانية في أعماقها. إنَّها قلقة علي زوجها الذي ابتعدت عنه منذ تزوّجت. ولقد نصحتها بأن تتزوَّج من رجلٍ آخر فأبَت ورفضت واستكبرت. إنَّها لعنيدة في بعض الأمور إلي حدِّ لا يُحتمل. وبلا شكَّ فهي رغم علمها بشدة حاجتي إليها وتقهر صحتي، لا تتورع علي أن تتركني الآن أو غدًا لو فُدر لها أن تلحق بزوجها الفار..

كانت «إيفا» الجميلة تصغي إلي أمِّها وعلي وجهها انطباع من الجد العميق الذي يندر أن تقع علي مثله عند الأطفال. فما إن وصلت أمِّها في حديثها إلي هذا الموضوع، حتي أسرع الفتاة إلي كرسي والدتها وطوّقت عنقها بذراعيها.

فسألته الأم:

- حسنًا يا إيفا ماذا تبغين؟

- ماما، ألا أستطيع أن أعني بك ليلة واحدة.. واحدة لا غير؟ إنني واثقة من أنني لن أُثير أعصابك، ولن أسمح للنوم بأن يتغلَّب علي جفوني. فأنا أسهر الليل بطوله. نعم، بوسعي ذلك.

- ما هذا الهراء يا إيفا؟ إنَّك طفلة عجيبة حقًا!

- أرجو أن تسمح لي أن أقدم لك هذه الخدمة يا أمّاه. فقد علمت أن مامي مريضة، وأخبرتني أنّها تُعاني ألمًا في رأسها منذ سبعة أيام.

- آه! تلك إحدى نقائص مامي، فهي مثل باقي الخدم لا تختلف عنهم بشيء. إنّها تُثير الضجة حول كلّ صداع يُصيبها أو حتى أي ألم بسيط يتتابها. من أجل ذلك لن أسمح لك بهذا الصنيع كي لا تعتاد إهمال شؤوني.. وهذه مسألة مهمة يجب ألا أتساهل فيها مطلقًا.

قالت «ماري» ذلك، والتفتت إليّ «أوفيليا» فوجهت إليها الكلام:

- سوف تُدركين صدق قلبي إذا ما شجعتِ الخدم عليّ مطالبهم وأرختهم كلّما شكوا ألمًا، وبهذا تفتحين عليّ نفسك بابًا لا يُغلق! أنا لم أشك من الألم طوال عمري، وليس أحد يعرف ما أقاسي من أوجاع. إنني أشعر أنّ من واجبي احتمال الداء في هدوءٍ، واني لفاعلةٌ بعون الله.

وبعد هذه الخاتمة المخجلة التي تحدّثتِ رصانة «سانت كلير» المصطنعة تحديًا صارخًا، راح يضحك ضحكًا عاليًا مدويًا أزعج زوجته من دون شكّ.

وفي لهجة الشهيد الراح تحت وقع الآلام، قالت «ماري»:

- إنّ سانت كلير يضحك كلّما أشرت إليّ صحّتي المعتلة ولو إشارة بسيطة. وكلّ ما أرجوه ألا يأتي يومًا يتذكّر فيه ذلك.

ورفعت مندليها إليّ عينيها وأنشأت تُكفكف دموعها. وساد صمت رهيب. وأخيرًا نهض «سانت كلير»، وألقى نظرة عليّ ساعته، وقال إنّهُ عليّ موعدٌ خارج المنزل، فانطلقت «إيفا» وراءه، وبقيت «ماري»، و «أوفيليا». فاستطردت تقول الزوجة المنكوبة:

- هذا هو زوجي. وهذه طباعه فهو لا يستطيع أن يُدرك. بل إنّهُ لا يُريد أن يُدرك ما أقاسية من آلامٍ منذ سنتين فلو أنّي كنت من الذين يلجون ويلحون

بالشكوى ويغالون في تعظيم المصائب، إذا لكنت عذرتة بعض العذر. إنَّ الرِّجال يتضايقون من الزوجة كثيرة الشكوى. ولكنني كتبت الآلام في نفسي، واحتملتها حتي دخل في روع سانت كلير أني قادرة علي احتمال كل الآلام!

لم تعرف «أوفيليا» ما عليها أن تقوله جوابًا، وبينما هي تُفكر فيما ينبغي أن تقوله، جففت «ماري» دموعها المتساقطة علي خديها. ثمَّ شرعت تتحدَّث إلي «أوفيليا» حديث ما سيعهد إليها القيام بإدارته، ووجهت إليها بعض التحذيرات، قائلةً:

- أعتقد أني حدثك عن كلِّ ما يتعلَّق بمهمتكِ في إدارة المنزل حتي إذا ما اعترتني أزمة المرض في المرَّة القادمة، كان في مقدورك أن تنفرد في تسيير العمل من دون استشارتي باستثناء ما له علاقة بإيفا فهي تحتاج إلي عناية ومراقبةٍ شديديتين.

- الواقع أنَّها فتاة ممتازة، ولم أر أفضل منها في حياتي.

- إيفا أمرها مُحير، إنَّها ليست مثلي علي الإطلاق!

وتنهدت كما لو كان ذلك الأمر محزنًا حقًا.

وحدثت «أوفيليا» نفسها قائلةً: «أمل ألا تكون ابنتكِ مثلكِ أبدًا». ولكنها رأت من الحكمة أن تخفي انفعالها.

ثمَّ قالت «ماري» بلهجةٍ شاكيةٍ باكيةٍ:

- إنَّ «إيفا» تُحبُّ الاختلاط كثيرًا بالخدم. وهي تهدف إلي وضع نفسها دائمًا علي قدم المساواة معهم. تلك صفة غريبة عند هذه الطفلة. لقد اجتهدت لحملها علي ترك هذه العادة ولكن فشلت. والذي أحسبه أن سانت كلير هو الذي يشجعها علي سلوكها هذا!

ولم تجد «أوفيليا» جوابًا لتقوله هذه المرّة أيضًا.

فاستطردت «ماري» تقول:

- ومهما كان الأمر فلا وسيلة تريحنا من متاعب الخدم سوى التصييق عليهم. ولكن ما عملي وإيفا وحدها تستطيع أن تفسد البيت؟ فأنا من طبعي أنادي بضرورة معاملة الخدم بالحُسنَى وهذه خطي تمامًا. ولكني، مع هذا، أري أن يعرفوا مركزهم وما خُلقوا من أجله، وإيفا لا يخطر مثل هذا في خلدِها. ولقد رأيتِ بنفسكِ كيف سألتني أن أسمح لها بالسهر علي راحتي ليلة واحدة كي تترك مجالًا لمامي بأن تستريح وتنام هانئة.

فقالت «أوفيليا» في غير مداراة:

- ولكني اعتقد أنّك لا تنظرين إليّ خدمكِ علي أنّهم مخلوقات بشرية. فمن حق مامي أن تنال قسطًا من الرّاحة.

- طبعًا إنني حريصة علي أن ينعموا بما أراه مناسبًا، بما من شأنه ألا يُبعد الإنسان عن واجبه. واعتقد أن في قدرة مامي أن تنام متى شاءت فلا تجد صعوبة في ذلك البتة. إنّها من أكثر الناس تعلقًا بالنوم! ولكن المُعاملة اللينة التي تجعل الخدم يظنون أنفسهم وكأنّهم أزهار نادرة هو ما يُثير سخريتي، وهي ما تجعلهم يتقاعسون في واجباتهم.. وهكذا ترين يا عزيزتي أوفيليا، أنّني لا أنحدّث كثيرًا عن نفسي. فليس ذلك من عاداتي. ولكن هناك مواضع اختلف فيها مع سانت كلير، فهو لم يفهمني في يوم من الأيام ولم يقدرني حق قدرتي. وأحسب أن هذا هو السبب الكامن وراء صحّتي العليلة. إنّ زوجي ذو نوايا حسنة، ولكن الرّجال في أعماقهم أنانيون ولا يقيمون للنساء وزنًا كبيرًا. تلك هي عقيدتي في الرّجال!



ولاذت «أوفيليا» بالسكوت لأنّها لم تكن تنوي أن تستدرجها «ماري» إلي  
الحديث عن المتاعب العائلية. ولكن «ماري» ازدردت صمتها فراحت  
تتحدّث بما طاب لها، ما دام أمامها مَنْ تتحدّث إليه، ثمّ تابعت:

- أمّا مشكلة الخدم فحدثني عنها ولا حرج، والبلبله أنّك لا تستطيعين  
أن تشكي أمر واحد من هؤلاء إلي سانت كلير، فهو لا يتورّع عن أن يُسمعك  
كلام غريب، فهو يعتقد بأنّ الأسياد هم المسؤولون عن تصرّفات العبيد، بل  
يذهب إلي الاعتقاد بأنّه ليس من العدل أن نقترف نحن الذنوب ثمّ نُعاقب  
العبيد عليها.

- ألا تعتقدين أنّ الله خلقهم من الطينة التي خلّقنا منها؟

- لا، لا، لست أعتقد ذلك فهم من عرقٍ مُتدني.

- ألا تعتقدين أن لهم أرواحًا خالدة مثلنا؟

- هذا بالطبع أكيد، ولكن مالا يمكنني أن أتصوّره هو أن نُعاملهم علي  
قدم المساواة معنا.

وما إن فرغت «ماري» من كلامها حتي دخل الغرفة «سانت كلير» غاضبًا  
حانقًا، وأعلن بحدّة أنّه لم يعد باستطاعته أن يحتمل غلاظه «أدولف» التي  
بلغت به الوقاحة أن يستعمل عطر سيّده ومناذيله الرقيقة. فقالت ماري:

- أحمد الله علي أنّك لمست آثار اللين بنفسك.

وفيما كانت المناقشة دائرة بين الزوجين و «أوفيليا»، انطلقت من فناء  
الدار ضحكة عالية، فما إن سمعها «سانت كلير» حتي غادر الغرفة ثمّ تبعته  
«أوفيليا» إلي الفناء.

كانت «إيفا» الصغيرة هي التي أرسلت هذه الضحكة المدوية وهي جالسة علي ركة «توم» بعد أن طوّقت عنقه بإكليل من الورد والأزهار. وكان «توم» جالسًا علي مقعدٍ صغيرٍ وقد توجت سترته بأزهار الياسمين. وضحك «سانت كليز» وقال:



أيضا تتوج العمّ "توم" بالورد والأزهار

أوه هذا توم، يبدو أنه ظريف المعشر إلي حدٍ بعيدٍ.

وكان «توم» يتسم ابتسامة الطيبة الوقور مبتهجًا بالمشهد ابتهاج سيّدته الصغيرة به. حتي إذا رأي سيّدته رفع عينيه وعلت علي وجهه انطباعه فيها شيءٍ من توسل، وشيءٍ من اعتذار. وقالت «أوفيليا»:

- كيف تسمح لها بأن تفعل ذلك؟

- ولمّ لا؟

- لست أدري ولكنني أراه أمرًا مستغربًا!

- يا للعجب إنك ولا شك لا تجددين غضاضة من أن يُلاطف الطفل كلبًا كبيرًا، ولو كان أسود اللون، ولكنك لا تستطيعين أن تتحملي رؤية هذا الطفل نفسه وهو يُلاطف مخلوقًا بشريًا مثله قادرًا علي التفكير والشعور. فكيف يقوي الإنسان البائس المسكين علي العيش إذا ما حرمانه عطف الأطفال، وهم الكائنات المؤنسة الوديدة الوحيدة في هذه البلاد؟ والأطفال هم أزهار الجنة التي أنزلها الله خصوصًا لمواساة قلوب الفقراء والمساكين. وليتعزوا بها عمّا ينتابهم ويصيبهم من ظلم اجتماعي لا يمكنهم احتمالها!

قال «سانت كليز» هذا والانفعال بادٍ علي وجهه، ثمّ تابع النظر إلي ابنته الجميلة «إيفا» وهي تثب وتقفز حول «توم» بخفةٍ ورشاقةٍ. فابتسم لها وقرّت بها عيناه وطابت نفسه وروحه.

يقاتلون من أجل حريتهم

**Fighting for their freedom**

تابع «جورج هاريس»، وزوجته «إليزا» رحلتها الطويلة المجهدة إلى «كندا»، بعد أن أقاما فترة طيبة في مستعمرة طائفة «الكويكرز». وقد زودتهما ربة المنزل المضيفة بكل ما قد يحتاجان إليه من زادٍ وثيابٍ، حين مغادرتهما المزرعة في تلك الأمسية.

كان قرص الشمس الأحمر على وشك أن يغيب وراء الأفق. وكانت أشعته تنفذ أضواء هادئة إلى غرفة النوم الصغيرة التي تجمع شمل «جورج»، وامرأته، وولده. وكان كل من الزوجين مستغرق في تفكير عميق، وأثار الدمع ظاهرة على خدودهما..

قال «جورج» :

- صحيح يا إليزا. أنا أعلم أن كل ما تقولينه صحيح، وأنت حقاً امرأة صالحة، بل أفضل منى بكثير. وسأبذل غاية جهدي لأسير وفقاً لمبادئك. سوف انتهج في الحياة كل ما يُشرف الرجل الحرّ. وسأحاول أن أحس بالمشاعر نفسها التي يحسّها الرجل المسيحي المؤمن. والله تعالى يعلم أني كثيراً ما حاولت أن أصبح إنساناً صالحاً، خاصة عندما كانت الظروف كلها تُعاندني. وأعدك أني قد وُطدت العزم على أن أنسي الماضي، وأن أشرع في قراءة الكتاب المقدس لأتعلّم كيف أكون إنساناً خيراً.

فقالت «إليزا» فرحة:

- وعندما نصل إلي كندا أستطيع أن أساعدك. إنني أتقن فن الخياطة، وأحسن غسل الثياب وكيفية، وهكذا يمكننا أن نتعاون علي تأمين لقمة العيش.

- أجل يا إليزا، مادمنًا معًا، وما دام معنا ابننا الحبيب. أوه يا إليزا! ليت هؤلاء الناس يدركون أية نعمة وبركة تُصيب الإنسان حين يحس أنّ زوجته وولده ملك له هو! الواقع أنني الآن أحس بالثروة والقوة علي الرغم من أننا لا نملك شيئًا غير أيدينا الفارغة. إنني أحس وكأني في غير حاجة أن أسأل الله شيئًا إضافيًا. إنني أكون سعيدًا وشاكراً إذا هم تركوني وشأني. سوف أشتغل وأبعث بالمال إليك وإلي ولدي. أمّا سيّدي القديم فقد دُفع له خمسة أضعاف ما أنفقه عليّ ولست مدينًا له بشيءٍ.

- ولكننا لم ننجُ من الخطر بعد، فمازلنا بعيدين جدًا عن كندا.

- حقًا تقولين.. ولكنني بعد أن استنشقت الهواء الطلق وشعرت بنعمة الحرية، فإنّ العزم والقوة يملكان جسدي ونفسي.

وفي تلك اللحظة قرع الباب الخارجي فانطلقت «إليزا» وفتحته. كان ذلك «سايمون هاليداي» Simon Holliday ربّ البيت الذي آواهما طوال هذه المدة، ومعه أخ من جماعة الأصدقاء قدّمه إليهما باسم «فينياس فلانشر» phineas falancher

وقد بادرها «سايمون» بقوله:

- لقد تمكّن صديقنا فينياس من أن يكتشف أمرًا خطيرًا يخصكما، فرأيت أنّه من الأفضل أن تسمعا منه.



فقال «فينياس» :

- لقد ثبت لديّ أنّ من المعيب أن ينام المرء وإحدى أذنيه مفتوحة في بعض الأماكن. ففي الليلة الماضية توقفت عند نزل منزّل فتناولت طعام العشاء، وتمدّدت علي ركام من الأكياس في الزاوية ريثما يُهيأ لي فراش، وسرعان ما غلبني النوم فنمت. وإحدى أذنيك مفتوحة، أليس كذلك؟!!

- لا يا صديقي. لقد نمت بأذني الاثنتين حقًا مقدار ساعة أو ساعتين من دون وعي من شدّة الإعياء. ولكنني أفقّنت من سُبّاتي العميق علي أصوات هرج ومرج فقد وجدت في الفندق رجالاً يُعاقرون الخمر ويتحدّثون، فأحبّبت أن أعرف حقيقة أمرهم، خاصّة وقد لاحظت أنّهم يعنون في حديثهم جماعة الكويكرز، التي أنتمي إليها. وعلي هذا سمعت أحدهم يقول: لا شك أنّهم يقيمون في مستعمرة الكويكرز. وبعد أن أصغيت جيدًا إلي حديثهم تحققت أنّهم كانوا يتحدّثون عنكم. وازداد فضولي وحاولت أن أفهم كل ما يدبرونه من خطط. ولقد قالوا: إنّ هذا الشاب المُتمرّد يجب أن يُعاد إلي سيّده في كانتاكي ليكون أمثولة تربي جميع الزوج الأبقين الهاربين. أمّا زوجته فقالوا إن اثنتين منهما سوف يقودانها إلي نيو أورليانز لبيعاها لحسابهما. وقد قدّرا أن يغنما ويربحا بها مبلغًا كبيرًا. وأمّا الولد فقد سمعتهم يقولون: إنّهم سوف يعيدونه إلي النّحاس الذي اشتراه. ولم يبق أخيرًا إلّا «جيم» Jim وأُمّه، وقد اعترمت العصاة الشريرة أن تعيدهما إلي سيّدهما في كانتاكي أيضًا. والمهم أكثر من هذا أنّهم علي علم بالخطّة التي رسمناها للفرار هذا المساء، وأنّ الذين سيتبعوننا لا يقلّ عددهم عن ستة أشخاص، فماذا تراكم فاعلين؟

أثر هذا الكلام في جمهور المستمعين. أمّا صاحبة المنزل «راشيل هاليداي» Holliday Rachel فقد أخرجت يديها من معجن البسكويت

الصغير لتصغي سمعها إلي الأبناء المثيرة، ووقفت مضطربة البال، تعلق وجهها علامات القلق البالغ. فيما كان «سايمون» مطرق الرأس مستغرقاً في تفكير عميق. أمّا «إليزا» فقد طوّقت زوجها بذراعيها وحدجته بنظرة فاحصة. ووقف «جورج» مكتوف اليدين وقد بدا في عينيه لمعان غريب وظهرت علي ملامحه علامات القلق، قلق رجل يري زوجته تُباع بالمزاد، وسيسلم ابنه إلي النخاس تحت ظلّ القانون وحمايته!

وتساءلت «إليزا» في جزع:

- وماذا عسانا فاعلين يا جورج؟

- لا تجزعي فأنا أعرف ما ينبغي أن أفعله.

ثمّ انطلق «جورج» إلي الغرفة الصغيرة حتي أخذ يفحص مُسدسه بغضبٍ شديدٍ. بعدها عاد إلي حيث كان، وقال:

- لا أريد منكم أن تشتركوا معي في الدفاع عني وعن عائلتي. وكُلّ ما أرجوه منكم هو أن تتلطفوا وتعيروني عربتكم وتدلوني علي معالم الطريق. وأنا أقود العربة بنفسي إلي الحدود. فجيم قوي وشجاع، وأنا مثله، ولا خوف علينا من الأعداء.

فقال «فينياس»:

- اتفقنا يا صديقي، ولكنك تحتاج إلي مَنْ يقود العربة عند قيامك بأعباء القتال ومقاومة اللصوص وحدك. والي جانب هذا، هنالك أمر أو أمران يتعلقان بالطريق، وأنت تجهلها من دون شك.

- ولكني لا أريد أن أشركك في عملية الدفاع عنا، يا أخي.



- حسناً! عندما تراني تورطت في الدفاع عنك، رجائي إليك أن تحيطني  
علمًا بذلك.

فقال «سايمون»:

- فينياس رجلٌ حكيمٌ وبارعٌ. ومن الخير لك أن تأخذ بآرائه.

ثمّ أضاف واضعاً يده في رفقٍ علي كاهل «جورج» ومشيراً إلي المُسدس:

- أحذرك يا صديقي من أن تتهور وتستخدم المُسدس فأنت شاب ودّم

الشباب حار!

- ثق بأنني لن أهاجم أبداً. وكُلّ ما أبتغيه من هذا الوطن هو أن يتركني

وشأنني. وأنا واثق من أنني سأعاده بسلام، ولكن...

وصمت لحظةً واكفهر جبينه، وعصفت في جسمه ثورة دموية، ثمّ

أضاف:

- ولكن ماذا تريدون مني أن أفعل؟ لقد كان لي أخت فيبعت في سوق

الرق في نيو أورليانز، وأنا أعرف ما الهدف من المتاجرة بالنساء، فكيف بي

وأنا أري اليوم زوجتي مُعرّضة لأن تُساق إلي تلك السوق لتباع فيها سلعة

رخيصة. كيف أرضي بهذا، وقد منحني الله قبضتين قويتين أستطيع بهما

أن أحميها وأدافع عنها؟ لا. لن يكون ذلك. ليكن الله معي، فإني سأقاتل

حتي الرمق الأخير، وسأموت قبل أن ينتزعوا مني زوجتي وولدي. فهل منّ

يلومني علي ذلك؟

فقال «سايمون»:

- إن المرء لا يستطيع أن يلومك يا «جورج» فليس في استطاعة اللحم والدم أن يفعلوا غير ذلك.

- أأنت نفسك جدير بأن تقف الموقف نفسه لو كنت في مكاني، يا سيّدي؟

- أسأل الله ألا يُجربني، فإن الجسد ضعيف يا بُني!

وهنا انبري «فينياس» للكلام فقال:

- اعتقد أن جسمي غير ضعيف، ولي قوّة لا يُستهان بها، خاصّة في مثل هذه المواقف.

وهنا وقف ومظاهر الرجولة بادية علي وجهه، وكشف عن ذراعيهما أشبه بذراعي طاحونة هوائية. ثمّ عاد إلي الكلام، فقال:

- لا يمكنني أن أتمالك نفسي أيها الصديق وأقف علي الحياد، إذا ما فُرض عليك القتال وتصفية الحساب مع أولئك الأشرار.

فابتسمت «راشيل هاليداي»، وقالت:

- إن للصديق فينياس أساليبه الخاصّة دائماً، ولكننا جميعاً نعتقد أن قلبه يدلّه علي الموقف المناسب الصحيح علي كلِّ حالٍ.

فتساءل «فينياس»:

- حسناً أليس من الخير لنا أن نُعجّل في الفرار؟

ثمّ استطرد يقول:

- لا يكون سفرنا مضموناً إذا خرجنا قبل أن يرخي الليل سدوله وأستاره. ذلك لأننا قد نتعرّض للمتاعب تأتينا من جماعة الأشرار المنتشرين في



القرى إذا ما رأوا عربتنا. وأعتقد أنه سيكون في استطاعتنا الانطلاق من هنا بعد ساعتين لا أكثر. وسمحوا لي أن أغادركم للاجتماع بصديقي مايكل كروس Maykal cross للاتفاق معه علي مراقبة الطريق بدقة لتحذيرنا إذا ما ظهرت له آثار أي عصابة تتربص بنا. فمايكل يملك حصاناً لا يُجاره حصان في الركض. وسأمر أيضاً بجيم والمرأة العجوز لأطلب منهما أن يكونا علي استعداد.

ثم أغلق الباب خلفه، وانصرف.

وهنا قال «سايمون»:

- لاشك مطلقاً في أن فينياس سوف يبذل جهده ليخدمك في رحلتك يا

جورج.

- إن ما يجرح كبريائي هو تعرُّضكم للخطر من أجلي.

- أرجو منك ألا تتفوه بمثل ذلك أيها الصديق فنحن لا نفعل إلا ما يفرضه

علينا الضمير الإنساني. ثم التفت إلي زوجته، وقال:

- انهضي أيتها الأم، وأسرع في إعداد الطعام لهؤلاء الأصدقاء.

وهنا خرجت «راشيل» وأخذت تُعدُّ العُدَّة مع أولادها لطهو اللحم

والدجاج، بينما جلس «جورج» وزوجته في الغرفة الصغيرة، وراحا يتحدثان

بلهفةٍ وشوقٍ كأنهما يعلمان أنَّهما قد يفترقان بعد ساعاتٍ فرافاً أبدياً.

قال «جورج»:

- أنا لم أنعم، حتي اللحظة التي عرفتك فيها، بحُبِّ أحد من الناس غير

أمِّي البائسة وأختي التعسة. ولقد رأيت شقيقتي إميلي Emily المسكينة

غداة اشتراها النخّاس. أقبلت أمّي إلي الزاوية حيث كنت نائمًا، وقالت: أنهض يا «جورج»، إنَّ أفضل مُحبِّبٍ لك سوف يمضي في سبيله. ولا أعلم ماذا سيحل بك، أيها الفتى الشقيّ بعد رحيلي عنك؟ فنهضتُ في الحال وطوّقتها بذراعيّ و بكيت وانتحبت كما بكت هي وانتحبت، وكانت كلماتها تلك آخر ما سمعته أداني من كلام صادقٍ طوال عشر سنين. ومنذ تلك اللّحظة ذبل قلبي وتحطم ولم يستعدّ نضارة شبابه وصفاءه إلّا بعد أن أحببتك أنت. فلقد صرّتُ إنسانًا جديدًا منذ ذلك الحين. والآن يا إليزا إنني عازم علي أن أسفح آخر نقطة من دمي للحفاظ عليك. ولن يستطيعوا أن يتزعوك مني. وكلُّ مَنْ يُحاول أن ينتزعك مني يتوجّب عليه أن يمشي فوق جثتي الهامدة قبل أن يحصل عليك.

فقالت «إليزا» متنهدة:

- ارحمنا يا إلهي! ارحمنا! وكلُّ ما نسألك إياه هو أن تخرجنا من هذا البلد إلي بلدٍ غيره سالمين.

- أيكون الله معهم وحدهم يا تُري؟ وهل يري الله كل ما يفعلونه؟ إذا كان يري فلمَ يسمح بوقوع كلِّ هذه المظالم المقيّنة القبيحة؟ إنَّهم يزعمون أن الله معهم، وكذلك الكتاب المقدس معهم ولهم. وطبعًا فإنَّ كلَّ القوي الدينية السماوية معهم ولم لا؟ فهم أغنياء وأصحاء الأجسام وسعداء. إنَّهم يتسبون إلي الكنائس ويتوقعون أن يدخلوا ملكوت السماوات. وفضلاً عن هذا يفعلون ما يشاءون. وباستطاعتهم توجيه المجتمع إلي الوجهة التي يرغبونها. أمّا المسيحيون الحقيقيون الأتقياء، المسيحيون الذين يساؤونهم صلاحًا أو يفوقونهم فيلاقون شرَّ المصائب ويمرغون بالتراب! إنَّهم يشترونهم ويبيعونهم ويتاجرون بدماء قلوبهم وتأوهات صدورهم



ودموع مآقبيهم. وإن الله ليري ذلك كله ثم يتركهم في طغيانهم وظلمهم  
واستبدادهم!!

وسمع «سايمون» ما يتحدث به «جورج» فتلا عليه بعض المزامير،  
ونصحه بالأيقظ ويأس من رحمة الله تعالى، فهو يكافئ متقيبه وخائفه.  
فأشرقت أسارير «جورج» بهذه الأقوال، وأسلم مقاديره إلى الله.

وهنا اقتربت «راشيل» من «إليزا» وقادتها إلى غرفة الطعام حيث بسطت  
مائدة سخية. وما إن اجتمع شمل القوم حول مائدة الطعام حتي سمعوا  
صوت عربة كبيرة تقف أمام باب الدار.

كان المساء جميلاً والسماء صافيةً متألثةً النجوم، وكان «فينياس» برشاقةً  
وخفةً ينهض من مقعده ليُعَيِّن لكلِّ راكب من الركاب مكانه في العربة.

وأقبل «جورج» من عتبة الباب وفي إحدى يديه ولده وفي الأخرى  
زوجته، واتجه نحو العربة بخطي ثابتة. وكانت أمارات وجهه تدل علي  
صفاء الذهن وهدوء النفس. وخرجت «راشيل»، وزوجها يودعان ضيوفهما  
المسافرين. وكان «جيم»، ووالدته جالسين في داخل العربة.

ولم يكذب «جورج» يري «جيم» حتي سأله بصوتٍ خافتٍ حازم:

- أحسب أن مُسدسك علي غاية ما يرام؟

- طبعًا، طبعًا.

- وليس عندي ريب في ما ينبغي أن تفعله إذا ما فوجئنا؟

- أعتقد أنه لا ريب عندي في ذلك علي الإطلاق.

قال «جيم»، وكشف عن صدره العريض، ثم تابع:

- هل تحسب أنني سأتركهم يأخذون أمي مرة ثانية؟

ومضت العربة في سبيلها تطقطق وتهتز. ولم يكن ثمة مجال للحديث بسبب وعورة الطريق وضجيج العجلات.

واصلت العربة سيرها فقطعت سهولاً ممتدة، وغابات كثيفة. كانت تجري في الأرض السهلة حيناً، وحيناً آخر ترتقي التلال والسهول ثم تهبط الأودية، وركابها يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار، وإلي الأمام والي الوراء، وعلواً وهبوطاً ساعة إثر ساعة.

أمّا الطفل فنام في أحضان أمه نومًا عميقًا، والعجوز نسيت مخاوفها بعد حين، و«إليزا» نفسها أسلمت عينها لسلطان النوم بعد أن عجزت عن إبقائهما مفتوحتين علي الرغم من همومها الكثيرة. أمّا «فينياس» فكان أكثر الجماعة نشاطاً وحركة، فكان يُغالب نُعاسه وتعبه بإنشاده بعض الأغنيات المرحة التي لا تتفق أبدًا مع جماعة «الكويكرز» الذين يحبون الرصانة والتزمّت في كل ما يفعلون.

وظلت العربة مطمئنة حتي السّاعة الثالثة بعد منتصف الليل، حين سمع «جورج» وراءهم وقع حوافر فرس تنجه نحوهم بسرعةٍ بالغةٍ. فانتبه «فينياس» إلي ذلك وصار يُخفّف سرعة الخيول، ثمّ أصاخ سمعه، وقال:

- هذا مايكل من دون شك. إني أعرف حوافر صوت فرسه كما أعرف طريقة جريها.

بعدها تطلع إلي الوراء بلهفةٍ فهاله، كما هال الرُّكاب جميعًا أن يروا فارسًا يعدو نحوهم عدوًا جنوبيًا فوق الكثبان الرملية البعيدة.

فقال «فينياس»: :



- ذلك هو علي ما أظن.

ووثب «جورج»، و«جيم» من العربة قبل أن يعرفا ما عليهما أن يفعلاه. ووقف الركاب كلَّهم وكأن علي رؤوسهم الطير. وقد وجهوا عيونهم شطر الرسول المرتقب. وواصل الرّجل جريه بعد أن هبط في وادٍ فغاب عن أنظارهم، ولكن وقع حوافر فرسه ظلّ مدويًا في أذناهم. وما هي إلا لحظات حتي ظهر الفارس من جديد علي قمة رابية قريبة منهم.

- أجل ذلك هو مايكل.

قال «فينياس» ذلك ورفع يده بالتحية.

أهلاً مايكل.

- فينياس أهذا أنت؟

- نعم، ما وراءك؟ هل هم قادمون؟

- إنَّهم في أثركم ولا يبعدون كثيرًا، ويزيد عددهم علي عشرة أشخاص. وأظن أنَّهم سكارى فقد عصف الشراب برؤوسهم وتركهم هائجين ثائرين كالمجانين!

ولم يكد «مايكل» ينتهي من كلامه حتي حملت طيات الأثير إليهم أصواتًا غاضبةً تدل علي أن جماعة من الفرسان يقتربون منهم. فصاح «فينياس»:  
- هيا أسرعوا وادخلا العربة، وإذا كان عليكما بالقتال فانتظرا ريثما تتقدّم بكم العربة قليلًا إلي الأمام.

وبلمح البصر وثب «جورج»، و«جيم» إلي داخل العربة. وأخذ «فينياس» يلهب أحسنه ضربًا بالشُّوط فمَرَّت بسرعة فائقة. ورغم ذلك أخذت أصوات

الملاحقين تصل إلي أذان الرُّكاب أوضح فأوضح حتي أنّهم أخذوا يفهمون لغظهم وتهديداتهم الوحشية ما أوقع الرُّعب في قلب «إليزا»، فشددت أبنها «هاري» Harry إلي صدرها. أمّا المرأة العجوز فكانت تتحب وتصلي. وأمّا «جورج»، و«جيم» فقد استعدا للقتال فأشهر كلٌّ منهما مُسدسه. وما هي إلّا لحظات حتي أدركهم المتعقبون، فانحرف «فينياس» بالعربة فجأةً إلي جرف صخري مرتفع كثرت صخوره الصّماء وكأنّها تتحدي السماء، وقد بزغ فجر النهار من المرتفع وكأنّه قلعة يمكن أن تحمي هؤلاء المساكين من الأشرار. وليس من قبيل الصدفة أن ينحرف «فينياس» بالعربة إلي تلك الجهة بل فعل ذلك متعمدًا، فهو يعرف تلك البقعة، وقد ألفها وتعوّدها في أيام القنص والصيد. لهذا قاد عربته إلي هذا الموضع دون سواه.

- والآن ها قد وصلنا.

وبعد أن قال «فينياس» هذا للرُّكاب، أوقف عربته فجأةً، ثمّ وثب إلي الأرض برشاقةٍ، وقال:

- هيا أخرجوا جميعكم بأسرع من لمح البصر، وتعالوا معي لنرتقي تلك الصخور العالية. وأمّا أنت يا «مايكل» فشدّ فرسك إلي العربة وطر إلي «آماريا» Amaria ثمّ غدّ به وبرجاله.

وفي لمح البصر خرجوا جميعًا من العربة. وصرخ «فينياس» حاملاً «هاري» بيديه:

- لينتبه كلٌّ منكما إلي إحدى المرأتين. وأروني الآن إلي أيّ حدّ تستطيعوا أن تركضوا!

ولم يكن الجميع في حاجةٍ إلي مَنْ يستحثهم علي السرعة. ففي أسرع من البرق تسلقوا السياج وانطلقوا كالسهام نحو الصخور، في حين نزل «مايكل» عن الجواد وشده إلي العربة، وانطلق للقيام بالمهمة التي عهد إليه «فينياس» بها.

ومشي «فينياس» أمام القوم قافزاً علي الصخور كالشاة، والطفل بين ذراعيه، وكان وراءه «جيم» يمشي بثقلٍ لأنَّه حمل أمَّهُ العجوز الخائفة علي كتفه. وكان «جورج» وامرأته «إليزا» في المؤخرة. أمَّا الفرسان المتعقبون فقد ترجَّلوا عن خيولهم عندما وصلوا إلي الجرف استعداداً للحاق بالجماعة الهاربة.

وبعد جهدٍ ثقيلٍ وشاق، بلغ فينياس «ورفاقه أعلي الكتلة الصخرية، ثمَّ قادهم إلي اجتياز مضيقٍ عبر تلك الصخور الضخمة لا يمكن اجتيازه إلاَّ كُلِّ فردٍ علي حده. وقد كان الممر الصخري ضيقٍ ولا يزيد عرضه عن ذراع، ووراء هذا الممر صخور عالية بل ركام من الصخور مستقلة عن الجرف. فوثب «فينياس» وقطع الممر، ثمَّ تبعه رفاقؤه.

وهنا قال «فينياس» :

- أخيراً انتهينا إلي مكانٍ آمنٍ. فليتصيدونا الآن إذا استطاعوا! فمن يُريد الوصول إلينا عليه أن يسير منفرداً بين هاتين الصخرتين. ولا يصعب علينا بعد ذلك القضاء عليه بنيران مُسدساتنا. انظروا أيها الرفاق ألا ترون ما أقوله صحيح.

وكان الفرسان الملاحقون قد وصلوا أثناء ذلك إلي الجرف. وقد بدت ملامح وجوههم علي نور الفجر فإذا هم: «توم لوكر» Tom walker، ورفيق له يُدعي «ماركس» Marx، وهما لصان شريران كان «هيللي» النخّاس قد

سَخَّرهم للقبض عليّ «هاري» وأُمَّه، وكان معهما دركيان اثنان، وعددٌ من المرتزقة الذين يتعاطون مهنة القتل.

- ولكنهم قد يَصُوبون علينا النار من وراء الصخور!

فقال «توم» بلهجةٍ ساخرةٍ:

- أنت تخاف عليّ جلدك يا ماركس! ليس ثمة أي خطر فالزواج أجبن الناس عليّ الإطلاق.

- أنت عليّ خطأ يا توم. ولا أعلم في سبيل ماذا أضحي بجلدي الذي هو خير ما أملك في هذه الحياة. أمّا الزواج فأنت تستهين ببسالتهم فهم يحاربون كالنور في بعض الأحيان.

وفي تلك اللَّحظة برز «جورج» وأظهر نفسه للقوم المُلاحقين من فوق صخرة تطل عليهم، وتحدّث بصوتٍ هادئٍ، قائلاً:

- أيها السّادة الواقفون هناك مَنْ أنتم؟ وماذا تريدون منا؟

فقال «توم»:

- نحن نتعقب جماعة من العبيد الأبقين الهارين، هم «جورج» هاريس، وإليزا زوجته، وولدهما، وجيم سلدين، وامرأة عجوز. ولقد اصطحبنا اثنين من رجال الدرك للقبض عليهم. وإنا لفاعلون من دون شك. هل سمعت؟ ألسنت أنت «جورج» هاريس الذي يملكه السيّد هاريس من أبناء كانتاكي؟

- أجل أنا هو «جورج» هاريس، وقد كان هناك رجل يُسمي هاريس من أبناء كانتاكي يعتبرني ملكه، أمّا اليوم فأنا إنسان حُرٌّ وأقف عليّ أرض حُرّة. وأعتبر أن زوجتي وولدي هما لي وحدي من دون الناس جميعًا. أمّا جيم



وأُمَّه فهما معنا هنا. واعلموا أن لدينا سلاحًا نستطيع أن نُدافع به عن أنفسنا إذا ما هاجمتونا. وإنَّنا لفاعلون ذلك. تقدّموا وكُلِّ مَنْ تسول له نفسه أن يصبح علي مرمي من مُسدساتنا سيقع قتيلاً، ثمَّ يتبعه الثاني والثالث إلي أن نقضي عليكم جميعًا.

فقال أحد الدركيين المُلاحقين:

- دك من هذه الترهات الباطلة، وانزلوا إلينا فنحن نمثل العدالة والقانون في جانبنا وكذلك القوّة. ومن الخير لكم أن ترموا أسلحتكم وتستسلموا لنا.

فقال «جورج»:

- إني لا أجهل أن القانون يخدمكم، وأنَّكم تمثلون القوّة الحاكمة. ولكنكم مع هذا أشرار تريدون أن تأخذوا زوجتي لتبيعوها في سوق النخاسة سلعة رخيصة في نيو أورليانز؟ كما تريدون أن تعذبوا ولدي الوحيد. وتودون أن تُسلّموا والدة جيم العجوز إلي ذلك الوحش الذي أشبعها ضربًا بالسَّوط. أنتم تمثلون القانون وتريدون مع هذا أن تسوقوا جيم وتسوقوني إلي حيث نُجلد ونُهان ويسحقنا أولئك البيّض الذين تسمونهم أسياّدًا. تفعلون كُلُّ هذا تحت ظلّ القوانين والشرائع، وهذا ما يجب أن يحملكم علي الخجل من أنفسكم ومن قوانينكم. اذهبوا عنا فإنَّكم لن تُوفّقوا إلي اقتناصنا فنحن لا ندين بشرائعكم ولا نملك أرضكم فنحن هنا نقف بوصفنا مخلوقات حُرّة علي أرض الله وتحت سمائه، كما تقفون أنتم. وبعون من الرّبِّ العظيم الذي خلقنا سنقاتل من أجل حريتنا إلي أن نتصر أو نموت. وجمد المهاجمون في أماكنهم ولم يبدووا جوابًا. لقد كان في كلام «جورج» الذي أعلن فيه استقلاله، وفي جرأته وتصميمه ما أذلهم وأدهشهم.

وكان «ماركس» هو وحده الذي لم يُحرّكه كلام «جورج». وفي غمرة من الصمت الذي ران علي رفاقه، استل «ماركس» مُسدسه وأطلق النار علي «جورج».

ولكن «جورج» تراجع إلي الورا فأخطأته الطلقة وظنت «إليزا» أن زوجها قد أُصيب فصرخت صوتاً مدوياً، والحقيقة أن الرصاصة مست شعر «جورج» وكادت تلمس خد زوجته قبل أن تُصيب جزع شجرة قريبة منهما.

وهمّ الملاحقون باقتحام الصخور المرتفعة قاصدين القضاء علي العبيد ومن يرافقهم، فاستعد «جورج» للقتال وقرّر أن يُطلق النار علي أوّل من يحاول اجتياز الممر الضيق الذي لا مفر من اجتيازه. ولمّا اقتحم «توم لوكر» الصخور ودخل المضيق الصخري، أطلق «جورج» النار فأصابه في جبينه فخر علي الأرض يصطبغ بدمائه. أمّا رفاقه فما إن رأوا «توم» قد سقط علي الأرض حتي لاذوا بالفرار.

وبعد مضي دقائق قليلة علي هذا، عاد «مايكل» بالعربة ومعه «ستيفن»، و«آماريا». وقد أسرع «فينياس» بعد ذلك فضمّد جراح «توم»، ثمّ حمّله إلي العربة ونقلوه إلي إحدى المزارع حيث اعتنوا به حتي التأمّت جراحه وتمائل للشفاء.

وأخيراً توصل العبيد الآبقون إلي دخول الحدود الكندية، فتنشقوا نسيم الحرية، وطابوا عيشاً، ولو إلي حين.



## حكاية الزنجية التعسة

### The story of the Negro unhappy

وجدت «أوفيليا» البيت الذي عُهد إليها أمر إدارته غارقاً في الفوضى والإهمال والتبذير، ولقد اجتهدت لإصلاح ما أفسدته الأيام، ولكنها لم تُوفِّق إلا قليلاً. وكان فشلها يرجع بالدرجة الأولى إلي فوضوية كبيرة الطاهيات العجوز «دينا» Dinah وعدم قبولها النصائح والإشارات. ولكنها لم تقف إزاء هذا كله مكتوفة اليدين، بل صارحت «سانت كلير» بهذا الوضع الشاذ، قائلةً:

- ليس ثمة أمل في أن ينعم هذا البيت يوماً بشيء اسمه النظام!

فقال «سانت كلير» مؤيداً:

- أنا واثق من أن هذا اليوم لن يأتي.

- كلُّ هذا البذخ والإسراف في النفقات، والفوضى في الأعمال، والاختلاط في المسؤوليات لم أر مثله في حياتي أبداً!

- أستطيع أن أقول لك إنك لم تشهدي مثله فعلاً. أصارحك يا أوفيليا بأننا نحن جماعة الأسياد فنتان: فئة منا تكون طاغية وقاسية، وفئة أخرى تكون مضطهدة ومظلومة. وهؤلاء الذين أنتمي إليهم هم أصحاب النوايا الطيبة والنفوس النبيلة الذين يمتنون العنف والقسوة. ونحن خليق وجدير بنا أن نعتاد تحمُّل كثير من المتاعب والمكاراة، ما دمنا مُصْرِّين علي الاحتفاظ بأراضينا ومراكزنا وبيوتنا، مستعينين بهؤلاء الخدم الجهلة. ولستُ أعرف

غير قلة من الأسياد وُقِّفوا ببراءةٍ خاصَّةٍ إليَّ أن تحقِّقَ لهم الانضباط والنظام من دون أن يلجأوا إليَّ القسوة والعنف. ولكني لسْتُ واحدًا من هؤلاء.. ومن هنا عقدت النية، منذ عهد طويل، علي أن أترك الأمور تجري علي هواها. ولكن هذه الأمور الفوضوية التي تقتل معها كُلُّ معني للزمان والمكان.. إنَّها شيء لا قبل لي باحتماله. ولا يخفي أنَّكم أنتم الشماليين تعطون الوقت أهمية بالغة، وتخلعون عليه حُللاً زاهية.. ولكن قولِي لي بربك ما فائدة الوقت بالنسبة إلي إنسان لا يعرف كيف يمضي وقته، وأين يُبدِّده، فهو حائر أبداً فيما يصنع. وعندما لا يفعل الإنسان لتمضية وقته سوي الانبطاح علي الأريكة فهذا يُعتبر أمراً خطيراً. من أجل ذلك أسألك أن تُخفِّي من غلوائك وحِدَّتكَ وتتركي دينا علي سجيَّتها.

- هل تعرف كيف وجدت أدوات المطبخ؟ وكم تعذبت في تنسيقها؟

- أنا لا أجهل أنَّها تضع التوابل تحت وسادتها، وأنَّها تخفي مبشرة جوز الطيب في كيس التبغ الذي تدخن منه في جيبتها. ولا أجهل أنَّها تستخدم أكثر من خمسين وعاء للسكر من مختلف الأحجام والألوان، وأنَّها تغسل الأطباق بمناديل السفرة أو بقطعة من فستان قديم. ولكن المهم في هذه المرأة أنَّها تُعدُّ طعاماً فاخراً. وتصنع قهوة سائغة طيبة المذاق. ولهذا ينبغي لك أن تحكمي علي أعمالها من خلال نتائج ما تُحقِّقه.

- ولكن ما قولك بالتبذير والإنفاق من غير حساب؟

- أوه، حسناً، أغلقتي في وجوههم جميع الأدرج والخزائن واحتفظي بالمفاتيح، ووزعي عليهم ما يحتاجون إليه بمقادير صغيرة مُقنَّنة.

- إنَّ هذه الطريقة لا تروق لي ولا تعجبني يا سانت كلير. واني لا أستطيع أن أتصوَّر أن هؤلاء العبيد الأرقاء سارقون وغير أمناء. تري هل أنت واثق من أننا لا نستطيع الاعتماد عليهم في مثل هذه الأمور؟

- إنَّ كُلَّ شيءٍ ممكن أن يقع. وهل يكون أمثالهم أمناء؟ بل لماذا عليهم أن يكونوا أمناء، وهم أرقاء عبيد؟

- ولكن أليس بينهم نفر أو جماعة يتحلون بالأمانة؟

- طبعاً، إنَّكَ تجددين بينهم عبداً تنعم عليه الطبيعة بقسطٍ كافٍ من الصدق والإخلاص والأمانة من دون أن تقوي المغريات علي إفساده. والمشكلة أن الملوّن يحسّ ويرى منذ طفولته أن الأساليب السرية هي وحدها التي يُمكنه استخدامها للوصول إلي أهدافه. وهكذا يسلك مع والديه ثمّ أسباده. ولهذا ينشأ علي المكر والخداع، ويراهما وسيلتين للنجاح في هذه الحياة. وليس من العدل أن تتظري منه شيئاً غير هذا. الواقع إنني شخصياً لا أفهم كيف يستطيع الأرقاء أن يكونوا أمناء. أمّا صاحبنا «توم» فليس من شكّ في أنّه معجزة في حُسن أخلاقه وسيرته.

كانت الأنسة «أوفيليا» في المطبخ، أصيل ذلك اليوم، عندما صاح بعض الأطفال السود:

- ها قد أتت برو Prue

وما إنّ أتمّ الصبية كلامهم حتي دخلت المطبخ امرأة زنجية مديدة القوام معروقة العظام، وعلي رأسها سلة فيها أصناف من الكعك والحلوى.

- عجباً منك! فأنتِ تعاقرين الخمر طوال الوقت ثمّ تشتكين وتتأفنين؟

قالت لها هذا الكلام فتاة عبدة أنيقة، في حين كانت تعبث بقرطها المرجاني الزجاجي.

فقالت «برو»:

- ليتني مت!

فسألته الآنسة «أوفيليا» عن سبب تمنيتها الموت، فأجابت:

لكي أتخلص من الشقاء!

ثمّ التفتت «برو» إلي الفتاة التي انتقدت شربها الخمر، وقالت:

- قد تنتهين أيتها الصغيرة إلي ما انتهيت إليه أنا في يوم من الأيام. وسأكون مسرورة أن أراك علي تلك الحال. وعندئذ ستتعطشين إلي قطرة من الخمر كما أتعطش أنا، تنسين بها همومك وأحزانك.

ثمّ قالت «دينا» بلطف:

- تعالي يا برو، لنري كعكتك، وهذه السيّدة ستدفع لك الثمن.

وتناولت «أوفيليا» بضع كعكات من السلة. ثمّ صاحت «دينا»:

- هناك تجددين في الإبريق القديم الموضوع علي الرف بضع بطاقات فأتني يا جين Gene ببعض منها.

فسألت «أوفيليا» باستغراب:

- بطاقات؟ وما الغرض منها؟

- إننا نشترى البطاقات من سيّدها. وهي تُقدّم لنا الخبز مقابلها.

فأضافت «برو»:

- إنهم يعدون عليّ الأموال والبطاقات عند عودتي إلي البيت، فإن وجدوا خطأ في الحساب ضربوني حتي الموت!

فقالت «جين» الوصيقة سليطة اللسان:

- وما ترجين منهم أن يفعلوا بك غير هذا بعد أن تأخذي أموالهم لتبتاعي بها الخمر؟ صدقيني يا سيدتي أوفيليا أن هذه المرأة تفعل ذلك بل أكثر منه لتحصل علي الشراب.



- وذلك ما أصرّ علي فعله. ذلك أني لا أطيق الحياة علي غير هذه الشاكلة،  
أريد أن أشرب لأنسي شقائي!

فغضبت «أوفيليا»، وصاحت في وجهها:

- تسرقين أموال سيّدك لتجعلني من نفسك بهيمة من البهائم.. إنك أثيمة  
مجنونة.

- قد أكون أثيمة ومجرمة ولصّة يا سيّدتي. ولكن لا حيلة لي في تفادي  
ذلك السير في الوحل. إني سأواصل يا إلهي طريقي. يا الله لماذا لا تُميتني  
وتريحني من شقائي؟

وفي بطءٍ وتناقل نهضت العبدة العجوز ووضعت السلة علي رأسها  
من جديد. وقبل أن تمضي في سبيلها تطلعت إلي الفتاة التي كانت تعبت  
بقرطها، وقالت:

- ما أخالك إلا فتاة مغرورة. فأنت تحسبين أنّك جميلة وأنيقة بهذا القرط  
المتدلي من أذنك. ولكني أرجو لك أن تعيشي طويلاً حتي يأتي ذلك اليوم  
الذي تصبحين فيه عجوزاً فقيرةً، دائمة الشكوى والتذمر من حياتها مثلي،  
وعندئذ ستضطرين إلي مُعاقرة الخمر فتشربين كما أشرب، ولعلك آنئذ  
تجدين أن الخمر هي تعزية البؤساء الوحيدة!

وكان «توم» في المطبخ حين جري ذلك الحديث. فأزعجه أن يري تلك  
الزنجية العجوز تخرج إلي الشارع وهي تطلق الآنة تلو الآنة، فلحق بها فرآها  
تقف علي عتبة أحد الأبواب لتُصلح من وضع شالها الباهت البالي الذي كان  
يُغطي كتفيها، فقال لها في رقةٍ وعذوبةٍ:

- سوف أحمل سلتك قليلاً يا اختاه.

- لا داعي لذلك فأنا في صحّة تامّة ولا أحتاج إلي المساعدة.

- يبدو أنّكِ مريضة أو مهمومة أو شيء مثل هذا؟  
- لستُ مريضة.

- حبذا لو أتمكّن من إقناعكِ بضرورة الإقلاع عن احتساء الخمر. ألا تعلمين يا أختاه أن المُسكر يجركِ إلي قتلِ صديكِ وروحكِ علي السواء؟

- أنا واثقة من أنّني سأسكن الجحيم بعد موتي، ولا حاجة لأن تخبرني بذلك. إنّني مُدمنة علي عادةٍ قبيحةٍ مُحرمةٍ مجرمةٍ تقودني تَوًّا إلي النارِ الملتهبة الأبدية. أه! يا ليت إلهي ينقلني هناك لأنجو من شقاء الأرض!

وارتعد «توم» لدي سماعه هذه الكلمات. وتوسل إلي المرأة ألا تستسلم لليأس، فقال لها برقة:

- ارحمي نفسك أيتها المخلوقة البائسة. ألم تسمعي قط بيسوع المسيح؟

- يسوع المسيح؟ مَنْ هو يسوع المسيح؟  
- ولكنه السيّد، يا امرأة!

- أحسب أنني سمعتهم يتحدّثون عن السيّد، وعن يوم الحساب وعذاب النار لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل. ولكن ما علاقة ذلك بي؟

- ألم يُحدّثكِ أحد عن يسوع المسيح الذي يُحنّنا نحن الخطاة، وعن أنّه مات من أجلنا ليطهرنا من الخطايا؟

- لا أعرف شيئاً عن هذا؟ ولم يُحدّثني بذلك أحد، كما إنني لم أسمع إنساناً حدّثني بحنوٍ بعد أن مات مُعلمي العجوز!

- وأين تربيت وترعرعتِ يا أختاه؟

- هناك بعيداً في كانتاكي. فقد استخدمني أحد النخّاسين لتربية أولاده الصّغار العبيد، حتى إذا كبروا قليلاً أسرع إلي بيعهم في سوق النخاسة.

وعندما كبرت باعني ذلك الملعون لأحد المُضاربين في سوق البورصة، وهذا باعني بدوره إلي سيّدي الحالي.

- وما الذي أوقعك في حالة الشراب القبيحة؟

- قادني إليها سوء حظي. فالخمر تُسليني فلا أفكر في همومي، وتبعد عني كُرْبِي وحزني ولو إلي حين. فقد كان لي ولد جميل جدًّا. وصادف أن مرضت سيّدتي فكان لزامًا أن أعنتني بها، فانتقلت الحمى إليّ بالعدوة. فجف اللبن في صدري ما أدّي إلي هُزل طفلي. وقد طلبت من سيّدتي أن تتابع له قليلًا من الحليب فلم تأبه أو تهتم لطلبي بل أجابتني أن باستطاعة الطفل أن يأكل من الأطعمة التي يأكلها باقي الناس. وكان طفلي يضمّر ويهزل من الجوع، وكان يصرخ ليلاً ونهارًا حتى ضاق صدر سيّدتي ببكائه فأخذت تمني نفسها ببيعه أو بموته. وقد منعنتني أن أعنتني به ليلاً لأنّها كانت تظن أن وجوده معي يبعد عن عينيّ النوم فلا أعود صالحة لخدمتها. وقد أجبرتني أخيرًا علي أن أنام في غرفتها، فأوجبت عليّ أن أضع طفلي وحيدًا في علبة صغيرة. فبكي تلك الليلة بكاءً متواصلًا شديدًا أدّي إلي موته. ومنذ ذلك الحين لجأت إلي الخمر. لكي لا أتذكّر الحادث. لقد تذرعت بالخمر وسأواصل احتساءها ما حييت. أنت تقول يا سيّدي إني صائرة إلي جهنم. وأقول لك.. بل أين أنا حيًّا الآن؟ إن لم يكن في الجحيم!

- أيتها النفس البائسة، ألم يُخبرك أحد قط كيف أحبّك يسوع السيّد ومات من أجلك؟ ألم يخبرك أحد قط بأنّه سوف يمّد يد العون. وبأنّك سوف تذهبين إليّ الجنة وتنعمين آخر الأمر بالرّاحة.

- لستُ أريد الذهاب إليّ الجنة، أليست هي المكان الذي سيذهب إليه أصحاب البشرة البيضاء؟ إنني لأفضل الجحيم علي أن أجمع بسّيدي أو سيّدتي في الجنة!

قالت العجوز هذا، وقذفت من صدرها آهة مُحرقّة، ثمّ حملت سلتها علي رأسها وراحت تتابع طريقها ببطءٍ وثناقلٍ.

وهنا استدار «توم» وقفل راجعًا إلي البيت. وفي الفناء الثقي «توم» بـ«إيفا» الصغيرة وقد زينت رأسها بإكليلٍ من الزنبق وشعت عيناها ببريق الفرح والابتهاج.

وصاحت «إيفا»، وهي تمسك بيد «توم» الحزين:

- آه يا توم. لقد وجدتك أخيرًا أني لسعيدةٌ بأن ألقاك. فقد قال والدي أنّه يأمل أن تقودني للنزهة في عربتي الصغيرة الجديدة التي تقودها الأحصنة الصغار. ولكن ما بالك يا «توم» مكفهر الوجه كئيبًا ماذا اعتراك؟

- لستُ أشعر بنشاطٍ، يا آنسة، ولكني سأخرج العربية من أجلك لنذهب في نزهةٍ.

- ولكن يجب أن تقول لي يا «توم» ما الذي يؤلمك؟ لقد رأيتك تتحدّث إلي برو العجوز، فهل تكون هي سبب كآبتك؟

وقصّ «توم» حكاية الزنجية التعسة، علي مسامع «إيفا» الطفلة بكلماتٍ مُعبّرةٍ تفيض عطفًا وتأثرًا، فغضبت «إيفا» لدي سماعها تلك القصّة المؤلمة. ولكنها لم تنتحب، ولم تبك، ولم ترسل صيحات العجب والدهشة كما يفعل الأطفال غيرها. بل صمتت وعلت وجنتها سحابة ثقيلة كئيبة من الحزن، ثمّ وضعت كلتا يديها علي صدرها وأخذت تتأوه بحرقةٍ.



## الرق والعبودية بين الرحمة والقسوة

### Slavery between compassion and cruelty



عندما تألمت «إيفا» من حكاية العمّ «توم» عن «برو»، قالت بعزم:

- لا حاجة تدعوك يا «توم» لإعداد العربة فلست راغبة في تلك النزهة.

- ولم لا يا آنسة إيفا؟

- إنّ هذه الأمور المقيّنة تُفتت كبدي يا توم. أنا لا أريد أن أذهب.

وانصرفت «إيفا» متجهة صوب المنزل.

وبعد بضعة أيام جاءت القصر امرأة أخرى، غير «برو» العجوز حاملة سلة الكعك علي رأسها. وكانت الأنسة «أوفيليا» في المطبخ. ولم تكذ «دينا» تري تلك الزنجية حتي صاحت:

- يا إلهي ماذا أصاب برو؟

فقالت المرأة بصوت يوقع الرّهبة في القلوب:

- إنّ برو لن تأتي بعد اليوم أبدًا!

فصاحت «دينا»:

- ولم لا؟ عساها لم تمت، أليس كذلك؟

فقالَت البائِعةُ الجديِدةُ وهى تنظرُ بطرفِ عينيها إلى «أوفيليا» :

- لسنا نعرف شيئاً عنها علي درجة الدقة. وكُلُّ ما نعرفه أن أسيادها سجنوها في السرداب المظلم.

وبعد أن أخذت «أوفيليا» حاجتها من الكعك، تبعت «دينا» المرأة إلى الباب ثمَّ سألتها:

- ما الذي أصاب برو؟

وبدت المرأة كأنَّها راغبة في الكلام، ولكنَّها تردَّدت في البوح. وأخيراً أجابت بصوتٍ منخفضٍ:

- حسنا يجب ألا تخبري أحد. لقد سكرت برو كعادتها من جديد، فاقْتادوها إلى السرداب، وهناك تركوها طول النهار. ولقد سمعتهم يقولون.. إنَّ الذباب قد غطي وجهها وإنَّها قد ماتت.

وصعقت «دينا» لهذا النبأ، ورفعت يديها إلى العُلا تستجير برَّبِّها، وفيما كانت تلتفت إلى الوراء، رأت إلى جانبها «إيفا» الصغيرة تقف دهشة، وقد اتسعت عيناها الكبيرتان الوادعتان من الخوف، وامتقع لون وجهها وغاصت آخر قطرة من قطرات الدَّم في وجنتيها وشفتيها.

فقالَت «دينا» :

- ليرحمنا الله! الآنسة إيفا تكاد تقع مغشيًا عليها. ما الذي جاء بها إلى هنا لتسمع مثل هذا الحديث المؤلم؟

فقالَت الطفلة بحزمٍ:

- لن أقع مغشياً عليّ يا دينا. وأيّ بأس في أن اسمع ذلك الحديث؟ إن سماعه لن يؤذيني بقدر ما أُوذيت برو المسكينة عندما ذهب ضحية قساوة البشر.

فصاحت «دينا» :

- ولكن هذه القصص لا تليق بالآنسات الجميلات.

وتنهدت «إيفا» للمرّة الثانية، وارتقت خطوات السُّلم بخطواتٍ وثيدةٍ كئيبةٍ.

وسألت «أوفيليا» الخادمة «دينا» بفضولٍ زائدٍ عمّا كانت تُحدثها البائعة عن «برو» العجوز السوداء، فروت لها بإسهابٍ وتفصيلٍ حادثها المؤلم، وزاد «توم» عليّ كلامها ما كان قد سمعه في صباح ذلك اليوم عن فم العجوز «برو» في زيارتها الأخيرة لذلك البيت. فصاحت «أوفيليا» :

- يا لها من حادثة كريهة وفضيحة وغريبة!

ودخلت الغرفة حيث كان «سانت كلير» مسترخياً يُطالع صحيفة وقصّت عليه النبأ.

فقال «سانت كلير» مُتابعًا النظر في صحيفته:

- لقد كنت أتوقّع مثل هذه الخاتمة للمسكينة برو.

- كنتُ تتوقّع ذلك! ولكن ألا تعتزم أن تعمل شيئاً ما؟ أليس عندك من تبعثه للتدخل وللحيلولة دون اقتراف المآسي؟

- ما بوسعي أن أفعل في مَنْ يُفْضَلُ أن يهلك ممتلكاته، وحرِّي بأولئك الناس أن يحرصوا علي ما يملكون، أمّا إذا كانوا يفضلون إتلاف أملاكهم بأيدهم فلا أدري ما الذي أستطيع أن أفعله في هذا السبيل؟ ويبدو يا ابنة عمي أنّ تلك الإنسانيّة البائسة كانت تسرق أسياها لتمكّن من ابتياع الشراب. ولهذا فليس ثمة أمل كبير في إثارة العطف عليها.

- ولكن هذا فظيع، يا أوغسطين Augustine، وليس من شكّ في أن ذلك سيعود عليك بسوء العاقبة ذات يوم.

- يبدو أنّك تجهلين أيّ لم أقترف أنا ذلك الجرم بل غيري، وثقي بأنني لو تيسر لي أن أتفاده لفعلت، ولكن ما شأنني إذا كان أولئك الأسياد الفُساء يسلكون هذه المسالك القذرة، إنَّهم يعتقدون أن لهم السلطة المطلقة علي أرقائهم. وليس في التدخّل ما يُبعدهم عن وحشيتهم. لذلك كان من الأفضل للرجل الشهم إزاء هذه المظالم أن يغض طرفه ويصم أذنيه ويترك الأمور تجري علي هواها.

- ولكن كيف تستطيع أن تغمض أجنانك وتوصد أذنيك إزاء هذه الوحشية؟

- ما عسايّ أن أفعل؟ في بلادنا طبقة من الناس مُحترقة ومُهانة، وطبقة في الوقت نفسه جاهلة وغبية وجدت مقاديرها من غير رادع إنساني في أيدي طبقة ثانية تولّف الأكثرية المطلقة في شعبنا، وهم بأغلبهم من فُساء القلوب الذين فقدوا الحصافة، والرأي السديد، والضمير الإنساني.. إني لا أستطيع أن أشتري كلّ بائس مسكين تقع عليه عيني! ولستُ بقادرٍ أن أخذ لنفسي



صفة الفارس المنقذ. وأظن أن كُلَّ ما بوسعي أن أفعله هو أن أتحاشي سلوك هذا المسلك الشائن المعيب الذي لا يليق بي.

وكانما لم تقنع «أوفيليا» بآراء «أوغسطين»، فقالت:

- الحق أقول لك، إني ما أزال في ذهولٍ من دفاعك عن مثل هذا النظام القدر؟

- وهل وافقت أنا علي ذلك النظام؟

- طبعاً! أنت تدافع عنه. إنَّ أهل الجنوب جميعاً يدافعون عنه. وأعتقد أنَّهم لهذا يقننون العبيد ويستعبدونهم.

- أليس من الظلم أن يقوم الإنسان بأعمالٍ يستنكرها ولا يعتقد أنَّها حق؟ ألم تفعلني في حياتكِ قط عملاً وأنتِ تعلمين علم اليقين أنه خطأ؟  
- إني حين أفعل ذلك أعتصم بحبل التوبة.

- وهذا ما أفعله أنا. إني أتوب عن هذا الإثم أبد الدهر؟ ألم يُصادف أن أقدمتِ يوماً علي اقتراحِ إثم بعد أن تُبِتِ عن مثله يا عزيزتي؟  
- حسناً! ولكن ذلك لم يحدث إلَّا في حالات ضعفي القصوى!

- حسناً، وإني أقع في مهالك الضعف القصوى!

- أمّا أنا فإنني أحاول دائماً أن أتغلب علي ضعفي، وأنجنّب الاستمرار في الخطيئة.

- وثقي يا عزيزتي بأني كنت أعتزم دوماً الإقلاع والامتناع عن اقتراح أي إثم طوال هذه السنين العشر. ولكني لا أحسُّ أنني وُفِّقت للخلاص من

الإثم حتي اليوم بسبب واحد. وإذا كنتِ تريدين أن تعرفي حقيقة اعتقادي في الرق، فإني لا أكتمكِ أن مَنْ يستفيد من هذا النظام هم المزارعون، ورجال الدين الذين يسعون لاسترضاء المزارعين، والسياسيون الذين يتخذونه وسيلة إلي الحكم. في استطاعة هؤلاء جميعًا أن يبدلوا اللغة والأخلاق إلي درجة تجعل الناس مندهشين من براعتهم، في استطاعتهم أن يسخروا من الطبيعة والكتاب المقدس لخدمة مصالحهم، ولكن لا هم ولا الناس يؤمنون بصحة ما يعتقدونه ويفعلونه. وإن نظام الاسترقاق إنّما هو إثم وخطيئة..

وهنا بدت علي «أوفيليا» أمارات الدهشة، وكأنّما أنس «سانت كلير» بدهشتها، فاسترسل في الحديث:

- والآن برّبكِ ما هي مسألة الرق هذه التي يكرها الله والناس؟ ومن أين أتت؟ قد نجد السبب في أنّ أخي الزنجي كواشي Quashie مثلاً، جاهل وغبي بينما أنا أفوقه ذكاء ومهارة، فأسلبه كلّ ما عنده ثمّ لا أُعطية إلّا بقدر ما يطيب لي. وأجبره أن يعمل، وأن يتحمّل قيظ الصيف وبرد الشتاء، وهكذا أحكم علي كواشي بأن يعمل ويربح لي المال لأنفقه علي أهوائي. وعليه أن ينفذ رغباتي لا رغبته، وإرادتي لا إرادته مادام علي قيد الحياة. بل أكثر من ذلك، أتدخل بينه وبين ربّه وأحرمه دخول الجنة إذا شئت، وأسمح لها بها إذا أردت. هذا في اعتقادي حقيقة الاسترقاق!

قال «سانت كلير» ذلك، وأخذ يزرع الغرفة جيئةً وذهابًا، وقد أوشك وجهه المليح أن يحترق بحرارة أحاسيسه و عواطفه المُتقددة والملتهبة. وأومضت عيناه الزرقاوان الواسعتان ببريقٍ عجيبٍ. وإذ لم تشاهده «أوفيليا» علي مثل هذا لانفعال من قبل، اعتصمت بالصمت.



وفجأة، اقترب «سانت كلير» من ابنة عمه، وقال:

- ومهما كان الأمر فإني أُصرِّح لكِ جازفًا أنني كُلِّمًا ففكرت في قوانيننا التي تُجيز لأيِّ إنسان أبيض، مهما كان وضيعًا، أن يُنصَّب نفسه طاغية ويتسلط بشكلٍ مُطلقٍ عليّ عدِدٍ من العبيد. أقول إنِّي كُلِّمًا ففكرت في قوانيننا هذه ألعن بلادي، وألعن الجنس البشري برمته!

- كفي يا أوغسطين، كفي! إنِّي واثقة من أنَّك قلت كُلَّ ما أنتظر منك أن تقول. وأقسم أنني ما سمعت حتي في الشمال إنسانًا يتفوه بمثل هذا الكلام ضدَّ القوانين الجائرة. ولكن السؤال هو.. فقاطعها «سانت كلير»، قائلاً:

- آه! حتَّمًا السؤال هو: كيف انغمست أنت في بؤرة الفساد اللعينة هذه واركتبت مثل ذلك الإثم العظيم؟ سأجيبك: إنِّي فعلت ذلك الإثم وراثيًا. فقد كان العبيد الذين تَرَيْنُهُم في بيتي عبيدًا لأبي ولأُمِّي. فأمسوا بحكم الإرث عبيدًا لي مع العدد الجديد من الأرقاء الذين ابتعتهم بمالي الخاصِّ لقد كان أبي كما تعرفينه، رجلًا مستقيمًا ذا إرادة حديدية، وقد أثر أن يرتحل ألي هذه الديار ويترك نيو إنجیلاند ليفرض سلطته علي الرِّجال والنساء وليجمع ثروته الطائلة علي أكتافهم وبمساعدتهم. في حين ظلَّ والدك في وطنه ليفرض سلطانه علي الصخور والحجارة، وينتزع ثروته من الطبيعة. وكانت أُمِّي امرأة تتجسَّد فيها قيم الكتاب المقدس تجسَّدًا كاملاً. وكنت أنا وأخي توأم. وإذا كان التوائم يتشابهون عادةً فقد كنا علي نقيض ذلك. فهو أسود العينين، فاحم الشعر، يمتاز عني بملامحه الرومانية القويَّة، وسمرة بشرته الجميلة. في حين أنني كما ترين، أزرق العينين، ذهبي الشعر، وملامحي إغريقية، وبشرتي بيضاء. وكان أخي متعال متكبر، قاسي القلب.

وكما تعلمين فقد كان أبي أرسقراطياً بفطرته فكان يحقر الزوج. وكان له ما يزيد علي خمسمئة زنجي يأترون بأمره. ومن المعروف عنه كان شديد القسوة علي خدامه وعبده، وكان رئيس العُمال عنده أبيض غليظ القلب، وكنت أنا وأمِّي نكرهه، ولكنه عرف كيف يستحوذ علي ثقة أبي فإذا هو سيّد الإقطاعية المُطلق.

لقد كنت حديث السن آنذاك، ولكنني كنت أو من بحقوق الإنسان، وأُحِبّ الناس علي اختلاف أجناسهم وأعراقهم وأحوالهم. وأذكر أنّ العبيد كانوا يفضون إليّ بشكواهم فأنقلها بدوري لأُمِّي فتعاون للتخفيف عنهم وإبعاد المظالم النازلة بهم. وعندما تفشل مساعي والدتي في حمل أبي علي أن ينتهج منهجاً جديداً أكثر إنسانية في مُعاملة الرقيق، كانت تكف عن محادثته بهذا الموضوع فتصرف وقتها كُلّه في تربية وليدها وفق عقائدها وعواطفها ومشاعرها.

كنت أرنو إلي أمِّي بإعجابٍ وهي تناجي النجوم ليلاً ثمّ تومي إلي النجوم في هدوء الليل قائلة لي: أعلم يا أوغسطين أن أخط الناس وأضعهم في أرضنا هذه سوف يصبحون أحياء عندما تتلاشي هذه الأكوان ويصيدها الفناء. إنَّهم سيبعثون أحياء ما دام الله ذو الجلال والإكرام.

وبعد موت أبي ورثنا ثروة طائلة فرأيت أنّه من الأفضل أن نستغلها متعاونين متضامنين. وبعد سنتين علي هذه التجربة اتضح لي، بما لا يتطرق إليه الشكّ، أن فض الشركة كان أفضل لكليتنا. فقد هالني أن أري في مزارعنا سبعمئة عبد يُشتررون ويُباعون ويُستغلون، ثمّ يُعاملون كالبهائم ويجلدون

بالسَّياط. ومن السخف والغباء أن نقول إن العبيد يرتاحون لهذه المعاملة القاسية!

- كنت أحسب أنكم جميعًا تقرون بهذه الأشياء وترون أنها عدل وحق وفقًا للكتاب المقدس؟

- إنَّ ذلك هُراء وادعاء، فنحن لم نرق بعد إلي هذه الدرجة من الكمال، وألفريد Alfred أخي الذي يسري دم الطغيان في عروقه لا يمكنه أن يستعين بهذه النظرية، فهو حين يُعامل خُدامه بقسوةٍ إنَّما يعتقد أنه يفعل ذلك علي أساس أنَّه الأرفع والأرقى، وعلي أساس تلك النظرية القديمة القائلة إنَّ الحق يكون دائمًا للأقوى مُعتقدًا في كثير الصفاقة والوقاحة، كما يُخيَّل إليَّ أن المُزارع الأمريكي، في استخدامه للعبيد، إنَّما يُقلِّد بذلك ما تفعله الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية. وأخي ألفريد يُدافع عن كلا النظامين المطبقين هنا وفي انجلترا..

وهنا صاحت «أوفيليا»، بدهشةٍ:

- وأيَّ عقل بشري هذا الذي يُتيح لنفسه أن يُشابه ما بين حال الأرقاء عندنا وبين العُمال في بريطانيا؟ يكفي أن العامل الإنجليزي لا يُباع ولا يُشترى في أسواق النخاسة. ولا فرق بينه وبين ربِّ العمل في الحقوق والواجبات العامَّة. ولكن لِمَ لم تُحرَّر عبيدك؟

- أنا لا أكره المحافظة علي بعضهم، وإنفاق المال عليهم. يُضاف إلي ذلك أنَّهم راضون بالبقاء هنا ولا يطيقون فراقنا..

وتوقف «سانت كلير» لحظة، وأخذ يزرع الغرفة جيئةً وذهابًا، ثمَّ قال:

- لقد كان يطوف في مخيلتي نوع من العقيدة بأني سأكون مُحرَّرًا ومُصلِحًا  
فأمحو عن وجه وطني لطحّة العار هذه..

- وما الذي حال بينك وبين تنفيذ ما عزمت عليه؟

- حسنًا! إنَّ الرياح لم تأتي بما كنت أشتهي وأرغب، فملكني اليأس!

- وما رأيك في قضية الاسترقاق عمومًا؟ وما المصير الذي ستؤول إليه؟

- لا يمكنني الإحاطة بما سيؤول إليه الرق، ولكن لا ريب في أنَّ الجماهير  
ستكتل ذات يوم وتتحمَّز في جميع بقاع الأرض. وقد بدأت تباشير هذه  
الثورات تظهر في أوروبا. وممَّا كان تُحدثني به والدتي أنَّه سيأتي زمن  
تسود فيه العدالة والإصلاح جميع أطراف الأرض، وذلك حيث تسود ديانة  
المحبَّة والسلام، فيتحرَّر جميع الناس ويصبحون سواء. وهكذا علمتني أن  
أصلي وأنا صغير، فأقول: مملكتك يارب آتية. ويُخيَّل إليَّ أحيانًا أنَّ جميع  
التنهَّدات والآلام والثورات التي تعصف علي رؤوس المعذبين علي الأرض  
ليست إلاَّ علامات ودلائل تُشير كُلُّها إلي اقتراب ساعة القيامة، فهل يا تري  
يطول بنا الأجل حتي نشهد ظهور ذلك اليوم؟

نظرت «أوفيليا» إلي ابن عمَّها بشوقٍ ولهفةٍ، وقالت:

- أوغسطين، يترائي لي في بعض الأحيان أنَّك لست بعيدًا عن تلك  
المملكة.

- أشكر لكِ حُسن ظنك.. علي أيَّة حال ها هو ذا الجرس يدعونا لتناول  
الشاي.

وعلي المائدة أشارت «ماري» إلي حديث «برو» العجوز، ووجهت الكلام إلي «أوفيليا»، وقالت:

- أخشي أن تعتقدي أننا كلنا قُساء برابرة!

- إني، ولو اعتقدتُ أنّ ذلك الحادث بربري، فلستُ أعتقد أنّكم قوم برابرة علي أيّ حال.

فقلت «ماري»:

- مهما تبدّلت الأحوال فأنا واثقة أنّه من العسير علينا أن نعيش مع بعض هذه المخلوقات، وأنّ نحسبهم مساوين لنا، فهم سيئون. حتي أنّهم لا يستحقون أن يحيوا. وأنا شخصياً لا أشعر بذرةٍ من العطف عليهم.

فقلت «إيفا» الصغيرة:

- ولكن تلك الإنسانية البائسة كانت شقية جداً، يا ماما، وهذا ما اضطرها إلي مُعاقرة الخمر.

- وهل يكون ذلك السبب عذراً مقبولاً لارتكاب ذلك الإثم؟ إنني يا بُنتي أتعرّض في أكثر الأوقات لظروفٍ تعسةٍ شقيةٍ، ومع ذلك لم أهرع للتخلّص من شقائي إلي الشراب. لا. لا تظني ذلك فهم يشربون الخمر لأنّهم فاسدون، وهناك فريقٌ منهم يصعب تهذيبه مهما عاقبناه بضروب القسوة. فلقد كان عند والدي علي ما أذكر عبد كسول كان يفر دوماً من عمله، فيذهب إلي المستنقعات ليسرق، ويرتكب أفضح الآثام وأرذلها. فكان رجال والدي يلاحقونه، وعندما يقبضون عليه كانوا ينهالون عليه ضرباً، ولكن من دون جدوى. وذات يوم، تحامل علي نفسه رغم ضعفه البالغ، وهرب ثمّ وُجد ميتاً

في المستنقع. والحقيقة أنه لم يكن لتصرفه سبب غير شذوذه. أمّا أبي فكان يُحسن معاملة أرقائه ويُعاملهم دومًا في رفقٍ ولينٍ نادرين.

فقال «سانت كلير» :

- لقد روّضت أنا، ذات مرّة، ما عجز عن ترويضه أقدّر الأسياد.

فصاحت «ماري»: أنت يا أوغسطين! كم يسرني أن أعرف عنك شيئًا من هذا القبيل قد قمت به من تلقاء نفسك!

- حسنًا! كان ذلك العبد ضخّم الجسم قويًا، وكانت فكرة الحرية مستحوذة عليه، كان يشبه أسدًا أفريقيًا بقوّته وجرأته، وكان يُسمّي شيبو Shibu وقد أذاق مالكيه الأمرين فتناقلته أيدي النخّاسين بيعًا وشراءً حتى أنتهي به السوق آخر الأمر إلي أن يكون عبدًا لأخي ألفريد الذي اشتراه خصيصًا ليبرهن أنّه قادر علي ترويضه، ولكن ما مضى علي وجوده عنده زمن غير طويل حتي قتل شيبو هذا مدير عمل الإقطاعية، وفرّ إلي المستنقعات يلوذ بها.

وصادف أن زرت أخي في مزرعته فوجدته حانقًا غاضبًا، ومغتاطًا علي ما فعله الزنجي الشرير، فطيبت خاطره، وقلت له: إنّها هفوتك. وأبدت استعدادي لمراهنته علي أنّه في مقدوري أن أروض ذلك العبد الشرس. فوافق. وخرجنا إلي المستنقعات للقبض عليه، وقد زدني بستة رجال أشدّاء ومعهم كلابهم وبنادقهم أملاً في أن أتمكّن من اصطياد هذا الشرس الضاري. وانطلقنا نبحث عنه، وكانت الكلاب دليلنا. وأخيرًا اهتدينا إلي مقره، ولكنه ما كاد يرانا حتي أطلق ساقيه للريح، فما استطعنا أن ندركه حالًا، غير أن حزمة كبيرة من قصب السكر اعترضت سبيله فتلكأ عن المسير، حتي

تمكّنت الكلاب أن تدركه فعارك الكلاب وانقض عليها كالأسد، وبسالةٍ مُدهشةٍ قتل ثلاثة كلاب بيديه العزلاوين. ولكن أصابته آنذاك إحدى رصاصاتنا فسقط علي الأرض يتخبّط في دمائه. وقد وقفت فوق رأسه فطلع إليّ المسكين بنظراتٍ قاسيةٍ ويائسةٍ في الوقت نفسه، فأخذني الشفقة عليه، وأبعدت عنه الرّجال و الكلاب الذين تهافتوا عليه يريدون الإجهاز عليه، وأعلنت أمامهم أن ذلك العبد أصبح أسيري منذ السّاعة. ولما عدنا إلي المدينة طلبت من ألفريد أن يبيعي إياه ففعل، وما هي إلّا مدة أسبوعين اثنين حتي ألقت الرّجل فصار مطاوعًا لأمري.

فقلت «ماري»:

- ماذا فعلت حتي وُقّفت لتطوّيعه؟

- حسنًا، لقد كانت العملية بسيطة، فقد حملته وهو جريح إلي غرفتي



سانت كلير يروض العبد شيبو

الخاصّة ونصبت له فراشًا وثبرًا فيها، وضمّدت جراحه وسهرت عليه بنفسي حتي التأم جرحه. وعندما عادت إليه صحّته أعتقته، وأعطيته الحرية في أن يذهب حيث يشاء.

فسألته «أوفيليا»:

- وهل ذهب بعيدا؟

- بالطبع لا، لقد بلغت به الأنفة أن رفض صكّ الإعتاق، وأبى أن يُفارقني.  
ومنذ ذلك الحين صار يلازمني كظلي وأشهد أنني لم أعرف طوال عُمرِي  
إنساناً أنبل قلب، وأنقى سريرة، وأكرم خُلُقاً منه، وقد اعتنق المسيحية بعد  
ذلك وغدا لطيف المعشر دمثاً كالأطفال. بيد أنني فقدته في موسم الكوليرا  
الأوّل وذلك لأنّه قدّم حياته فداءً لحياتي. فقد كنتُ مريضاً، بل أشرفت علي  
الهلاك، فأبتعد عني جميع الناس بسبب الخوف من الوباء، فيما لازمني  
شيبو وخدمني في مرضي أصدق خدمة، فعادت الحياة إلي جسدي الذاوي  
الذابل، ولكن المسكين وقع هو فريسة الكوليرا، وعبثاً حاولت إنقاذه وبذلت  
قصارى جهدي لأعيد إليه الحياة، فقد تغلّب عليه المرض، وراح المسكين  
ضحية تفانيه وإخلاصه لي.

كان «سانت كلير» يحكي تلك المأساة عندما تقدّمت منه «إيفا» قليلاً،  
وقد انفجرت شفتاها بالدهشة، واتسعت عيناها بشوقٍ عارم، واستغراقٍ  
مذهل. ولمّا انتهى من سرد الرواية هرعت إليه وطوّقت عنقه فجأةً بذراعيها  
وأجهشت بالبكاء والنحيب.

وصرخ «سانت كلير»، وقد رأى أن جسد فتاته يرتجف، ثمّ قال:

- إيفا عزيزتي الصغيرة ماذا دهاكِ؟

ثمّ أضاف:

- ينبغي علي هذه الفتاة أن تتبعد عن سماع مثل هذا الكلام، إنّها عصبيّة  
المزاج، رقيقة المشاعر.

فقال «إيفا»، وهي تضبط نفسها فجأةً:



- لا، لا يا بابا أنا لستُ عصبيّة، ولكن أفكار غريبة كثيرة تراودني. ولعلي أُحدثك عنها في يومٍ من الأيام.  
فقال «سانت كلير» مبتسمًا:

- حسنًا يا عزيزتي، فكري كما تشائين، ولكن لا تصرخي وتزعجي والدك. الآن أنظري أيّه خوخة طيبة المذاق جئتكِ بها.  
وأخذت «إيفا» الخوخة، وابتسمت ولكن آثار التشنُّج العصبي كانت ما تزال بادية حول زوايا فمها.



في غرفةٍ صغيرةٍ كائنةٍ فوق الإسطل، كان العمّ «توم» يعيش. كانت الغرفة جيدة علي وجه العموم، فيها فراش، وكرسي، ومنضدة خشبية وضع عليها الكتاب المقدس ومجموعة أناشيده الكنسية.

و «توم» راقه وأعجبه المكان، ولكن الحنين إلي الأهل والأولاد سيطر عليه وملك مشاعره كُلّها في ذلك اليوم.

فقد طلب من «إيفا» أن تعطيه قطعة ورق ليكتب إلي زوجته رسالة يُحدّثها فيها عن نفسه، ويسألها عن أحوالها. وقد اختلط الأمر عليه، فما عرف كيف يستهل رسالته. لقد نسي طريقة كتابة الرسائل التي علّمه إيّاها «جورج» ابن مولاه السابق، وهو لا يدري علي وجه التأكيد أي الأشكال بقي عالقًا في ذهنه يمكنه أن يستخدمه الآن.

وفيما كان منهمكًا في إعداد الرسالة، وأفكاره تعبة لا يدري ما يفعل، دخلت عليه «إيفا» فتنفس الصعداء، وكأنما هبط عليه ملاك من السماء. وقد صرخت إذ لمحت ما كتبه علي الورق:

- آه! أيها العمّ «توم» إنَّك تصور مناظر مضحكة حقًّا!

- لقد مضي عليّ زمن طويل وأنا أحاول أن أخط رسالة لامرأتي المسكينة والي أولادي الصغار. ولكنني أجد صعوبة بالغة واخشي ألا أنجح في ذلك!  
- ليت باستطاعتي أن أساعدك أيها العمّ توم، فقد تعلّمت الكتابة في السنة الماضية، وكان في مقدوري كتابة جميع الحروف الهجائية، ولكن لست واثقة الآن إذا كنت ما أزال أحسن كتابتها!

وما كان من «إيفا» إلا أن جلست بقرب «توم» ووضعت رأسها الجميل إلي جانب رأسه، وأخذتا يتعاونان في كتابة الرسالة بحماسة متكافئة وجهالة شبه متكافئة أيضًا. وقد اشتركا في كثير من التساؤلات والمشاورات وفحص الكلمات وصوغ الجمل، حتي أخذت لغة الرسالة تبدو كأنها شبيهة بالكتابة الصحيحة.

وتطلعت «إيفا» مليًا فيما كتبه، ثم صاحت بفرح:

- أجل! أجل أيها العمّ «توم» لقد أخذت السطور تظهر جميلة حقًّا. كم سيسعد أطفالك الصغار وزوجتك بقراءتها.. آه! إنه من العار أن تضطر لمغادرتهم والارتحال عنهم. ولكن لا تخف فقد قررت أن أطلب بابا بإعادتك إلي موطنك الأوّل في وقت قريب.

- لقد وعدتني سيّدتي السابقة بأن ترسل إليّ بعض المال عندما يتيسر لها ذلك. وإنّي أتوقّع منها مثل هذه التضحية. وقد وعدني مولاي «جورج»



الصغير بأنّه سيحضر لافتدائي. وقد منحني هذا الدولار دليلاً علي حُبّه وتمسكه بمساعدتي وسيفعل ذلك من دون شكّ.

قال «توم» هذا، وسحب الدولار الثمين من تحت ثيابه.

فقال «إيفا» :

- آه! لا شكّ في أنّه سيأتي، وأنا سعيدة بذلك.

- ولقد أردت أن أبعث إليهم برسالةٍ لأعلمهم بمكان وجودي ولأخبر زوجتي المسكينة أنّي بخيرٍ.

وفجأة دخل «سانت كلير». وإذ رأي الورقة تساءل عن حقيقة أمرها،

فقال «إيفا» :

- أوه! إنّها رسالة توم.. إني أساعده علي كتابتها، أليست جميلة؟

فقال «سانت كلير» :

- لا أريد أن أُقلل من قيمة مهارتكما في الكتابة، ولكني أعتقد يا «توم» أنّه من الأفضل أن أكتب لك الرسالة بخط يدي. ولسوف أقدم لك هذه المساعدة بعد عودتي من نزهتي التي أقوم بها الآن علي ظهر الجواد.

فقال «إيفا» :

- من الضروري جدّاً أن تُعجّل في ذلك لأنّ سيّدته سوف تبعث بالمال لافتدائه أسمعنت يا بابا؟ لقد أخبرني أنّهم قالوا له ذلك.

ولم يُظهر «سانت كلير» أيّ اهتمام بكلام ابنته، بل أصدر إليه الأمر بأن يُعد الخيل للنزهة. وبعد عودته منها، كتب «سانت كلير» الرسالة باسم «توم» وأودعها صندوق البريد.



فتاة جديدة داخل القصر

**New girl inside the palace**

ذات يوم فاتح «سانت كلير» الأنسة «أفيليا» بأنه قد ابتاع لها هدية عبارة عن فتاة هندية زنجية صغيرة عُمرها يتراوح ما بين الثامنة والتاسعة، ثم قدّمها لها بعد قليل. كانت الفتاة أكثر من أبناء جلدتها سوادًا، ولها عينان مستديرتان براقتان. وكان شعرها الشبيه بصوف الخرفان مضمفورا علي هيئة جدائل متنافرة هنا وهناك. أمّا وجهها فكان يعكس علامات المكر والذكاء.

وصاحت «أفيليا» :

- وما الذي دعاك يا أوغسطين إلى أن تُقدّم لي هذه الفتاة وثنية الملامح؟

- لقد جئتكِ بها كي تربيها وتثقيفها حسبما ترغبين.

ثمّ التفت إلى الفتاة، وقال:

- والآن يا «توبسي» Topsy هيا اسمعينا إحدى أغانيك المفضّلة وأتحفيها برقصةٍ من رقصاتك الرائعة.

وبرقت عينا الفتاة السوداء والشبهتان بالزجاج، واندفعت تغني أغنية اشتركت في أدائها رجالها ويدها جميعًا حتى إذا انتهت، وجّه إليها «سانت كلير» الخطاب قائلاً:

- «توبسي» هذه سيّدتك الجديدة، سأتركك الآن بين يديها، ولا تنسى أن تسلكي دائمًا سلوكًا ممتازًا.

- نعم يا سيّدي.

وهنا قالت «أوفيليا» لابن عمّها:

- اخبرني، برّبك ما الغاية من شراء هذه الفتاة، وبينك يغص بأمثال هذه المصائب الصغيرة!؟

فقال «سانت كلير» مُتحدّيًا:



ألم أقل لك إني أتيتُ بها لكي تُثففيها وتنشئها  
تنشئةً صالححةً؟ فأنتِ تتحدّثين دومًا عن أثر التربية  
والتثقيف في نفس الإنسان، لذا رأيت من واجبي  
أن أقدم لك نموذجًا على الفطرة عسالكِ توفّقين  
إلي إصلاحه ووضعه في قالبٍ مسيحيٍّ صحيح  
كما يفعلون في نيو أنجلاند.

- لا، لست أريدها، فعندي من هذه البضاعة  
ما لا أستطيع أن أتحمّله!

- وكيف لا يا ابنة العمّ؟ وأنتم المسيحيين في بقاع الأرض كلّها تؤلّفون  
الجمعيات، وتبعثون الإرساليات لإصلاح أمثال هذه الفتاة من الوثنيين.  
ولكن يا أوفيليا بوسعك أن تدليني علي مُصلحٍ مسيحيٍّ واحدٍ أو مُبشّرٍ مستعد  
أن يُدخل وثنيًا واحدًا إلي منزله ويتولي بنفسه أمر هدايته؟ إن هذا لا يحدث!

وَحَقَّقَتْ «أوفيليا» من غلوائها، وقالت:

- حسنًا، قد يكون في العناية بهذه الطفلة عمل تبشيري حقيقي.

وتطلعت إلي وجه «توبسي» بشيءٍ من العطف، ثمَّ حملتها لتكلف إحدى الخادِمات بتنظيفها، وإلباسها ثيابًا جديدة. ولمَّا رفض جميع الخدم والخادِمات القيام بتنظيف «توبسي» اضطرت «أوفيليا» إلي أن تقوم بهذا العبء بنفسها. مع أنَّها لم تكن مرتاحة لهذا العمل. ولكنها تحملته بصبرٍ.

ولمَّا رأت «أوفيليا» آثار السَّياط علي ظهر الفتاة وكتفها. وهي آثار لا تذوب، ولا تُمحي، ولا تزول، وتدل بوضوح علي فضاة ووحشية النظام الذي تعيش فيه هذه المسكينة. رق لها قلبها وأخذتها عاطفة من الشَّفقة. وسألتها «أوفيليا»:

- ما عُمرُك؟

- لستُ أدري يا سيِّدتي.

- ومنَ تكونُ أمُّك؟

- لم يكن لي أمٌ في يومٍ من الأيام.

- لم يكن لكِ أمٌ.. ماذا يعني ذلك؟ حسنًا، وأين ولدتِ؟

- أنا لم أولد في يومٍ من الأيام.

- إنَّك لا تجيبني أيتها الطفلة.. فأنا لا ألهو معك. أخبريني أين ولدتِ، ومنَ هما أبوكِ وأمُّك؟

فأجابت المخلوقة السوداء بصوت أشدَّ إصرارًا:

- إني لم أولد قط. ولم أعرف لي أبًا وأمًّا، لقد رباني أحد المضاربين في  
البورصة مع كثيرٍ غيري من العبيد، وكانت العمّة سو Su العجوز تعني بنا  
كُلنا.

- كم سنة عشتِ عند ذلك السيّد؟

- لستُ أدري يا سيّدي، ولمِ كلُّ هذه الأسئلة؟

- ألاّ تعرفين من الذي خلقكِ؟

وضحكت الطفلة ضحكةً مثيرةً، ثمّ قالت:

- لستُ أعلم أن أحدًا قد خلقني.

وهنا بد للآنسة «أوفيليا» أن تسألها عن  
أشياء أقرب إلي فهمها، فقالت:

- هل تعرفين كيف تخيطين؟

- لا، يا سيّدي.

- ولكن ما الذي تعرفينه؟ ماذا كنتِ

تصنعين عند سيّدكِ؟



سانت كليير يُقدّم «توبسي» إلي أوفيليا

- كنتُ أحمل الماء وأغسل الصحون وأمسح السكاكين.

- وهل كانا يحسنان مُعاملتكِ؟

- اعتقد أنّهما كانا طيبين معي.

وهنا حدجت «توبسي» الآنسة «أوفيليا» بعينها الماكرتين.



وهكذا انصرفت «أوفيليا» لتَهذيب «توبسي»، فعَلَّمتها، بادئ الأمر ترتيب  
الغرف، وتنسيق الأَسِرَّة، وفيما كانت تشرح لها في اليوم الأوَّل كيف تبسط  
الأغطية علي الفراش بذوقٍ وإحكام، غافلتها الفتاة «توبسي» واختطفت  
قفازين، وشريطة حريرية وخبأتهم جميعاً في وسطها.

- والآن يا «توبسي» حاولي أن تُعيدي عمل ذلك بنفسك.

وتقدَّمت «توبسي» بنشاطٍ للقيام بالتجربة. فنالت بوجهٍ عام رضا  
«أوفيليا»، ولكنها لم تكن تفرغ من عملها حتي تدلي طرف الشريطة الحريرية  
من أسفل ردفها ما أغاز «أوفيليا» فصاحت في وجهها بحدّة:

- ما هذا؟ لقد سرقتِ الشريطة الحريرية أيتها الطفلة الشريرة!

وسحبت «أوفيليا» الشريطة من غير أن يعتري الجارية الصغيرة أيُّ قلق  
أو اضطراب. لقد اكتفت بأن نظرت إليها بعينين تموران بالدهشة والبراءة،  
وقالت:

- ولكن هذه شريطة الأنسة فيلي Philly أليس كذلك؟ ما الذي أتى بها

إلي ردفِي؟!

- «توبسي»، لا تكذبي. فلقد سرقتِ الشريطة!

- سيِّدتي أنا لم أسرقها. أنا لم أرها إلا في هذه الدقيقة.

- «توبسي»، كوني متأكدة أنني سأجلدك لو بقيتِ مُصرّة علي إدعائكِ

الكذب.

ولكن الطفلة أصرت علي الإنكار، فأمسكت «أوفيليا» بها وهزتها  
هزاً عنيفاً. وأخرجت هذه الهزة القفازين من الردف الآخر. وهنا صاحت  
«أوفيليا» :

- أنظري أيتها اللصة، وبعد هذا ما تزالين مُصرّة علي أنك لم تسرقني  
الشريطة؟

واعترفت «توبسي» بسرقة القفازين، ولكنها أنكرت أن تكون قد سرقت  
الشريطة الحريية.

فقالت «أوفيليا» :

- والآن إذا اعترفتِ بكلِّ شيءٍ فلم أعاقبك بالجلد هذه المرّة.

فما كان من «توبسي» أن اعترفت بكلِّ شيءٍ.

- حسنًا، أخبريني الآن هل سرقتِ شيئًا آخر من قبل؟ أنا لن أجلك لو  
اعترفتِ.

- نعم يا سيّدي لقد سرقت ذلك الطوق الأحمر الذي تضعه سيّديتي  
الصغيرة في عنقها.

- أيتها الطفلة الشريرة اذهبي واحضريه في الحال.

- لا أستطيع يا سيّدي فقد التهمته النيران.

- احترق! يا للقصّة العجيبة حقًا! اذهبي واجلبيه وإلا جلدتك بالسّوط.

وانتجبت «توبسي»، وأعلنت أنها لا تستطيع لأنّه احترق.

- ولكن لماذا حرقته؟



- لأنني شريرة. أنا لا أقوى علي مقاومة الشر!  
وفي تلك اللّحظة دخلت «إيفا» إلى الغرفة، وفي عنقها عقد مرجاني جميل.

فقالت الأنسة «أوفيليا» :

... ولكن أين عثرتِ علي عُقدكِ يا إيفا؟

- أين عثرت عليه؟ إني لم أنزعه من عنقي طوال النهار!

- وهل كنتِ تلبسينه يوم أمس؟

- نعم، نعم يا عمّتي، والمضحك أنّه ظلّ في عنقي طوال الليل.

وأصاب الأنسة «أوفيليا» ذهول صارخ. ثمّ قالت في يأسٍ:

- إني أعترف بعجزتي عن فهم هذه الطفلة!

ثمّ التفتت إليّ «توبسي»، وقالت لها:

- لم ادعيت أيتها الشقية أنّك سرقتِ العقد؟

فقالت «توبسي»، وهي تفرك عينها:

- لقد طلبتِ مني يا سيّديتي أن أعترف. فلم أجد ما أعترف به فقلت لكِ

إني سرقتِ العقد.

- ولكنني لم أكلّفك أن تعترفي بأمرٍ لم تفعلها، طبعًا فذلك كذبٌ مُحرم،

أرجو ألا تعتادي اقترافه.

عندئذ التفتت «إيفا» إليّ الطفلة السوداء، وقالت:

- صارحيني يا «توبسي» ما الذي يدفعك إلي ارتكاب السرقة؟ ثقي أنك ستجدين عندنا كلَّ عناية واهتمام، وإذا كنتِ تطمعين في أيِّ شيءٍ فإنني علي استعداد لأن أقدمه لكِ شريطة أن تقلعي عن السرقة.

وكانت تلك أوَّل كلمة عطف سمعتها «توبسي» المسكينة طوال عُمرها.



وخصّت «أوفيليا» السَّاعات الطويلة لتعليم «توبسي» القراءة والحياكة. أمَّا في القراءة فقد أبدت ذكاءً نادرًا، واستعدادًا غريبًا لتعلُّم الحروف، فما مضى إلَّا زمن يسير حتي أصبحت تُحسن القراءة. أمَّا في الخياطة فلم تَرُق «توبسي» إلي مثل هذا النجاح، ولعلَّ مردّ ذلك يعود إلي خفة حركتها، فكانت دائمة الحركة كالقطة، نشيطة كالقردة فلم تناسبها الخياطة ولذا فقد مقتتها، لأنَّها تُجمد من حركاتها وتكبت نشاطها.

وفي أيام الآحاد أخذت «أوفيليا» تعني بتعليم «توبسي» تعليم الدين المسيحي، فأظهرت الفتاة فطنةً مُدهشة، إذ كانت تحفظ ما تمليه عليها سيِّدتها بسرعةٍ بالغةٍ ما أهاب بالمُعَلِّمة إلي أن تُكثر من تلقين الفتاة تلك التعاليم.





أوفيليا تقوم بتعليم «توبسي»

وسألها «سانت كلير» ذات يوم:  
- أيه فائدة تتوقعين يا ابنة العم أن  
تجنينها هذه الطفلة من ذلك كله؟

- التعاليم المسيحية هي أفضل ما  
ينبغي أن يتعلموه الأطفال ليشبوا علي  
هدايتها. وهي تُقدِّم لهم أكبر فائدة في  
حياتهم كلها.

- سواء أفهموها أم لم يفهموها!؟

- إذا كان الأطفال يعجزون عن إدراك حقيقتها الآن فلسوف تنكشف لهم  
حقيقتها بعد أن يكبروا.

ومضت «أوفيليا» في جدالها حول التثقيف الديني، فاستطردت تقول:

- وهكذا تتعلَّم أن أبويا آدم وحواء قد أفسدا الولاية التي رسمها الله  
لحياتهما عندما تُركا علي إرادتهما الحرّة، فأُخرجنا من الفردوس مطرودين.

فبرقت عينا «توبسي»، وارتسمت علامة استفهام كبيرة علي مُحيّاها،  
فسألتها «أوفيليا»:

- أتريدين أن تقولني شيئاً يا توبسي؟

- من فضلكِ يا سيّدتني هل كانت تلك الولاية كانتاكي؟

- أيه ولاية يا توبسي؟

- إن الولاية التي خسرها أبوانا هي ما أعني . وإني كثيراً ما سمعت مولاي القديم يروي لنا كيف أننا انحدرنا في الأصل من ولاية كانتاكي .

فضحك «سانت كلير» حتي استلقي علي ظهره، ثمَّ قال:

- ينبغي أن نعطيها معني من المعاني وإلَّا تخيلت هي ذلك المعني . أَلَّا ترين أن نظرية الهجرة هي التي أوحى بها لتعتقد ذلك؟

فزجرت «أوفيليا» ابن عمَّها، وقالت:

- وهل تراني أُوَفَّق في تعليمها أصول الدين ما دمت تسخر من طريقتي . وتهزأ بي علي هذه الشاكلة؟

فوعدها «سانت كلير» بالتزام الصمت . وانصرف إلي جريدته يتصفحها .



من أجل افتداء العم توم

## In order to redeem Uncle Tom



في يوم قائل شديد الحرارة من أيام الصيف، والوقت عند الظهر، وقد فتحت أبواب قصر آل «شيلبي» استدارًا للنساء التي اختفت، وأصبح بودّ الجميع أن تلفحهم نسمة من الهواء العليل لتبعث فيهم المرح والبهجة. قالت السيّدة «شيلبي» لزوجها:

- النبأ المهم اليوم أن كلو قد تلقت رسالة من توم!

- صحيح! يبدو أن «توم» قد وجد صديقًا هناك. كيف حاله؟

- لقد بيع لأسرة طيبة علي ما يبدو. وهم يُعاملونه مُعاملةً حسنةً.

- آه! حسناً إني سعيد بذلك. سعيد جدًا. وأحسب أن «توم» سوف يعتاد

حياته الجديدة في الجنوب فيزهد في العودة إلينا.

- بل إنّه علي نقيض ذلك، فهو يسأل زوجته بلهفةً بالغّة.. متى تبعث إليه

بالمال الضروري لافتدائه.

- لستُ أدري ما أفعله بهذا الشأن! إنَّ أحوالي في تدهورٍ مستمرٍ!

- يترائي لي يا عزيزتي أنّ الوضع يتطلّب منا أن نفعل شيئًا لإصلاح

أحوالنا، فما قولك في أن نبيع جميع الخيول بل نبيع إحدى المزارع لنفي

ديوننا المتركمة؟

ولزمت السيِّدة «شيلبي» الصمت علي مَضَضٍ، فما كان يحزّ في نفسها هو أنّها لا تستطيع أن تفعل ما بوعدها لـ «توم»، و «كلو»، وأن تفندي «توم»، لذا استطرقت وقالت:

- ألا توافق معي أن في إمكاننا إيجاد وسيلةٍ ما نجتمع بواسطتها الفِدية؟ مسكينة العمّة «كلو». إنّ مصيرها كلّها مرهون بهذه النتيجة وهي أن يعود إليها توم.



العمّ "توم" ومحاولة اقتدائه

- إني آسف أن ينتهي بنا الأمر إلي هذه النتيجة. وأعتقد أنني تسرّعت في إسماعها ذلك الوعد. والذي أراه أنّه من الخير لنا ولها أن نُصارعها بهذا الواقع المؤلم لتعتاده، وتوم زوجها سيضطر إلي الزواج من امرأةٍ أُخري بعد سنة أو سنتين، كما أنّه من الخير لها أن تبحث عن رجلٍ غيره.

- لذلك لا بدّ من أن تُسرّع في تدبير الفِدية.

ماذا تقولين؟ إنّك تُثيرين ضحكي. صحيح أنّك أجمل امرأةٍ في كاتناكي، ولكنك مع هذا لا تستطيعين أن تُلِمّي بالشؤون المالية، إنّ النساء لا يمكنهن فهم مثل هذه الأمور علي الإطلاق.

- لقد صارحتك يا عزيزي بأني لا أستطيع أن أفي بوعدي لهذين البائسين. وإذا لم نتمكّن من جمع الفِدية بطريقةٍ ما من الطرق الممكنة، فإنني سأضطر

إلي تدرّيس الموسيقي لجمع المال اللازم لإنقاذ هذين الزوجين التعسّين  
و جمع شملهما.

- وتذلين نفسكِ إلي هذا الحدّ؟ ثقي من أني لا أوافقك علي شيءٍ من  
هذا، ما دُمت حيًّا.

- أذُلُّ نفسي؟ أليس في إخلالي بكلمة الشرف التي أعطيتها لتوم إذلالٌ  
لنفسي وروحي أكثر من إذلال تدرّيس الموسيقي؟

وهنا توقف الزوجان من الحديث إذ ظهرت لهما «كلو» في آخر الشرفة.  
- حسنًا يا كلو، ماذا تريدان؟

قالت السيّدة «شيلبي» ذلك، ونهضت من مكانها قاصدة «كلو».

- أريد أن أسرّ إليك أمرًا يا سيّديتي.

- قولي ما عندك أيتها العمّة «كلو».

- أرجوكِ يا سيّديتي ألا تتعبي، أو يتعب مولاي من أجل جمع الفديّة  
فبوسعكما أن تتجنبا ذلك، إذا ما لجأتما إلي رهن ما بأيديكما.

وتضاحكت «كلو» تضاحك من يشكّ في وقع فكرته في نفس محدثه.

وقد خشيت السيّدة «شيلبي» استنادًا إلي ما تعرفه عن طباع «كلو» أن تكون  
العجوز قد سمعت كلّ كلمه من الحديث الذي دار بينها وبين زوجها، فقالت:

- أنا لا أفهم ما تقصدين يا كلو؟

وتضاحكت «كلو» مرّة ثانية، ثمّ قالت:

- ولمَ لا؟ فالأسياد الآخرون يؤجرون عبيدهم ليجمعوا لهم المال الذي يصرفونه.

- حسنًا يا كلو، فهل تقترحين علينا أن نؤجرك لأحدٍ من الناس؟



كلو والسيدة شيلبي

- ليس ما أبعده اقتراحًا. وكُلَّ ما في الأمر أن سام Sam أخبرني بأن في مدينة لويسفيل بائعًا للحلوى يحتاج إلي امرأةٍ تحسن صنع الكعك والفطائر مقابل أن يدفع كل أسبوع أربعة دولارات.

- حسنا يا كلو و ماذا بعد ذلك؟

- إن ما أرمي إليه يا سيّدي هو أنّه قد آن الأوان لتسليم سالي Sally مهام أعمال المنزل، وأعتقد أنّها تستطيع أن تنهض بإدارته مثلي تمامًا وأفضل. وهكذا أتمكّن من الذهاب للعمل عند تاجر الحلويات. وبهذا أساعدك لجمع الفدية المطلوبة.

- ولكن هل تريدان أن تفارقي أولادك يا كلو؟

- سيّدي لقد كبر أولادي وفي استطاعتهم أن يخدموا أنفسهم، ولسوف تعني سالي بالطفلة الصغيرة فهي فتاة طيبة.

- ولكن لويسفيل بعيدة جدًا من هنا!

- و أيّ بأس عليّ في ذلك، لعلّي اقترب من زوجي العجوز البعيد!

- لا يا كلو ستكونين بعيدة عنه أكثر من مئة ميل.

فعجزت «كلو» عن الجواب. فقالت مولاتها:

- لا بأس! فبأماكنك الذهاب إلي لويسفيل حيث تكونين هناك قريبة منه علي أية حال. ولسوف أدخر لك كل فلس تحصلين عليه من أجرك لافتداء زوجك.

وكما تُحِيل أشعة الشمس السَّاطعة سحابة سوداء إلي لون الفضة، كذلك أشرق وجه «كلو» الداكن وأضاء، ثمَّ قالت:

- أشكرك يا سيِّدتي، فأنتِ بالغة العطف. كنتُ أفكِّر في هذا منذ زمن طويل، واعلمي أنني لن أحتاج إلي ثيابٍ أو أحذيةٍ أو أي شيءٍ آخر. ولذا سأدخر كلَّ فلس من هذه الدولارات الأربعة. برِّتِك يا مولاتي أخبريني كم أسبوعًا في السنة؟

- في السنة اثنان وخمسون أسبوعًا يا «كلو».

- فإذا تقاضيت أربعة دولارات أسبوعيًا فكم أجمع في العام؟

- تجمعين آنئذ مئتين وثمانية دولارات في السنة.

وبدت علي مُحيتًا «كلو» أمارات الدهشة و الغبطة معًا.

- وفي كم من السنين أستطيع أن أجمع قيمة الفِدية يا سيِّدتي؟

- في أربع أو خمس سنين.. ولكنك لن تضطرنني إلي العمل طوال هذه المدة، فلسوف أساعدك في دفع جزء من الفِدية يا أختاه.

- إني لا أوافق أن تعطي سيّدتي دروسًا في الموسيقى، أو أن تفعلني شيئًا من هذا القبيل لمساعدتنا. إنَّ مولاي علي حقٌّ من دون شكّ.

- لا بأس علي يا «كلو». ولكن قل لي متى تنوين أن تذهبي؟

- حسنًا، إنَّ سام مسافر إلي النهر مع بعض الفتيان وإنَّ في استطاعتي أن أرافقه. فإذا ما وافقت سيّدتي، فإني مستعدة أن أصحبه صباح الغد.

وفيما كانت «كلو» في كوخها منهمكة في تصنيف ثياب طفلها، دخل «جورج» عليها فبادرته بقولها:

- لعلك تجهل أنني ذاهبة غدًا إلي لويسفيل. إني ذاهبة إليها لأربح أربعة دولارات كل أسبوع. ستجمع لي مولاتي هذه الأجور لافتداء زوجي توم.

- ولكن مع مَنْ أنتِ ذاهبة؟

- مع سام. والآن أيها السيّد أرجو ألا أزعجك إذا ما طلبت أن تكتب رسالة إلي «توم» تخبره فيها بكلّ ما ذكرته لك.

- من دون شكّ. إنَّ العمّ «توم» سيكون سعيدًا جدًّا بأن يتلقني رسالة منك. سأذهب تويًا إلي المنزل لأجلب الورق والحبر، وبعد ذلك افرغ لكتابة الرسالة.

- طبعًا، طبعًا أيها السيّد الصغير اذهب أنت إلي المنزل، وسأوافيك بقليل من لحم الدجاج، أو بما تسدّ به رمقك. فأنت لن تتناول عشاءك بعد اليوم مع عمّتك المسكينة «كلو».



بحرا من زجاج يمتزج بالنار

**A sea of glass mixed with fire**



كما تمرُّ بنا الحياة لاهية باعثة يوماً فيوماً، وشهراً فشهرًا، كذلك مرَّت علي «توم» سنتان كاملتان وهو علي حاله الجديدة.

وعلي الرغم من أن الدهر فرَّق بينه وبين من يُحبُّ وما كان لديه غاليًا وعزيزًا، وعلي الرغم من أنه كان كثيرًا ما يعد نفسه بجمع الشمل وانقشاع تلك الغيوم السوداء من سماء حياته، ولكنه بقي محافظًا علي روحه المعنوية العالية، ومبادئه القوية طوال تلك المدة.

ولعلَّ الرسالة التي كتبها إليه «جورج» ابن مولاه القديم بالنيابة عن زوجته هي أفضل ما قوي معنوياته، خاصَّة وأنَّه علم بعزم زوجته «كلو» علي العمل عند بائعي الحلوى في لويسفيل لافتدائه، وأنَّ ولديه «مُوز»، و«بيت» ناجحان في أعمالهما، وأنَّ الطفلة الصغيرة تلاقي عناية فائقة من «سالي» وأفراد الأسرة جميعهم. وفهم «توم» من الرسالة أن كوخه الغالي قد أوصد وأغلق مؤقتًا، وأنَّ «جورج» ينوي تجديد أثاثه بعد أن يعود «توم» إليه في وقتٍ قريبٍ.

وفي تلك الأثناء انتقل «سانت كلير» إلي داره الواقعة علي ضفاف بحيرة «بونتشارترين» Pontchartrain وبصحبه جميع أفراد الأسرة والخدم.

وذلك بسبب قيظ الصيف الذي اضطر جميع مَنْ يستطيعون مغادرة المدينة ضيقة الأنفاس غير الصحيّة إلي طلب الرّاحة والهدوء والنسيم العليل عند شواطئ البحيرة.

وكان منزل «سانت كلير» هناك أشبه بفندقٍ صغيرٍ علي النمط المألوف في جزر الهند الشرقية، مُحاطاً بشرف من الخيزران، ومطلّاً من جهاته الأربع علي حدائق وملاعب جميلة واسعة. وكانت غرفة الجلوس العامّة تطل علي حديقةٍ كبيرةٍ تفوح أزهارها ونباتاتها بأطيب عبير..

وها هي الشمس تشرف علي الغروب فتضرم في الأفق شعلة ذهبية لا نهاية لها، وتُحيل الماء إلي سماءٍ جديدةٍ. وها هي البحيرة مُلوّنة ومُخطّطة



الجوانب بألوانٍ ورديةٍ حيناً، وذهبيةٍ حيناً آخر، كما يبدو للناظر المراكب السوداء التي تتهاوي علي سطح البحيرة هنا وهناك. والنجوم المتلألئة الصغيرة التي تتوهّج في قبة السماء كما تتراءى للعين مرتجفةً واجفةً في أعماق الماء.

#### توم وايضا في الحديقة

وكان «توم»، و «إيفا» في تلك الأثناء جالسين في ظل إحدى عرائش العنب في آخر الحديقة في أمسيةٍ من أمسيات الأحد. وكانت «إيفا» تمسك بيدها الكتاب المقدس، فأخذت تقرأ فيه هذه العبارة: ورأيت بحرًا من زجاج يمتزج بالنار. وفجأةً كفت من القراءة وأومأت بأصبعها إلي البحيرة قائلةً:

- توم، إنّه هناك..

- وما ذاك يا آنسة إيفا؟

فقالت الطفلة، مُشيرة إلى المياه شبه الزجاجية التي كانت تعكس في ارتفاعها وانخفاضها وهج السماء الذهبي:

- ألا تري؟ هناك.. إنَّ ثمة بحرًا من زجاجٍ يمتزج بالنار!

- صدقتِ يا آنسة إيفا.

وراح العمّ «توم» ينشد:

- لو كان لي أجنحة الصباح

إِذَا لَطَرْتُ إِلَي سِوَا حِلِّ كِنَعَانِ

إِنَّ الْمَلَائِكَةَ الطَّاهِرَةَ قَادِرَةٌ أَنْ تَحْمِلَنِي

إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ الْجَدِيدِ.

وتساءلت «إيفا»:

- أين تقع هذه البلاد يا توم؟

- أوه! هناك في وسط السحب.

- إِذَا أَعْتَقَدُ أَنِّي أَرَاهَا.. أَنْظِرْ إِلَي هَذِهِ السَّحْبِ. إِنَّهَا تَبْدُو أَشْبَهَ أَبْوَابِ

ضَخْمَةٍ مِنْ لَوْلُؤٍ. ثُمَّ أَنْظِرْ إِلَي مَا وَرَاءَهَا.. بَعِيدًا، بَعِيدًا، إِنَّهُ ذَهَبٌ كُلُّهُ. توم!

رتل ترنيمة الأرواح المشرقة.

وأنشد «توم» الترنيمة، التي مطلعها:

- إني أري طعمة الملائكة تنعم بالمجد هناك.

- لقد رأيتها أيها العمّ توم.

لم يشك «توم» في كلام الفتاة، ولم يُدهشه قولها ذلك أبداً، حتي لو أنّها أخبرته أنّها رأته رأت الجنة، أو أنّها تعيش في وسطها، كما رأي في كلامها الصدق المحض الخالص.

- إنّها تزورني أحياناً وأنا نائمة.. هذه الملائكة!

قالت «إيفا» ذلك، وهمست بصوتٍ منخفضٍ:

- إني أري طيف الملائكة.

ثمّ استطردت:

- يا عمّ «توم» إني ذاهبة إلي هناك.

- إلي أين يا آنسة إيفا؟

ونفضت الفتاة، وأومأت بيدها الصغيرة إلي السماء.

وكان وهج السماء يخلع علي شعرها الذهبي وخطها المتورد لوناً من الإشعاع السماوي، وكانت عيناها عالقتين بالأعالي، وقالت:

- إني ذاهبة إلي هناك.. إلي الأرواح، إلي الملائكة الطاهرة. توم. إني ذاهبة بعد فترة غير طويلة من الزمان.

عند كلام «إيفا»، أحس «توم» كأنّ طعنة نجلاء أصابت صميم قلبه، فشرد ذهنه وتذكّر مُعاملة تلك الطفلة له خلال الأشهر الستة الأخيرة، وبداله بوضوح أن يديّ «إيفا» الصغيرتين أخذتان في الضمور والهزال، وأنّ أنفاسها بدأت تُتفاصر، فهي إذا عدت مسافة يسيرة في الحديقة يُقعدها الجهد والتعب. وقد كانت من قبل تقفز وتب الساعات الطويلة من دون أن تشعر بتعب. إنّهُ يتذكّر أقوال الأنسة «أوفيليا» عن سعال تعجز جميع الأدوية عن شفائه. إنّ كلّ هذا يؤلمه ويُدمي فؤاده.



وفي تلك اللحظة لم يستطع «توم» أن يفهم مغزى كلام «إيفا» إذ تحدّثت عن السماء، والأرواح العلوية لأنّه كان يلحظ تورّد خديها فيظنه صحّة في حين أنّه تورّد خدين المُصابين بداء السُّل الرثوي.

وقطع حديث الصديقين نداء متعاقب متتابع أرسلته «أوفيليا»، حين قالت:

- إنّ الندي يهبط علي الأرض فعليك ألا تبقي خارجًا يا إيفا.

فأسرعت «إيفا»، و «توم» إلي الدار تلبية لرغبة «أوفيليا».



كانت الأنسة «أوفيليا» تتقن فن التمريض، لذا لم يكن خافيًا عليها العلامات التي تُشير إلي وجود ذلك الداء الخبيث الهادئ، الذي يزهق الحياة رويدًا رويدًا من صدور الكثيرين ممّن يكونون من أطف الناس وأجملهم وأرقهم عودًا. فقد لاحظت سعال «إيفا» الجاف، وذلك الإشراق غير الطبيعي الذي يبدو علي خديها، فحدّثت «سانت كلير» عن مخاوفها علي «إيفا»، وأبدت قلقها علي صحّتها خوفًا من أن تكون مُصابة بداء السُّل، فكان «سانت كلير» ينتهرها بقوله:

- إني أمقت التشاؤم، فلا تكثري منه أرجوك، وإذا كنتِ تخشين علي صحّة إيفا فعليك أن تدركي أنّها تنمو نموًا سريعًا، والأطفال يفقدون ضخامتهم عندما يكبرون بسرعة.

- ولكنّها تُعاني ذلك السعال.

- آه هذا هراء. إنّ ذلك السعال ليس بشيءٍ مهم عندما تكون مُصابة بالزكام!

بهذا أجاب «سانت كلير» مُحدثته، ولكن الوسواس أخذت تلازمه علي صِحَّة فتاته منذ ذلك الحين. فصار يُراقب «إيفا» مراقبة تامة، ويتفحص حركاتها وسكناتها لحظة بلحظة. وأخذ يلازمها أكثر من ذي قبل، ويصطحبها معه في النزعات، ويوافيها من وقتٍ لآخرٍ بالوصفات الطبية وبالأدوية المقوية لا بحجة أن الفتاة تحتاج إليها، بل خوفاً من أن تحتاج إليها، وأنها تُفيد ولا تضر.

وما كان يبعث الألم في نفسه ويحزّ قلبه هو نضوج ابنته المطرد وخاصةً في عقلية الفتاة ومشاعرها. إذ أنّها كثيراً ما كانت تتفوّه عن غير قصد منها بعباراتٍ قوية المغزى، أو تنطق بحكم رقيقة تفوق مداركها وكأنّها موحاة إليها.

وكان «سانت كلير» يحس أحياناً برعشاتٍ مفاجئةٍ تنبعث من جسم الفتاة فيشدّها إلي صدره. وكأنّه كان يتخيّل أن باستطاعة هذه الشدّة العاطفية أن تشفيها من ألمها فيخفق قلبه بشدّة، ويعمل للاحتفاظ بتلك الشدّة أملاً في ألا تفلت من بين يديه كعصفورٍ يحاول الطيران.

وكانت الطفلة تنمو وينمو معها حبّ الخير، فكانت تعيش لتقوم



أيضا مع «توبسي»

بالأعمال الكريمة بقلبٍ مفعم بالطيبة والصلاح. ولكن لاحظْ والدها أن الفتاة تتعرّض لتفتح عواطف الأنوثة الواعية في قلبها، ذلك لأنّها كانت تلعب سابقاً مع «توبسي» وسائر الأطفال الملونين، ثمّ أثرت في الأيام الأخيرة أن تنظر

إليهم يلعبون من دون أن تُشاركهم في لعبهم ومرحهم. وكانت تُفضل أن

شاهد «توبسي» وهي تلعب علي الحبل دقائق طويلة فتضحك لها، ثم فجأة يكفهر وجهها، وتدمع عيناها، وتسرح أفكارها في المجهول بعيدًا بعيدًا.

وذات يوم قالت لأُمها فجأةً:

- ماما لماذا لا نُعلِّمُ خدمنا القراءة والكتابة؟

- سؤالٌ غريبٌ حقًا. إن هؤلاء الناس لم يتعودوا ذلك.

- ولكنَّهم يجب أن يقرأوا الكتاب المقدس ليفهموا تعاليم الله.

- إنَّ في استطاعتهم أن يستمعوا إلي آيات الكتاب تتلي عليهم عند الحاجة، فيتعلَّمونها.

- ولكن يبدو لي يا ماما أن علي كُلِّ إنسانٍ أن يقرأ الكتاب المقدس كي يستوعب أقواله.

- إيِّفا! أنتِ طفلة غريبة الأطوار حقًا!

- لقد علِّمت الآنسة أوفيليا «توبسي» القراءة يا أماه.

- نعم، ولكن قولني لي إلي أيِّ حدِّ نفع تعليم القراءة «توبسي» هذه، فهي أسوأ مخلوق بشري عرفته.

- إليك يا أُمِّي المسكينة مثلًا، فإنَّها تُحبُّ الكتاب المقدس كثيرًا، وتتمني لو تستطيع أن تقرأ فيه. فما عساها أن تفعل وهي لا تتمكَّن من أن تقرأه؟

- حسنًا يا ابنتي. ما عليك من هذه الأفكار المُقلِّقة، أبعديها عن رأسك الجميل. وعمَّا قريب ستشغلك الحياة عن مثل هذه الأفكار المزعجة لتنصرفي إلي إقامة الحفلات الصاخبة، وارتداء الملابس الأنيقة. وإليك الآن

هذه الجوهرة الثمينة، فإني أقدمها لك لتلبسها في الأعياد والحفلات. لقد لبستها في أول حفلة راقصة حضرتها. وبوسعي أن أصرحك فقد جعلتني محط الأنظار وقبيلتها طوال الحفلة.

وتناولت «إيفا» علبة المجوهرات المبهرة. وأخرجت منها عقدًا ماسيًا، فقد علقَت عيناها الواسعتان اللامعتان بالعقد. ولكن كان واضحًا أن أفكارها كانت منصرفة إلي موضوعٍ آخر.

فقالت «ماري»:

- كثيرًا ما تبدين رزينة يا إيفا.

- هل يساوي هذا العقد مألًا كثيرًا يا أمّاه؟

- لا شك في ذلك، فقد جلبه لي والدك من فرنسا، وهو يساوي ثروة طائلة.

- ليتني أملك هذا العقد!

- وما تفعلين به لو ملكته؟

- أفضل أن أبيعهُ لأبتاع بثمنه فندقًا لنا في احدي الولايات التي تعتنق مبدأ الحرية، وأنقل إليه جميع خدماتنا، ثم أستأجر لهم مُدرِّسين يعلمونهم القراءة والكتابة.

وضحكت الأمُّ حتى استلقت علي ظهرها!!



ما كل هذا الجمال؟

**What is all this beauty ?**

في تلك الحقبة من الزمن قَدِم من المدينة «ألفريد» شقيق «سانت كلير» مصطحبًا معه ابنه الأكبر «هنريك» Hanriqae ليقضيا يومين علي ضفاف البحيرة مع الأسرة.

وكان «هنريك» فتى جميل المنظر، في الثامنة من العُمُر، أسود العينين، تبدو عليه مظاهر النبل والثراء، وكان وجهه يفيض حيويَّةً ونشاطًا، فما إن رأى ابنة عمِّه حتي فتنته برقتها، وجمالها.

وكان لـ «إيفا» مهر صغير أبيض اللّون كالثلج، ضامر الجسم كصاحبته. ولمّا عزم «هنريك»، و«إيفا» أن يقوموا بنزهة قصيرةٍ أعدّ «توم» مهر «إيفا» وقاده إلي الساحة الخلفية. بينما أعدّ فتىُّ يُدعي «دودو» Dodo مهرًا عربيًّا أسود اللّون، كان قد اشتراه والد «هنريك» مؤخرًا بثمنٍ باهظٍ ليقدِّمه هدية لابنه.

وحين تقدّم «هنريك» إلي مهره الصغير ليمسك بزمامه ألقى نظرة فاحصة عليه، فاكفهر وجهه، ثمّ خاطب الفتى، قائلاً:

- ما هذا أيها الكلب الكسول! إنَّك لم تنظف حصاني صباح اليوم.

فقال «دودو» الفتى المسكين:

- لقد قمت بتنظيفه يا مولاي، ولكنه غبّر نفسه بنفسه.

فصاح «هنريك» رافعاً سوطه:

- احرص! كيف تجرؤ علي الكلام؟

- سيّدي هنريك..

وضربه هنريك علي وجهه بالسّوط بقوّة، ثمّ أمسك بإحدى ذراعيه وأجبره علي الركوع، وشرع يضربه حتي تقطعت منه الأنفاس.

- إنّ هذا الدرس يُعلّمك ألا تُجيب عندما أُكلمك! أيها الكلب الوقح، أرجع المهر إلي الإسطبل ونظفه جيّداً. ولسوف أضعك في المكان الذي تستحقّه.

وحاول «توم» أن يُعلّل مسلك الغلام، فصرخ «هنريك» في وجهه:

- وأنت أمسك لسانك إلي أن يُطلب منك الكلام.

ثمّ تقدّم إلي «إيفا» وكانت واقفة غير بعيدة عنه، فقال:

- آسف يا ابنة عمّي العزيزة أن يؤخرنا عن النزهة ذلك الأبله اللعين. فلنجلس هنا قليلاً علي المقعد ريثما يعود.. ولكن ما بالك يا إيفا؟ يبدو لي أنّك كئيبة فماذا اعتراك؟

- كيف تقسو علي «دودو» بهذه القسوة الوحشية؟!

قالت «إيفا» هذا والغضب باد علي وجهها.

- قسوة.. وحشية؟ ماذا تعنين يا إيفا العزيزة؟



- لستُ أرضي أن تدعوني إيفا العزيزة حين تفعل هذه الأعمال المشينة.  
- لا، يظهر أنك مهتمة كثيرًا بدودو هذا! وإني حقًا أحسده علي هذا الاهتمام الذي يناله منك!  
- ولكنك ضربته من دون أن يستحق الضرب.  
- حسنًا، أعدكُ بالأضربه أمامك بعد اليوم إذا كان في ضربه إزعاج لك.  
ولكن وعد ابن عمَّها الجميل لم يقنعها، ورأت من العبث، بل من المستحيل أن تحمل «هنريك» علي فهم عواطفها ومشاعرها النبيلة.  
وما هي إلا فترة حتي أقبل «دودو» ومعه المهر. فقال «هنريك» كلمة لا تخلو من الرفق:  
- حسنًا «دودو». لقد أحسنت صنعًا هذه المرّة، تعال الآن وأمسك حصان الأنسة إيفاريثما أرفعها إلي متنه.



وكان «سانت كلير» وأخوه «ألفريد» قد شهدا حادث ضرب «دودو» بالسُّوط وهما في ناحيةٍ أُخري من الحديقة. فقال «سانت كلير»:  
- أحسب يا ألفريد، أنّ هذا ما تدعوه التربية الجمهورية المتساوية، التي تُنادي بأنّ الجميع ولدوا أحرارًا ومتساوين في الحقوق.  
- ذلك أحد مبادئ جيفرسون Jefferson، المضحكة يا أخي، ومن العجيب أنّها ما تزال تلقي استثناسًا من بعض النفوس حتي اليوم!  
فقال «سانت كلير» بشيءٍ من السخرية:

- أعتقد ذلك!

- ألا توافقني يا أوغسطين أنّ جميع الناس لم يولدوا أحرارًا، كما أنّهم لم يُخلقوا متساوين في الحقوق والواجبات. وإني أصارحك بأنّ معظم هذا الكلام هراء محض. وإن الذين يستحقون أن يتمتعوا بالحرية والمساواة هم المثقفون والأغنياء لا السوقة الرعاع!

- لكن السوقة الرعاع كان لهم يومهم المشهود الرائع في فرنسا.

- أنا لا أخشي ثورة السوقة و الرعاع عندنا، إنّ يدهم ستظلّ هي السفلي في بلادنا.

- هذا صحيح، ولكن البخار خليق أن ينفجر إذا ما أحكمت سدّ صمام الأمان.

وهذه إحدى مضحكاتك الديمقراطية، يا أوغسطين، وإني ألاحظ أنّك تستطيع أن تكون خطيئًا جماهيريًا ممتازًا. لم لا تُجرّب حظك في هذا الميدان، أمّا أنا فأني أفضل الموت قبل أن أري ذلك العهد المقيت الذي تنتقل فيه مقاليد الحكم إلي جماهيرك القدرة!

- قدرة، أو غير قدرة. إنّها سوف تحكمكم عندما يأتي دورها. ولسوف تكون في حكمها علي الصورة التي تريدونها لها. إنّ نبلاء فرنسا قبل الثورة فضّلوا أن يجعلوا من شعبهم مواطنين بلا سراويل كما يلبس النبلاء، فكان أن أصبحوا فيما بعد يخضعون لحكم أبناء هذه الطبقة نفسها.

وهنا بدت «إيفا»، و «هنريك» علي فرسيهما من بعيد، فقطع «سانت كلير» حديثه ونهض قائلاً:



- انظري يا «ألفريد».. هل رأيت قط منظرًا أجمل من هذا؟

كان المشهد جميلًا حقًا. فقد كان «هنريك» يعتلي حصانه وجبهته العالية تدل علي جسارته، وجرأته، وشعره الفاحم الأسود وتورُّد وجنتيه يدلان علي نشاطه وقوّته، وكان يضحك بطرب وبهجة وهو يلتفت نحو ابنة عمّه الجميلة فيما كان يتقدّمان في سيرهما. وكانت «إيفا» ترتدي ثوبا فروسيا أزرق اللّون، وتتمتع بقبة من اللّون نفسه. وكان الطقس ونشاطها قد صبغا خديها بلونٍ زاهٍ زاداها جمالًا، فضلًا عن لون بشرتها الشقراء وشعرها الذهبي.

فصاح «ألفريد» :

- يا للسماء! ما هذا الجمال الذي يخلب العقول والقلوب؟ ناشدتك الله ألا تري معي أنّها سوف تقتل أكثر القلوب في يومٍ من الأيام؟  
- أتمني أن يكون هذا صحيحًا!

قال «سانت كلير» ذلك في نغمة تشوبها مرارة مفاجئة، ثمّ أسرع ليسانع ابنته علي الترجُّل.

وقال وهو يطوقها بذراعيه، ويضمها إلي صدره:

- إيفا عزيزتي أنتِ لستِ متعبة؟

- لا يا بابا.

ولكن لهاثها المتواصل أقلق بال والدها.

- ما كان عليك أن تتركي الحصان يعدو بكِ بهذه السرعة الشديدة يا عزيزتي، فأنتِ تعلمين أنّ ذلك يضر بصحتكِ!

- لقد شعرت بنشاطٍ يا بابا وكنْتُ سعيدةً جدًّا، لقد نسيت.

وحمل «سانت كلير» ابنته إلي المنزل ومدَّدها علي إحدى الأرائك، ثمَّ التفت إلي «هنريك»، وقال:

- هنريك ينبغي أن تتبَّه لإيفا جيّدًا، وألا تعدو بفرسك بهذه السرعة حين تكون في رفقتك.

- سوف أتعهدها بعنايتي يا عمي.

وجلس علي الأريكة، وأمسك «هنريك» يد «إيفا»، وأخذ يُداعبها بلطفٍ. وما هي إلَّا فترة حتي عاود «إيفا» النشاط، فاستأنف والدها وعمَّها نزهتهما، وتركوا الولدين الجميلين يهتمان واحدهما با



## الوصية الأخيرة للزهرة الحسنة

### Last will and testament of the Flower Belle

ودَّع «ألفريد» أخاه «أوغسطين» وعائلته بعد يومين اثنين. وبدأت صحَّة «إيفا» اثر ذلك تتدهور، فقد بذلت مجهودًا فائقًا ونشاطًا كبيرًا مُسائرة لابن عمَّها، فقرَّر «سانت كلير»، أخيرًا، أن يستشير الطبيب، الشيء الذي كان يتجنَّب عمله كي لا يصبح الشكُّ حقيقة يعرفها ويعيها.

ولم تلاحظ «ماري» تدهور صحَّة ابنتها لانشغالها الدائم بصحَّتها هي. وكثيرًا ما حاولت الأنتسة «أوفيليا» أن توقف فيها مثل تلك المخاوف ولكن عبثًا. فكانت تقول دائمًا:

- أنا لا أري أن الفتاة تشكو ألمًا ما! إنها تعدو وتلعب كالأطفال الأصحاء.

فتجيبها «أوفيليا»:

- ولكنَّها تسعل!

- وما في السعال من خوفٍ، فقد قضيت سحابة عُمرِي وأنا مُصابة بالسعال. وعندما كنت في عُمر إيفا خشوا عليَّ من الموت. وكانت أُمِّي تسهر إلي جانبي الليل بطوله. أوه! إنَّ سعال إيفا ليس خطرًا.

- ولكنَّها سائرة في طريق الهزال. وأنفاسها تقصر وتنقطع.

- لا خوف عليها. فقد عرفتُ ذلك سنوات و سنوات.

- وهي تسبح في عرقها أثناء الليل.

- حسنًا! لقد كان جسمي يتبلل عرقًا طوال هذه السنوات العشر. وكثيرًا ما كنتُ أنهض من فراشي وثيابي تتقاطر عرقًا.. لا، ليس العرق الذي يرشح جسم إيفا شيئًا بالقياس إلي ذلك الذي كان يرشح من جسدي!

وكانت الآنسة «أوفيليا» تضطر في كُلِّ مرَّةٍ للاعتصام بالصَّمت والصبر. أمَّا الآن وقد بدا واضحًا أن صحَّة «إيفا» في تدهور مستمر، وأن والدها استدعى الطبيب لمعالجتها، فقد اتخذت «ماري» فجأةً موقفًا آخر يختلف تمامًا عن ذي قبل، فقالت ذات يوم:

- ما كنت أشكَّ مطلقًا بأني أتعس الأمهات، وأن الأيام قدَّرت لي أن أكون عليلة الجسم، ثمَّ ابتلاني القدر بمرض ابنتي الوحيدة. وها إنني أراها تمشي بخطي كبيرةٍ إلي القبر، فما عساي أن أفعل؟  
فقال «سانت كلير»:

- عزيزتي ماري، لا تتكلمي هكذا. يجب ألا تقطعي الرجاء، وكفأك تشاؤم.

- أنت لا تحسَّ إحساس الأمِّ يا سانت كلير. أنت لن تفهمي في يومٍ من الأيام!

- ولكن ما عليك أن تتكلمي هكذا وكأننا إزاء مصيبة حتمية.



- لا يمكنني يا سانت كلير أن أنظر إلي الأمور نظرة لامبالاة كما تنظر إليها أنت. فإذا كنت لا تُقرُّ بشيءٍ من المخاوف، وابنتك الوحيدة تُعاني قسوة الألم والمرض المفجع. فإني علي النقيض من ذلك أحسن بأشياءٍ قاتلةٍ نُفِئت كبدِي. إنَّها فاجعة لا أقوى علي احتمالها لاسيما إذا أُضيفت إلي الفواجع الأخرى التي أصابتنِي حتي الآن.

وخلال أسبوعين تحسَّنت صحَّة «إيفا» تحسُّناً واضحاً. كان علي ما يظهر تحسُّناً خادعاً هو أشبه بالسكون الذي يسبق العاصفة، ومظهرًا كاذبًا كثيرًا ما يتخذُه ذلك الداء اللعين وسيلةً لإلهاء القلوب المفجوعة حتي في السَّاعات الأخيرة. فأخذ الجميع يتمتعون بمشاهدة «إيفا» الرقيقة تلعب في الحديقة وعلي الشُّرف، وقد عاد إليها إشراقها وضحكتها كما عادت إلي لعبها وتسليتها، فاستبشر والدها بهذا التحسُّن، كما استبشر به جميع مَنْ كانوا يقيمون في ذلك القصر الجميل، ما عدا الآنسة «أوفيليا»، وطبيب «إيفا» اللذين لم ينخدعا بهذه الهدية المؤقتة الوهمية، كما كان هنالك قلب آخر لا يمكن أن يصل إليه الخداع هو قلب «إيفا» الصغير. فقد استقر في ذلك القلب الطاهر إيمان قاطع بأنَّ الفردوس أصبح قريبًا منها، فكان قلبها هادئًا لهذا الإيمان، وادعًا لطيفًا كسكون الخريف لا يزعجه في تفكيره وأحاسيسه سوى مصير أولئك الذين أحبَّهم ويحبونه حبًّا جمًّا.

لقد كانت «إيفا» شديدة الحزن لفراق والدها، وأمَّها، وخدمها الأوفياء أكثر ممَّا كانت شديدة الحزن علي مفارقتها هذه الحياة. وسمعتها «توم» ذات يوم تقول، وهي تقرأ بعض آيات الكتاب المقدس:

- الآن فهمت لماذا أحبَّ يسوع أن يموت من أجلنا.

- وكيف علمت ذلك يا آنسة إيفا؟

- لأنني شعرت بالشعور نفسه أيضًا.

- ماذا تقولين يا آنسة إيفا؟ لا أفهم قصدك؟

- قد لا أقوي علي إفهامك قصدي يا عمّ توم، ولكنني أخبرك أنه عندما رأيت تلك الأكوام البشرية علي ظهر السفينة، إن كنت تذكر، وقد فصلت الأمهات عن الأبناء، وأبعد الأزواج عن الزوجات، وبكت الأمهات علي أطفالهن الصغار، وضحّ الأرقاء لما يلاقونه من ظلم، وخاصّة عندما سمعت خبر برو التعسة والمآسي الشبيهة بها، شعرت بأني أستحق أن أكون سعيدة في موتي، لا سيما إذا كان موتي يُساعد علي إنقاذ هؤلاء المظلومين ويُبعد عنهم الشقاء.

وأمعن «توم» النظر في وجه الطفلة بقلبي، حتي إذا انطلقت لتلبية نداء والدها دمعت عيناه غير مرّة، بينما كان يُشيّعها بنظراته الشاردة الحزينة.

وصعدت «إيفا» درجات السلم المؤدي إلي الشرفة لتمثل بين يدي أبيها. وكان ذلك في ساعةٍ من ساعات النهار المتأخرة، حيث كانت أشعة الشمس الذهبية تضفر إكليلاً من المجد وراءها، وهي ترتقي الدرج بردائها الأبيض وشعرها الذهبي.

وقد لمعت عينها ببريقٍ غريبٍ بتأثير من الحمى البطيئة المنبئة في عروقها. وقد استدعي «سانت كلير» ابنته ليُقدّم لها تمثالاً صغيراً كان قد اشتراه لها، ولكنه دُعر عندما شاهدها تتقدّم نحوه، فقد أثار مظهرها في نفسه



ألمًا دفينًا. كيف يكون هذا الجمال الباهر عُرضةً لأنياب المرض؟ وعند وصولها إليه طَوَّقها بذراعيه وكاد ينسي الغرض الذي طلبها من أجله.

- إيفا عزيزتي أنتِ أحسن حالًا اليوم، أليس كذلك؟

- بابا.. لديّ أشياء كثيرة أُحِبُّ أن أقولها لك قبل أن يزداد ضعفي.

وارتعد «سانت كلير» عندما رأى ابنته تجلس في حضنه، ثمَّ أسندت رأسها إلي صدره.

- لا فائدة من كتمان الحقيقة بعد اليوم يا بابا. فقد اقترب الوقت الذي

سأودعكم فيه. إني ذاهبة عنكم ولن أعود إليكم من جديد!

وأجهشت بالبكاء.

فقال «سانت كلير»، وهو يرتجف، ولكنه تصنَّع السرور:

- لا، لا يا عزيزتي إيفا. هدئي أعصابك ولا تسمحي لمثل هذه الأفكار

السوداء أن تُسيطر عليك. أنظري.. لقد اشتريت لك تمثالاً صغيراً جميلاً..

- لا اتخذ نفسك يا بابا!

وأخذت التمثال ووضعتَه جانبًا، ثمَّ استطردت تقول:

- إنَّ حالي اليوم أفضل ممَّا كنت عليه سابقًا. إني أعرف هذا جيدًا، وأعرف

أنني راحلة عنكم بعد قليل. كن واثقًا يا أبي، إني لستُ عصبيةً ولستُ جزعة.

ولولا فراقك وفراق أصدقائي لكنت في منتهى السعادة. أريد أن أذهب.. أنا

مشتاقة الذهاب.

- أنتِ حزينة النفس يا إيفا. وإنَّ مشهدكِ علي هذا الوضع يوقع الرُّعب في قلبي. هل يحزنكِ شيء ما يا إيفا؟

- آه! نعم. هذا ما أعنيه بالضبط. ولعلَّ ما يحزنني هو ما يجري كُلَّ يوم في بلادي. إني أتألم لمصير هؤلاء البائسين الذين يُحبِّونني كُلَّ هذا الحُبِّ، والذين يحتفون بي كُلَّ هذا الاحتفاء، ويحسنون إليَّ. كم أتمني يا بابا لو يصبحون كُلُّهم أحرارًا.

- ولكن ألا تظنين يا إيفا أننا نعاملهم هنا أحسن معاملة؟

- حقا يا بابا. ولكن ماذا يُصيب أولئك المخلوقات من الذل لو حدث لك شيء لا قدر الله. فالأناس الطيبون أمثالك نادرون جدًّا. عمِّي ألفريد وابنه وكذلك أمِّي ليسوا مثلك رافةً وحنانًا. ثمَّ فكَّر في أولئك الذين يمتلكون برو المسكينة، فما أفضع الآلام التي يرتكبها البشر!  
قالت «إيفا» ذلك وارتعشت أوصالها.

- أنتِ حساسة أكثر من اللازم يا طفلتي العزيرة، وإني أسف لسماحي لكِ بالاستماع إلي هذه القصص الدامية الحزينة!

- أوه، هذا ما يزعجني حقًّا وما يُقلِّقني يا أبي. إنَّك تُحبِّب أن أحيًا سعيدة وألا أشعر بألمٍ ما، وألا أسمع أية قصَّة مثيرة ومؤثرة، في حين أن الآخرين ليس لديهم سوي الآلام والهموم يتجرعونها طوال حياتهم.. وهذا منتهى الأنانية يا بابا! عليَّ أن اعرف حقيقة هذه الأمور وأن أحسَّها. إنَّ هذه المظالم تقطر وتشق قلبي أسي، وكثيرًا ما خطر في بالي أن اسعي لتحرير العبيد. بابا.. أليس من وسيلةٍ لتحرير هؤلاء منكودي الحظ جميعهم دفعة واحدة؟



- هذه قضية صعبة الحلّ يا حبيبتى. وليس من شكّ في أنّ استعباد الناس عادة اجتماعيّة سيئة جدًّا. وهناك كثيرٌ من الناس يؤمنون بمثل ما تؤمنين، وأنا أحد هؤلاء الضاجين من الرق، وكم أتمني من صميم قلبي ألا يكون علي أرضنا رقيق واحد، ولكن لا أعرف ما عليّ أن أفعله للتخلص من هذه المذلّة البشريّة!

- إنك رجلٌ طيب القلب ونبيل يا بابا، ألا يكون بوسعك أن تتجوّل في طول البلاد وعرضها محاولاً إقناع الناس برفع الظلم عن تلك الطبقة البائسة. أعتقد جازمة أنّك ستفكرُ بهذا بعد أن أُغيب عن هذه الدنيا. ولسوف تفعل شيئاً من هذا القبيل حتي بعد موتي. كم كنتُ أتمني لو يتسني لي القيام بهذا العمل الشريف بنفسى، ولكن الحياة لن تتيح لي ذلك!

فأجابها «سانت كلير» بصوتٍ تحفه العبرات:

- ماذا تقولين يا إيفا؟ عندما تموتين؟ أرجوكِ يا فتاتي بألا تتكلمي هكذا، فأنتِ كلُّ ما أعطاني الله في الوجود.

- وكانت برو لا تملك في الوجود إلا طفلها، ومع ذلك فقد قدّر لها أن تسمعه يبكي وينتحب من دون أن تقوي علي مساعدته. ثق يا بابا إن أولئك المساكين البائسين يُحبّون أولادهم بقدر ما تُحبّني أنت. أوه! أرجوكِ أن تصنع شيئاً لإنقاذهم. ومامي المسكينه تُحبّ أولادها أيضاً. ومن الفظيع حقاً يا بابا أن تقع هذه الأشياء تحت سمعنا وبصرنا ثمّ لا نُحرّك ساكناً لإزالتها!

- كفي! كفي يا حبيبتى فأنتِ تزعجين نفسك بأموّرٍ غريبةٍ عنك، هيا عديني بألا تُفكرى، ولا تتحدثي عن الموت. وسأفعل من أجلكِ ما ترغبين أن تفعله أنتِ.

- عدني يا أبي بأن يتمتع «توم» بكلّ حرّيته قبل..

قالت ذلك، ثمّ سكّنت لحظة، لتستطرد بصوتٍ مُتردّدٍ:

... أن أكون قد غادرت هذا العالم.

- أجل يا عزيزتي سوف أعملُ كُلَّ شيءٍ، كُلَّ ما تطلبين أن أعمله.

وهنا وضعت الطفلة خدها الملتهب علي خد والدها، وقالت:

- بابا حبيبي.. أكثر ما أتمني لو نذهبُ كُلّنا معًا..

فسألها «سانت كلير»:

- إلي أين يا عزيزتي؟

- إلي حيث يُقيم مخلصنا يسوع المسيح، إنّه لموطن جميل آمن. ألا تريد

أن تذهب إلي هناك يا بابا؟

وشدّها «سانت كلير» إلي صدره، ولكنّه ظلّ صامتًا.

فقالت الطفلة بلهجةٍ واثقةٍ:

- سوف تأتي إليّ يا بابا. سوف أكون هناك قبلك يا أبي ولن أنساك.



إيفا.. الطفلة الملاك تصعد للسماء

## Eva.. child angel ascend to heaven

اختفت أمارات الصَّحَّة الخادعة التي بدت علي مُحيًا «إيفا» في الأيام الأخيرة. وأذنت الشمس بالمغيب فصارت خطواتها تسير من دون صوت حتي في الشرفة. كانت تقضي معظم أوقاتها علي كنبه صغيرة، قرب النافذة المفتوحة المُطلَّة علي البحيرة. وكانت عيناها دائمةً مسمرتين علي مياه البحيرة المائجة.

و ذات يوم قالت «إيفا» لأُمها:

- ماما، أريد أن أقص بعض الخصل من شعري.

- ولم ذلك؟

- أريد يا أمّاه أن أهدي أصدقائي بعض خصل من شعري. وإني أفضّل أن أهديهم إيّاها بنفسي ما دمت قادرة علي أن أفعل ذلك. فهل لك أن تُكلفني عمّتي أوفيليا بأن تقصّ لي تلك الخصل.

ومن دون أيّ تردّد نادت «ماري» الأُنسة «أوفيليا» الموجودة في الغرفة المجاورة. ولم تكد تدخل الغرفة حتي نهضت «إيفا» قليلاً، وأرخت جدران شعرها المسدول الذهبي. وقالت بلهجةٍ مازحة:

- تعالي، يا عمّتي، وجزّي صوف هذا الكبش.

فقال «سانت كلير»، وهو يدخل عليهن حاملاً إلي «إيفا» بعض الفاكهة:

- ماذا؟

- لا تجزع يا بابا. فقد طلبت من عمّتي أن تجز بعض خصل شعري فهو كثيف جدًّا وطويل وإنّه لينفخ في رأسي حرارة قويّة. وفوق هذا فإنني أريد أن أوزع خصل شعري علي أصدقائي الذين يحبّونني وأحبّهم. وتقدّمت «أوفيليا» ويدها المقصّ.

فقال الأب:

- انتبهي! احذري أن تُفسدي جمال شعرها. قصي من الداخل لكي لا يبدو أثر للقصّ. إنّ شعر إيفا هو موضوع فخري واعتزازي.

فقالت «إيفا» في جزسٍ حزين:

- آه يا بابا!

- أجل أريد أن يظلّ شعرك جميلًا لأنني أنوي اصطحابك إلي مزارع عمّك، وهناك ترين ابن عمّك هنريك.

- لا يا بابا لن أرافك إلي هناك.. وإنني راحلة إلي بلدٍ أفضل منه. آه! صدقني يا بابا. ألا تُقرّ معي بأنني أزداد اقتربًا من الموت يومًا بعد يوم؟  
- لماذا تُصرّين علي ضرورة إقناعي بهذا الأمر الرهيب الذي قد لا يُصيبك يا إيفا.

- لأنّه صحيح يا بابا. ولعلك إذا صدقته الآن تستطيع أن تنظر إليه فيما بعد بعين راضية كما أنظر إليه أنا الآن.



وأطبق «سانت كلير» شفّيته من شدّة الحزن، ووقف جامدًا دهشًا من رؤية عناقيد الشعر الذهبية الجميلة التي تقصّر من رأس «إيفا» وتوضع باعتناءٍ في حضنها خصلة خصلة. وكانت الفتاة تُداعب بأناملها تلك الخصل التي تمثلها وتتأملها مليًا، ثمّ تلفها حول أناملها النحيلة، وتنظر بين الفينة والفينة نظرة يائسة إلي وجه أبيها الجامد.

وأخيرًا أوامت «إيفا» بيدها إلي «سانت كلير»، فتقدّم وجلس بجانبها.

- أعلم يا بابا أنّ قواريّ تهين وتضعف يومًا إثر يوم وأناي واثقة بأني راحلة. لذا فإنني أريد أن أحدثك ببضعة أمور تراود فكري. إنك ترفض أن أفوه بكلمة عن هذا الموضوع، ولكنني آسفة لأن أقوله لك مضطرة، فإنّ الأمر لم يعد يحتمل التأجيل. فأرجوا أن تصغي إليّ الآن وتعمل بما أقول لك.

- إني أسمع لك يا بُنيّتي.

قال «سانت كلير» ذلك، وحجب عينيه بإحدى يديه و تناول يد «إيفا» بالأخرى.

- أريد أن تدعو جميع من يعيشون في هذا المنزل إلي هنا، فلديّ ما أقوله لهم أمامك.

- حسنًا يا إيفا.

ووجهت «أوفيليا» رسولًا إلي القوم يدعوهم للحضور. وبعد لحظة كان الخدم جميعهم قد اجتمعوا في الغرفة. وكانت «إيفا» مستلقية علي وسائدها، وكان شعرها المقصوص يتدلي حُرًا حول وجهها. وكان خداهما

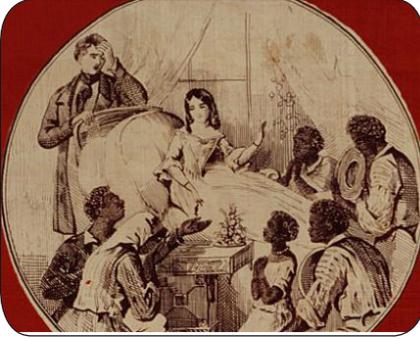
القرمزيان لا ينسجمان مع شدة بياض بشرتها ورقة جسدها. وكانت عيناها الواسعتان عالقتين في كل من دخل الغرفة.

وقد أصابت الأرقاء موجة من الحزن فجائيةً، فقد أثر فيهم وجه «إيفا» الملائكي المُصفر، وخصل الشعر الطويلة المقصوصة الموضوعة إلي جانبها، كما أثار كوامن نفوسهم منظر الأب الحزين الذي أشاح بوجهه عنهم، وتنهدات الأم المحرقة. إنَّ كل ذلك حرَّك الإحساس، فصاروا ينظرون إلي بعضهم البعض، وأخذوا يطلقون من أفواههم آهات وزفرات حارة، وهزوا رؤوسهم السوداء وساد الغرفة صمت عميق كالصمت الذي يسود الجنازات.

وأخيرًا فتحت «إيفا» فاهَا مُخاطبة الجميع، وقد حجبت أكثر الإيماء وجوههن بإردائهن وأكمامهن ليخفين دموع عيونهن، فقالت:

- أهلاً بكم يا أصدقائي. لقد طلبت مُقابلتكم يا أعزائي لأنني أُحِبُّكم جميعًا بمكانة أبي ولديّ ما أسره إليكم لكي تتذكروني دائمًا. أنا علي وشك أن أرحل عنكم إلي الدار الآخرة، ولن تمضي بضعة أسابيع علي بقائي معكم إذ تفتقدوني فلا تجدوني بينكم.

وهنا سرت في الجميع موجة من النحيب والبكاء والتنهد، وأخذت النساء يندبن فتوتها الزاهرة، كما أخذ الرِّجال يعدّون فضائلها، فضاع في هذه الموجة المُحزنة صوت الطفلة الضعيف، فتوقفت لحظه عن الكلام، ثمَّ عادت إليه بلهجةٍ تفاؤليةٍ وضعت حدًّا لبكاء الجميع، وقالت:



- إذا كنتم تحبونني حقًا  
فأرجو ألا تقاطعوني بل اسمعوا  
ما أقول. طلبتكم لأحدثكم عمًا  
تحتاج إليه نفوسكم لخلاصها،  
فإني أخشي أن يكون أكثركم لا

أيضا توزع خصلات شعرها علي الأرقاء

يهتمون بالآخرة، ولا يُفكرون

إلا في هذا العالم. من أجل هذا أريد منكم أن تعرفوا أن هنالك عالمًا هو  
أجمل من الأرض، عالمًا يُقيم فيه يسوع مملكته. إني راحلة إلي هناك، وفي  
استطاعتكم أن تذهبوا إلي حيث أذهب أيضًا، فهو لكم بقدر ما هو لي، هو  
لجميع العالم، ولكن عليكم لكي تتمكنوا من دخول ذلك العالم أن تعيشوا  
حياة جدّ وتأمل وتفكير، ويجب أن تذكروا أن في وسعكم جميعًا، لو أردتم،  
أن تصبحوا ملائكة وتبقوا ملائكة إلي الأبد.. ومن كان مسيحيًا حقيقيًا فإنَّ  
يسوع يُساعده، وعلي هذا المسيحي أن يصلي دائمًا ويقرأ الكتاب المقدس  
دومًا.

وذهبت الطفلة في حديثها متمهلة، ثمّ تطلعت إليهم بحنوٍ وحُبٍّ. وقالت

بصوتٍ حزينٍ ضعيفٍ:

- آه يا أحبائي، ولكنكم لا تعرفون القراءة، مساكين أنتم!

وهنا خبات وجهها في الوسادة وانتحبت، في حين أطلق أولئك الذين  
وجهت إليهم الخطاب زفرات مكبوتة وقد كانوا راكعين علي الأرض.

- لا بأس!

قالت ذلك، ورفعت رأسها مُرسلة ابتسامة مشرقة من خلال دموعها، ثمَّ قالت:

- لقد صليت من أجلكم. وأنا واثقة بأنَّ يسوع يُساعدكم حتي ولو كنتم لا تستطيعون القراءة. حاولوا جميعًا أن تعملوا أفضل ما تستطيعون عمله. صلوا كُلَّ يوم. اسألوه أن يُساعدكم، واستمعوا إلي تلاوة الكتاب المقدس ما وجدتم إلي ذلك سبيلًا. وأعتقد أنَّني سوف أراكم في السماء فيما بعد.

وقال «توم»، و «مامي» وغيرهما من المتقدمين بالسن:

- أمين.

في حين استرسل نفر من العبيد الصغار بالانتحاب، وقد خفضوا رؤوسهم فوق ركبهم كي لا يؤلموا ببكائهم الفتاة المريضة.

واستطردت «إيفا»:

- أنا أعرف أنَّكم جميعًا تحبونني. وإني أود أن أعطيكم شيئًا تذكرونني به إذا ما نظرتم إليه. سوف أعطي كُلاً منكم خصلة من شعري فاذكروني في المستقبل.

وتجمَّع الأرقاء كُلُّهم حول الفتاة الصغيرة ودموعهم تغسل وجناتهم، وزفرائهم تتصاعد من صدورهم، وأخذوا يتناولون من يديها آخر أثر من آثار مَنْ تحبُّهم ويحبونها، ثمَّ ركعوا علي الأرض وأخذوا يبتهلون ويصلون وقبلوا ذيل ردائها، في حين أرسل الكبار كلمات الولاء والحُبِّ ممزوجة بالأدعية والابتهالات علي طريقة العبيد العاطفية جياشة الشعور.



كانت الآنسة «أوفيليا» تُراقب هذا المشهد المؤثر دون أن تجهل أثره السيئ في صحّة الفتاة المريضة، فكانت تُشير إلي مَنْ يأخذون نصيبهم من خصل الشعر أن ينصرفوا من الغرفة حالاً.

وما هي إلا لحظات حتي كان الأرقاء كلهم قد خرجوا. ولم يبق في الغرفة غير «توم»، و «مامي».

والتفتت «إيفا» إلي «توم»، وقالت:

- والآن إليك أيها العمّ توم، هذه الخصلة الجميلة، آه! أنا سعيدة، أيها العمّ توم. ولسوف أراك في السماء بين أحضان الملائكة والقديسين، وأري مامي أيضًا. مامي العزيزة الطيبة. وألقت ذراعها حول الأمّ العجوز الوفية.

فقالَت المرأة البائسة:

- آه! أيتها الآنسة الحبيبة، لستُ أدري كيف أقوي علي العيش بعدك؟

وأبعدت «أوفيليا» برفقٍ ودعةٍ كلاً من «مامي»، و«توم»، خارج الغرفة بحجة أن الخدم جميعهم قد خرجوا. لكنها لم تكذب لتفت حولها حتي رأت «توبسي» واقفة هناك. وكأنّها حجر أسود.

فصرخت في وجهها:

- من أين أتيت؟

- كنت هنا.

وكفكت دموعها، ثمّ خاطبت «إيفا» قائلةً:

- آه! يا آنسة إيفا. لقد كنت دائماً جارية شريرة، ولكن ألا تُريدان أن

تعطيني خصلة من شعركِ أيضاً؟



- طبعاً يا توبسي. طبعاً إنني أُحبكِ.  
أُحبكِ لأنّه لم يكن لك يوماً أب، وأم،  
أو أصدقاء. أُحبكِ لأنك فتاة فقيرة  
مضطهدة.. وأعطيك هذه الخصلة من  
شعري. وكلّما نظرت إليها أُريد منك  
أن تعلمي جهدك لتكوني فتاة طيبة.

- آه! يا سيّدي، سأحاول.. ولكن  
من الصّعب جدّاً أن يكون الإنسان

أيضا تمنح «توبسي» حبها وخصلات شعرها

طيّباً!

وخبأت «توبسي» عينيها الدامعتين بطرف ثوبها. وفيما كانت «أوفيليا»  
تسوقها إلي خارج الغرفة أخفت الخصلة في صدرها. عندئذ أوصدت  
«أوفيليا» باب الغرفة، وهي تكفكف دموعها، وقد استبد بها الفزع لهذا  
الموقف المثير. لم يبق من شكّ في أنّ النهاية أمست وشيكة الوقوع. ولم  
يعد في وسع الأمل مهما كان متفائلاً أن يتعامي عن رؤية الحقيقة المفجعة.

وأكثر العمّ «توم» من التردّد إلي غرفة «إيفا»، إذ أخذت الطفلة تشكو  
هواجس عصبية. لقد كانت تأنس لمن يحملها بين يديه، إذ تجد في ذلك  
منفرجاً وارتياحاً. وكان «توم» يشعر بأعظم سعادة تغمر قلبه، عندما يحمل  
هيكل الفتاة الصغيرة مستريحة علي وسادة بين ذراعيه ويطوف بها في أرجاء  
الغرفة، والقصر، حتي إذا هبت النسائم الندية من البحيرة أخذها ومشى



معها أحياناً تحت أشجار البرتقال، أو جلس قربها في بعض الأماكن التي كانا يرتادان إليها سابقاً. وكان ينشد لها التراتيل الكنائسية القديمة المفضّلة عندها.

وكثيراً ما كان والدها يُعاملها بمثل هذه المعاملة الرقيقة. ولكن صحّته لم تكن لتساعده علي الصمود في وجه المتاعب. وكثيراً ما كانت تقول له «إيفا» :

- دع «توم» يحملني عوضاً عنك يا بابا!! مسكين «توم» فهو رجل طيب وأظن أن العمل الصالح يُدخل السرور إلي قلبه الكبير، وهو يُحبّ أن يفعل شيئاً من أجلي، وليس بوسعه أن يفعل غير هذا. لا تحزن يا بابا فباستطاعتك أنت أن تقرّأ لي الكتاب المقدس، وأن تسهر علي راحتي ليلاً كما أنّك كلّ شيء لي، ولكن «توم» لا يستطيع إلا أن ينشد لي ويحملني علي ذراعيه، وهو بهذا أقدر منك وأكثر نشاطاً وقوّةً.

وكانت «إيفا» تُصارع «توم» بكلّ ما كان يراودها من خواطر مزعجة وأحاسيس منهكة. فتطلعه بتفصيل علي تلك الإيماءات والعلاقات الغريبة التي تزور الروح حين تبدأ الحياة بالكسوف وقبل أن يفارق العين نور الحياة إلي الأبد.

وكان «توم» قد اعتاد السهر في الأيام الأخيرة في غرفته، وكان يستلقي طوال الليل علي الشرفة الخارجية ليكون علي أتم استعداد للنهوض، عند أوّل مناداة تطرق أذنيه من فم الفتاة المريضة.

وذات يوم، قالت له «أوفيليا» :

- ما الذي يدعوك أيها العمّ «توم» إلي أن تنام في أيّ مكان؟ لقد حسبتك إنساناً متمدناً، وأنتك تُحبّ النوم في الفراش المنظم.

فأجابها «توم» بصوتٍ منخفضٍ:

- إني كذلك يا آنسة فيلي، إني كذلك، ولكن الآن..

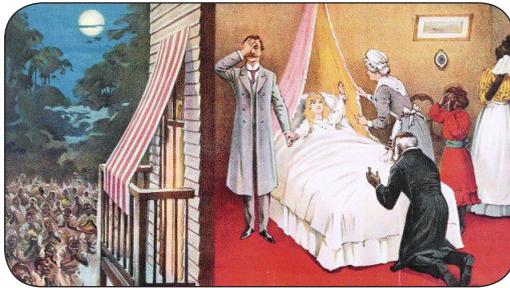
- حسناً! ماذا يُخيفك الآن؟

- يجب ألا تتكلمي بصوتٍ عالٍ، لكي لا يسمع سيّدي سانت كلير. ولكن يا آنسة فيلي، أنتِ تعلمين أنّه يجب أن يكون هنالك دائماً مَنْ ينتظر العروس.

- ماذا تعني يا توم؟

- أنتِ تعرفين قول الكتاب المقدس: وفي منتصف الليل خرجت صيحة قائلةً.. هو ذا العريس مقبل فاخرجن للقاءه. وهذا ما أتوقعه كلّ ليلة، يا آنسة فيلي، ويتعيّن عليّ أن أسمع النداء.

- ولكن، ما الذي يجعلك تُفكّر هذا التفكير؟



أيضاً في نزاعها الأخير



- ذلك ما توحيه إليَّ الآنسة إيفا، فهي تُحدثني بأنَّ الله يوجه إرادته إلينا بواسطة الروح. لذلك يجب أن أكون متيقظًا، حتى إذا ذهبت طفلتنا المباركة إلي ملكوت السموات وُفُتِح لها باب الجنة، كحلت عينيَّ بذلك المنظر الملائكي الرهيب.

- هل قالت لك الآنسة إيفا أنَّها شعرت بضعفٍ غير عادي هذه اللَّيلة؟  
- لا، ولكنَّها قالت لي، هذا الصباح، أنَّها تقترب من النهاية أكثر فأكثر. إنَّهم هم الذين يخبرونها بذلك يا آنسة فيلي.. إنَّهم الملائكة.

ولقد دار هذا الحديث بين «توم»، و«أوليفيا» فيما بين السَّاعة العاشرة والحادية عشرة من ذلك المساء. وكانت «إيفا» مرحةً طروبًا علي غير عاداتها بعد ظهر ذلك اليوم. وكان صوتها طبيعيًّا جدًّا، وبدت لأبيها حين نظر إليها، ذلك المساء، أفضل حالًا ممَّا كانت عليه في أيِّ يوم، وحتي، منذ وافاها الداء الخبيث، فقَبَلها وقال مُخاطبًا الآنسة «أوفيليا»:

- نستطيع أن نبقِها معنا علي كُلِّ حالٍ، فإنَّ صحتَّها أحسن بكثيرٍ ممَّا كانت عليه سابقًا.

ثمَّ أوي إلي فراشه وبين جنبيه فؤاد هاديٍّ لم يحتفظ بمثله في صدره منذ أسابيع.

ولكن، ما انتصف الليل، في تلك السَّاعة الغريبة التي يرقُّ فيها الحجاب ما بين الحاضر والماضي والمستقبل، حتي جاء الرسول.

ودوي في الغرفة صوت إنسان يجري مُسرِّعًا بادئ الأمر. وكان هذا الشخص هو «أوفيليا» التي قرَّرت ألا تنام طوال الليل لتتفقد حال المريضة في تلك السَّاعة المتأخرة.

وفي لمح البصر فُتح الباب الخارجي، وأندفع منه «توم» إلي الغرفة، وقالت «أوفيليا» لـ «توم» :

- أذهب إلي الطبيب يا «توم» ولا تضيع ثانية واحدة.

قالت «أوفيليا» ذلك ووثبت عبر الغرفة لتفتح الحجرة التي تضم «سانت كلير»، وقالت:

- سانت كلير أرجو أن تحضر إليَّ في الحال.

ونفض «سانت كلير» لتوه وهرع إلي الغرفة، وانحني فوق «إيفا» التي كانت ما تزال نائمة.

ماذا اعترى المسكين حتي يقف قلبه عن الحركة؟ لماذا لم يُحدِّث «أوفيليا» أو لم تُحدِّثه بكلمةٍ؟ إنَّنا لا نعرف جواب لتفسير مثل هذه المواقف الحرجة، إذالم يقدر لنا، ورأينا تلك الآثار، أو تلك الانطباعة علي وجه عزيز لنا وهو يفارق الحياة.. تلك الانطباعة البائسة التي تُحدثك بما لا يقوي علي تفسيره المجلدات، وهي تُخبرك بأنَّ المخلوق الذي تُحبِّه لم يعد ملكك.

ووقفنا إلي جانب الفتاة يُحدقان النظر إليها، وكأن علي رأسيهما الطير، حتي لقد بدت تكتكة السَّاعة في أذانهما صارخة جدًا. وبعد لحظات رجع «توم» بصحبة الطبيب. ولم يكد يدخل الطبيب الغرفة ويلق نظرة سريعة علي



الطفلة المُمدّدة في فراشها حتي وقف جامدًا، مطرق الرأس، ظاهر الأسى.  
وفي صوتٍ كالهمس قال للآنسة «أوفيليا» :

- متى حدث هذا التغيُّر؟

- حدث حوالي منتصف الليل.

وأيقظ مجيء الطبيب أم الطفلة من نومها. فهرعت إلي ابنتها متسائلة:

- أوغسطين، أوفيليا ماذا حدث؟ أخبراني برِّبِّكما؟

فقال «سانت كلير» بصوتٍ متهدجٍ باكٍ:

- اصمتي.. إنَّها تحتضر!

سمعت «ماري» هذه الكلمات، فسارعت إلي إيقاظ الخدم. وفي أسرع من لمح البرق، استفاق سكان القصر جميعهم. فأضيت القناديل، واحتشد الجميع جزعين مرتجعين في الشرفة. وتطلعت الأعين من خلال الأبواب الزجاجية مستفسرة عن صحّة الفتاة. ولكن «سانت كلير» لم يسمع الضجة وكُلَّ ما كانت تُثيره تلك الانطباعة، انطباعة الموت علي وجه النائمة الصغيرة، وقال:

- آه ليتها تستطيع فقط أن تفيق وتتحدّث مرّةٍ أُخري!

قال ذلك، وانحني فوقها، وهمس في أذنها:

- إيفا عزيزتي..

وانفتحت عينا الطفلة الزرقاوان الواسعتان. وأشرقت علي وجهها الذابل ابتسامة، وحاولت أن ترفع رأسها وتتكلم.

- هل تعرفيني يا إيفا؟

- بابا، عزيزي..

قالت الطفلة ذلك وقد بذلت آخر ما تستطيعه من جهدٍ، ومدّت يديها تطوّق بهما عنقه. وفي لمح البصر ارتخت اليدان من جديد. فرفع «سانت كلير» رأسه. فإذا به يري علي وجهها آثار النزاع الأخير.

ثمّ أشار بوجهه في لوعهٍ بائسةٍ، وهو يقول:

- آه يا إلهي العزيز.. إنّ هذا مخيف!

ثمّ ضغط بطريقةٍ لا شعوريةٍ علي يد «توم»، وقال باكياً:

- أوه «توم» إنّ هذا المشهد ليقتلني!

وضغط «توم» علي يد سيّده التي ظلت في يده، وتطلع، والدمع الغزير يجري علي خديه الأسودين اللامعين، إلي السماء حيث اعتاد أن ينظر طلباً العون والنجدة.

- أدع ربّك أن يُعجل في إنهاء هذا البلاء.. إنّ هذا يُدمّر قلبي ويفطر أحشائي!

فصاح «توم»:

- أوه شكراً لله! لقد انتهى.. أيها السيّد انظر إليها.



إيفا تنتقل للسماء

يُجري علي خديه الأسودين اللامعين، إلي السماء حيث اعتاد أن ينظر طلباً العون والنجدة.

- أدع ربّك أن يُعجل في إنهاء هذا البلاء.. إنّ هذا يُدمّر قلبي ويفطر أحشائي!

فصاح «توم»:

- أوه شكراً لله! لقد انتهى.. أيها السيّد انظر إليها.

أَلقت الطفلة رأسها علي وسائدها، وراحت تلهث لهاثاً شديداً، وقد  
تألقت العينان الكبيرتان الصافيتان وجمدتا. آه! ماذا قالت تلك العينان اللتان  
ناجتا السماء كثيراً: «لقد انتهت حياة الأرض وانقضي ألمها».

فتحلق الجميع حولها بسكونٍ رهيبٍ.

وقال «سانت كلير» بتؤددةٍ ورفقٍ:

- إيفا.

ولكنّها لم تسمع، فقال والدها ثانيةً:

- أوه إيفا.. أخبرينا ماذا ترين؟

وظافت علي وجهها ابتسامة مشرقة، وقالت بصوتٍ ضعيفٍ:

- أري الحُبّ والبهجة والسلام.

ثمّ أرسلت زفرة، وانتقلت من الحياة إلي الموت، ومن الموت الأراضي  
إلي الحياة الأبدية.





سانت كلير يلحق بعروس السماء

**St. Clair suffered Bride of Heaven**

ووري جثمان الملاك الصَّغير في قبرٍ بأرض الحديقة في جوٍّ محزنٍ  
نضبت فيه دموع المُحِبِّين وتقرَّحت العيون. وبعد أيام قليلة عادت أسرة  
«سانت كلير» إلي المدينة. فقد كان الرَّجل الذي روعته الصَّدمة وهذه الغمِّ  
توافقاً لتبديل المشهد وتغيير مجري تفكيره الكئيب الحزين. وغادر القوم  
دارهم في المصيف و تركوا الضريح الصغير، ورجعوا إلي قصرهم الشتوي.

وهناك في «نيو أورليانز» كان الناس يرون «سانت كلير» يزرع الشوارع  
بخفةٍ ورشاقيةٍ لملء الفراغ الذي أوجده في قلبه ذلك الحادث الأليم،  
متظاهراً بالحرِّكة و النشاط، متنقلاً من مكانٍ لآخر. حتي إن الذين كانوا  
يصادفونه في الطريق، أوفي المقهى لا يشعرون بأنَّه أفنقد أبتته، أو أنَّه حزين  
عليها إلَّا من ربطة العنق السوداء التي كانت تطوِّق رقبته، أو من الشريط  
الأسود الذي يلف قبعته. فقد كانوا يشاهدونه مبتسماً أبداً، وكان يتحدَّث،  
ويقرأ الصحف، ويستطلع الأخبار، ويشترك في القضايا التجارية، ولم يكن  
هنالك أحد ليعتقد أنَّ كُُلَّ تلك المظاهر الكاذبة من ابتسام ونشاطٍ ما كانت  
سوي قشور جوفاء تُخفي في طبائنها فؤاداً مكلوماً مجروحاً هو أشبه ما يكون  
بقبرٍ مظلمٍ موحشٍ!

قالت «ماري» ذات يومٍ للآنسة «أوفيليا» بلهجةٍ شاكيةٍ:

- لقد أصبح سانت كلير رجلاً غريب الأطوار حقًا. لقد كنت أعتقد أنه كان مُخلصًا في حُبِّه لابنته الحبيبة الراحلة إيفا، ولكن يبدو أنه قد نسيها بسهولةٍ مطلقةٍ. لقد كنت أعتقد أنه سيُظهر عاطفة أقوى وأخلص! فقالت الأنسة «أوفيليا»:

- المياه الساكنة تكون أكثر عمقًا من سواها!

- أوه! أنا لا أؤمن بهذه السفساف أو الأمور التافهة. فإذا كان عند الناس عواطف فعليهم أن يظهروها ولا قيمة في إخفائها!  
- يبدو لي أن سانت كلير قد أصبح هزيلًا كالخيال، فهو لا يأكل طعامه، وهو لم ينس، ولا يستطيع أحد أن ينسي المخلوقة الرائعة إيفا. وجرت الدموع سخية علي خديها.

- حسنًا علي كُلِّ حالٍ، إنَّه لم يُقم لي وزنًا في هذه الفاجعة، فهو لم يُسمعي كلمة تعزية واحدة وكان عليه أن يدرك أن الأمَّ تحس بلوعة الحزن أكثر من الأب.

- إنَّ القلب يُدرك ما يُعانيه من تباريح وآلام.

- ذلك ما أعنيه بالضبط. فأنا علي علمٍ جيدٍ بكلِّ ما أحس به. وإن أحدًا سواي لا يمكنه أن يدرك ما أُعانيه، باستثناء إيفا التي كانت تعلم ما يعتلج و يضطرب في نفسي. ولكنَّها، يا للأسف، قد رحلت عني. قالت «ماري» ذلك وانطرحت علي أريكتها، وأخذت تبكي وتنتحب.



كان من أهم ما انصرف إليه «سانت كلير» بعد عودته إلي «نيو أورليانز» هو اتخاذه التدابير القانونية الضرورية لتحرير «توم». وفي الوقت نفسه أخذ الوالد التَّكْيِيلُ يُلازم الرَّجُلَ العجوز أكثر فأكثر إذ لم يكن ثمة شيء في الدنيا يُذَكِّرُه بـ «إيفا» بقدر ما كان يُذَكِّرُه بها «توم» فهو لهذا كان يُحِبُّ أن يبقي إلي جانبه ليشكو إليه حزنه و ييشه بلواه ومصيبته. وكان يجد قربه متعة بالغة، وخاصَّة حين يتلو علي مسامعه فصول من الكتاب المقدس.

وقال «سانت كلير» لرفيقه بعد يوم من شروعه في اتخاذه الخطوات الشكلية لإعتاقه وتحريره:

- سوف أجعل منك رجلاً حُرًّا. فرتب حقيبتك واستعد للرحيل إلي كانتاكي.

وأضاء وجه «توم» بنور الغبطة والفرحة وهو يرفع يديه إلي السماء، و يعلو صوته بحمد الله وشكره.

ورأي «سانت كلير» الفرح يغمر وجه «توم» فاكفهر جبينه بعض الشيء. فقد ساءه أن يكون «توم» راغبًا كُلَّ هذه الرَّغْبَةِ في فراقه. فقال بلهجة جافة:

- أنت لم تقض عندنا كثيرًا من الأوقات التعسة حتي تتعجل الذهاب علي هذا النحو!

- لا، لا يا سيدي ليس الذهاب هو الذي يفرح قلبي، إنَّما الذي يفرحني هو أنَّني سأصبح حُرًّا.

- ولكن ألا تظن يا «توم» أنَّك عشت بيننا حياة هي أفضل من حياة الأحرار أمثالك؟

- لا أيها السيّد، لا.

- ألا تعتقد يا «توم» أنه ما كان يتسنى لك لو كنت حُرّاً أن تجني من عملك ما يمكنك من أن تشتري به مثل هذه الملابس، وتأكل مثل هذه الأطعمة التي نُقدّمها لك؟

- هذا صحيح يا مولاي، فقد كنت كريم النفس معي سخياً جداً، ولكن يا سيّدي أفضل أن تكون ثيابي رثّة، وبيتي حقيراً، وأثاثي حطاماً، وأن تكون هذه الأشياء ملكي علي أن أتمتع بأفضل منها وهي ملك غيري من الناس، وأعتقد أنّ هذا هو الإحساس طبيعي، ولا أخفي عنك أنني سابقني معك مادمت تشعر بالهّم والقلق.

فقال «سانت كلير»، وهو يتطلع إلي الحديقة مكلوم الفؤاد:

- مادمت أشعر بالهّم والقلق! ولكن هل تعتقد أنّ لحزني انقضاء؟

- عندما يغدو سيّدي سانت كلير مسيحياً.

فابتسم «سانت كلير» نصف ابتسامة، وقال وهو يتعد عن النافذة ويضع يده علي كتف «توم»:

- وهل تعتزم أن تبقي فعلاً حتي ينبلج فجر ذلك اليوم؟ آه! يا توم. إنني لأشفق عليك حتي أبقيك قربي إلي تلك السّاعة. لا، يجب أن تذهب إلي زوجتك و أولادك، وتحمل حُبي.

ومنذ غاب وجه «إيفا» الجميل والآنسة «أوفيليا» تحس بفراغ قاتل في حياتها لا مجال لملئه. لهذا فقد انصرفت بكليتها لتعليم «توبسي» القراءة



وفنون إدارة المنزل. وكانت تحرص علي أن تلقنها مبادئ الكتاب المقدس في الدرجة الأولى.

وأخيرًا صارت «توبسي» سلوتها، فأخذت تحذب وتعطف عليها، وتري فيها المخلوقة المُرسلة من الله لتهديتها إلي السلوك القويم. وبالطبع فإنَّ «توبسي» لم تنقلب بين عشية وضحاها إلي فتاةٍ قديسةٍ، ولكن موت «إيفا» والنصائح التي زوَّدتها بها قبل وفاتها أحدثت تغييرًا كبيرًا في نفسها. فقد تخلصت من بلادتها وحلَّ محلها إحساس وأمل وشوق لعمل الخير، ونضال متواصل لإرضاء أسيادها. وكانت دائمًا تتوجه نحو الصدق والإخلاص في كلِّ ما تفعل.

قالت الآنسة «أوفيليا» ذات مرّة لـ «سانت كلير»، وقد كانا يتجاذبان أطراف الحديث حول الطفلة «توبسي»، ومدى ما أحرزته من نجاحٍ وتقدُّم:

- هل ستكون يا أوغسطين هذه الطفلة لي أم لك؟

- وهل نسيتِ أنني قدَّمتها هدية لك!

- هذا صحيح. ولكنك لم تعطني إيَّها علي نحوٍ قانوني شرعي!

- وما الذي يجعلك تطالبين بهذا يا أوفيليا؟

- أو دّفي النهاية أن أذهب بها إلي إحدى الولايات التي تُحرّم الرق لأمنحها هناك حريتها، ولكي أضمن أن جهودي التي بذلتها في تثقيفها وتعليمها لم تذهب أدراج الرياح، فقد حاولت أن أجعل من «توبسي» طفلة مسيحية، ولكن ذهبت جهودي هباء ولم يكن لها أي نفع، واعتقد أنه لا يمكن إدخال العقلية المسيحية إلي هؤلاء الأرقاء مادام شبح الاسترقاق يتهددهم في كلِّ

لحظة لذلك فإنني ملزمة أن أطلبك بمنحي صكًا شرعيًا يسمح لي بامتلاك الفتاة وحدي.

- حسنًا، حسنًا سوف أفعل.

- أريد أن أحصل علي هذا الصك الآن.

- ولم العجلة؟

- من الخير ألا تؤجل ما يمكنك فعله الآن. وها هي الساعة مؤاتية ومناسبة، فإليك ورقة وريشة وحبرًا، وما عليك إلا أن تكتب الصك.

وظهرت علي جبين «سانت كلير» مسحة من الاستياء والنفور لهذا الطلب المُلح، فهو لا يستسيغ أولئك الذين يُصرون علي الطلب في التوّ واللحظة، ويُحبّ دومًا أن يسوف أو يؤجل ويُماطل شأن الكثيرين من رجال الأعمال. وصمت لحظة، ثمّ قال:

- عجب أمرك! ألا تتقين بكلامي؟

- أريد أن يطمئن قلبي. ومن يدرى؟ فقد يخطفك الموت، وقد تنكث بالوعد وعندئذ تُساق «توبسي» إلي سوق المزاد علي مرأى ومسمع مني.

وهنا تناول «سانت كلير» الريشة وكتب صيغة الهبة ووقعها باسمه، ثمّ قال وهو يُقدّمها إلي ابنة عمّه:

- والآن أليس هذا سوادًا علي بياضٍ يا آنسة؟

- حقًا إنك شابًا طيب القلب، ولكن ألا يحتاج هذا الصك إلي مَنْ يشهد علي صحّته.

- أوه، طبعًا.

وفتح الباب المؤدي إلي غرفة زوجته، وقال:

- ماري إن ابنة عمي تطلب توقيعك علي هذا الصّك، فاكتبي أسمك هنا.

وألقت «ماري» نظرة سريعة علي الورقة، وقالت:

- ما هذا؟ شيءٌ مضحكٌ لقد حسبت ابنة عمنا أكثر صلاحًا من تُقدم علي

هذه الأشياء التافه!

وأضافت وهي توقع اسمها في أسفل الصّك:

- ولكنّها مادامت شديدة الحرص علي هذا الطلب فلن أتأخر عن التوقيع

عليه.

وبعد ذلك خرج «سانت كلير» إلي غرفة الاستقبال، وتفرّغ لمطالعة

صحيفته التي ما تزال في يده، فلحقت به «أوفيليا» وجلست قربه وبلطفٍ

سألته، وهي تحرك أناملها بحبّك الصوف:

- أوغسطين، هل فكّرت في أن تضمن مستقبل أرقائك في حال وفاتك

لا سمح الله؟

- لا.

- إذًا فقد يؤدي إهمالك هذا إلي إنزال أشنع المكاراة بهم.

كان «سانت كلير» كثيرًا ما يُفكر في هذا الموضوع، لكنه أجاب بلا مبالاة:

- حسنًا أريد أن أنجز الإجراءات التي تقيهم شرّ هذا المصير.

- متى؟

- أوه! في يومٍ من الأيام..

فظوي «سانت كلير» صحيفته وتطلع إلي ابنة عمّه قائلاً:

- ماذا دهالكِ يا أوفيليا؟ تُراكِ تشاهدين علي وجهي أعراض الحمى أو غيرها حتي تستعجليني لانجاز تلك التدابير بهذه السرعة!  
- إننا نخوض معترك الموت ونحن في غمرة الحياة.

وغضب «سانت كلير» من حديث «أوفيليا»، فخرج إلي الشرفة ليضع حدًا لحديثٍ لم يستسغه، وبصورةٍ آليّةٍ أخذ يُردّد كلمة الموت، وهو منحن علي حديد الشرفة حيث كان بصره يمتد إلي مياه البركة. وقد ذهب به بصره إلي زهور الدار وأشجار الحديقة وألوانها المُتعدّدة فراها وكأنّ قد غشيها وغطاها ضباب رقيق. وأخذ يُردّد تلك الكلمة المبهمة الشائعة علي كلّ لسانٍ، والتي تُخيف كلّ مخلوق: «الموت».

وقال مُحدثًا نفسه: «من العجب أن يكون الموت علي قيد باع منا ونسائه كُليًا. يكون الإنسان حيًّا مسرورًا وغارقًا في خضم الحياة، تغمر قلبه الآمال الحلوة والرغبات الكثيرة والحاجات اليومية، ثمّ فجأة يُحرم كلّ هذا، فلا تُشرق عليه شمس اليوم التالي حتي يكون قد ابتعد عن هذه الأرض إلي الأبد».

وفيما كان «سانت كلير» منصرفًا إلي الطرف الآخر من الحديقة في ذلك المساء الدافئ الجميل، رأي «توم» منكبًا علي كتابه المقدس يقرأه بإمعانٍ



وأصابعه تُشير إلي الكلمة التي يمرّ عليها فيهمس بها في تأمّلٍ وخشوعٍ،  
فأنس «سانت كلير» بـ «توم»، وقال له:

- أتريد أن أساعدك فأقرأ لك يا توم؟

ومن دون أن يسمع جوابًا جلس «سانت كلير» قرب «توم» الذي قال له:

- لو تَلَطَّف مولاي وقرأ لي، فقراءتك تفهمني الكلام بشكلٍ أوضح  
وأعمق.

وتناول «سانت كلير» الكتاب، وألقى نظرة علي الصفحة المفتوحة  
وأخذ يتلو أحد المقاطع التي أشار إليها «توم» بعلاماتٍ بارزةٍ: ومتى جاء  
ابن الإنسان في مجده ومعه جميع الملائكة والقديسين، حينئذٍ يجلس علي  
كرسي مجده وتجتمع أمامه الشعوب كافة. فيميز بعضهم عن بعض كما يميّز  
الراعي الخراف من الجداء. وتابع «سانت كلير» التلاوة بصوتٍ يفيض حياة  
وعذوبة، حتي وصل إلي آخر الإصحاح: ثمّ يقول للذين عن اليسار اذهبوا  
عني يا ملاعين إلي النار الأبدية، لأنني جُعتُ فلم تطعموني، وعطشت فلم  
تسقوني. كنتُ غريبًا فلم تؤووني، وعريانا فلم تكسوني، ومريضًا وسجينًا  
فلن تزوروني، فيجيبه الأشرار قائلين: يا سيّد متى رأيناك جائعًا، أو عطشانًا،  
أو غريبًا، أو عريانًا، أو مريضًا و سجينًا ولم نخدمك؟ فيجيبهم قائلاً: لأنكم  
لم تفعلوا ذلك بإخوتي هؤلاء الصّغار.

وبدا «سانت كلير» مأخوذًا بهذا المقطع الأخير. فقد قرأه مرّتين متواليتين  
متمهلاً في القراءة الثانية، وكأنّما كان يُردّد الكلمات في ذهنه، ثمّ قال:

- هل توافق يا «توم» أن أولئك الذين أنزل الله عليهم لعنته كانوا علي ما أظن يتصرّفون كما أتصرّف أنا تماما؟ هل كانوا يعيشون حياة مترفة ناعمة خلّت من مرارة الجوع، والعري، والمرض، والاضطهاد؟

ولما كان كلام «سانت كلير» في اعتقاد «توم» صحيحًا فقد لزم الصمت. فنهض «سانت كلير»، وأخذ يزرع الغرفة جيئةً وذهابًا والأفكار السوداء تتلاطم في رأسه. حتي أن «توم» نهبه مرّتين إلي أن جرس تناول الشاي قد قرع فلم يتنبه.

كان «سانت كلير» شارد الذهن، مشتت الفكر طوال فترة تناول الشاي، ثمّ قصد بعد ذلك ومعه «ماري»، و «أوفيليا» حجرة الاستقبال حيث خيم علي الجميع صمت تام. أمّا زوجته فقد انبطحت علي أريكة تُظللها ليفه من الحرير، وراحت تغط في نوم عميق. أمّا الآنسة «أوفيليا» فقد تشاغلت بحبّك الصوف، في حين جلس «سانت كلير» إلي البيانو وأخذ يُداعب مفاتيحه بخفةٍ ورشاقةٍ، وهو يُفكّر تفكيرًا استحوذ علي كيانه كلّ. وما هي إلا لحظة حتي فتح أحد الأدراج وتناول كتابًا موسيقيًا قديمًا، وراح يُقلّب صفحاته، ثمّ قال للآنسة «أوفيليا» :

- هو ذا واحد من كتب أمّي، وهذا هو خطها. تعالي وانظري. لقد نسخته ورتبته نقلًا عن قداس الموتى لموزارت.

واقتربت «أوفيليا»، وألقت نظرة علي الكتاب.

وقال «سانت كلير» :

- إنها قطعة تعوّدت أن تغنيها كثيرًا، وأحسب أن في وسعي أن أسمعكِ  
إياها.

وعزف لحنًا فخمًا وطفق ينشد تلك القطعة اللاتينية القديمة (يوم  
القصاص).

وسأل «سانت كلير» الأنسة «أوفيليا» :

- ما رأيك في إنسانٍ يدعوه قلبه، وتُلحّ عليه ثقافته، وتناديه حاجات  
وطنه إلي القيام بعملٍ نبيلٍ فيصمّ أذنيه دون النداء ويتعامي عنه. رجلًا يقضي  
سحابة عمُره وهو يُشاهد أنواع المظالم والمآسي تنزل ببني الإنسان فيبقي لا  
مباليا حياديًا في حين كان عليه أن ينجز عملاً إيجابيًا لرفع الظلم عن أولئك  
المعذبين؟!!

- يُخَيَّل إليَّ أن علي مثل هذا الرَّجل أن يتوب ويعود إلي ربِّه، وأن يفعل  
ما يدفعه قلبه لعمله.

- أنتِ دائماً واقعيةٌ وعمليةٌ. والذي يبدو لي أنَّ عندك نوعًا من «الآن» التي  
لا تفني، والحاضرة أبدًا في ذهنك!

- ألا تعتقد معي أن خير البر عاجله؟

- مسكينة إيفا الصغيرة. لقد أوصتني بأن أفعل من أجلها أشياء كثيرة!

- وما الذي تنوي أن تصنعه؟

- سأقوم بواجبي في خدمة المُعذِّبين الفقراء علي الأرض عندما يتيسر  
لي ذلك. وسأبدأ طبعًا بأرقائي الذين لم أعمل شيئًا صالحًا من أجلهم

بعد. وأرجو أن يوفقني الله لعمل كلِّ ما من شأنه أن يُبعد الظلم عن هذه الطبقة الرقيقة كُلِّها، ومحو العار الذي يلطخ سمعة بلادي بين سائر الأقطار المتمدنة.

- أعتقد أنَّ من الممكن أن تنهض هذه الأُمَّة بالاستناد إلى الإرادة وحدها بعد تحرير الأرقاء؟

- لا أدري ما أقول وما أفعل، فعصرنا هذا هو عصر العمل الحق لا القول. وقد سرت في العالم موجة من الرَّحمة الإنسانيَّة. وكثرت البطولات وأعمال الخدمة البشرية في كلِّ مكان علي هذه الأرض. ولعلك تذكرين أن نبلاء هنغاريا (المجر) قد عمدوا لتحرير عبيدهم الذين يعدون بالملايين. وتحملوا الخسائر المادية الضخمة المترتبة علي هذا العمل النبيل. ومنْ يدري؟ فقد يكون بين مواطنينا بعض ذوي النفوس الكبيرة الذين لا يقيسون قيمة الشرف والعدل بالدولارات!

و صمّت الاثنان لحظة. وعلَّت وجه «سانت كلير» مسحة حزينة حالمة، ثمَّ قال:

- لستُ أدري ما الذي يجعلني أفكّر في أمِّي تفكيرًا متواصلًا هذا المساء، وأني لأحس إحساسًا غريبًا وكأنّما هي تُقيم قربي. إني لا أفتأ أفكّر في أشياء كانت معتادة أن تقولها. غريبٌ، ما الذي يعيد إلينا أمور ماضية حيّة قوية في بعض الأحيان؟!

وصمّت «سانت كلير» بضع دقائق أخرى، ثمَّ قال:



- أري من الخير أن أقصد المدينة، هذا المساء لأستطلع الأخبار، ولن أغيب إلاّ مدة قصيرة.

وتناول قبعته ومضي. ولحق به «توم» إلي خارج الفناء، وسأله إذا كان يريد أن يصطحبه معه. فردّ عليه «سانت كلير» :

- لا، يا «توم» سوف أعود بعد ساعة.

وجلس «توم» علي الشرفة. كانت أمسية مقمرة جميلة، فراح يتأمل اندفاع الماء وانطلاقه من فم البركة، ثمّ سقوطه في طواحينها. وكان يستمع إلي خريف الماء المطرب. وخطر في باله كوخه القديم وزوجته وأولاده. وتخيّل ساعة يصبح فيها رجلاً حُرّاً. فيستطيع العودة إلي أسرته متى شاء. ثمّ قاده تفكيره إلي ما يتوجب عليه من الجهد المتواصل لشراء زوجته وأولاده. وامتدت يده فجأة إلي عضلات ذراعيه المفتولة، فشعر بنوع من الغبطة إذ رأي أن عضلاته القويّة سوف تصبح بعد قليل ملكه وملك أسرته. وفكّر في سيّده النبيل، وفي ابنته الراحلة إيفا.

وتغلّب عليه النوم فنام عميقاً، ونهض علي قرعاتٍ قويّةٍ تضرب علي الباب، وعلي صراخٍ عالٍ ينبعث من وراء الباب. فأسرع «توم» إلي المكان الذي تصدر منه الجلبة والضجة، فرأي جماعة من الرّجال يمشون بخطواتٍ ويئدةٍ بطيئةٍ وهم يحملون جسمًا بشريًا ملفوفًا بعباءةٍ. وموضوعًا علي لوح خشبي. واستطاع «توم» علي ضوء المصابيح أن يتبيّن وجه الرّجل المحمول علي الأكتاف، فأرسل صيحة مؤلمة بأئسة تجاوبت أصداؤها في أرجاء القصر كلّ. فتقدّم الرّجال إلي حجرة الاستقبال حيث كانت الأنسة «أوفيليا» جالسة تحوّل الصوف.

لقد كان «سانت كلير» الذي دخل إلي أحد المقهى لبيتاع صحيفة مسائية، وفيما كان يتصفح عناوين الجريدة نشبت مشاجرة بين رجلين من رواد المقهى كانا مخمورين. فحاول «سانت كلير» واثان آخران أن يفصلوا بين المتشاجرين ويصلحوهما، ولكن عبثًا فقد استل أحدهم سكينه وأراد أن يضرب خصمه فأصاب «سانت كلير» في جنبه، بينما كان يسعى لانتزاعها من يد حاملها. ولدي وصول الجمع وهم يحملونه جريحا ضح المنزل بالصياح والعيول والنحيب.

وبكي الأرقاء، ومزقوا صدورهم، وألقوا بأنفسهم علي الأرض وأخذوا ينوحون. ولم يبق فيما بينهم أحد محتفظًا برباطه جأشه وحضور ذهنه سوي «توم»، و«أوفيليا»، أما «ماري» فقد أصيبت باضطراب هستيري عنيف. وقد طلبت «أوفيليا» من الرجال أن يمددوا الجريح علي أريكة في حجرة الاستقبال كانت قد أعدت سريعًا، فوضع الجسد الدامي عليها.

كان «سانت كلير» فاقد الوعي بسبب كثرة الألم ونزف الدم، ولكن «أوفيليا» لجأت إلي إجراء الإسعافات الأولية، فضمدت الجراح ونظفته فتاب إلي رشده وفتح عينيه بدهشة علي الجمع المُحتشد حوله، وأخذت عيناه تنتقلان من مكان إلي آخر حتي استقرتا آخر الأمر علي صورة أمه.

ووصل الطبيب بعد قليل ففحصه. وقد اتضح للحضور من شحوب وجهه بأنه لا أمل في نجاة الجريح من الموت، ولكن الطبيب انصرف لتضميد الجرح بشكل أفضل، وكانت تُساعده «أوفيليا»، و«توم».

وبينما كان الأرقاء ينتحبون ويكون وهم متجمعون حول أبواب الشرفة ونواذرها. قال الطبيب:



- ينبغي أن نبعده هؤلاء الفضوليين من هنا. علينا أن نفتش عن أي شيء يدعو لراحة الجريح واحتفاظه بالهدوء والسكينة.

وفتح «سانت كلير» عينيه وهدق بالمخلوقات التعسة التي كانت الآنسة «أوفيليا»، والطبيب يدفانها إلي الخارج، وقال:

- مساكين!!

وطغت علي وجهه علامات تويخ وتأنيب ذاتي مرير.

ولم يستطع «سانت كلير» أن ينطق إلا قليلاً. كان مستلقياً مغمض العينين، ولكن كان واضحاً أن أفكاراً مريرة كانت تراوده. وبعد برهة قصيرة وضع يده علي كتف «توم» الذي كان راکعاً إلي جانبه وقال:

- «توم» إني أموت.. صَلِّ من أجلي.

واندفع «توم» يبتهل ويصلي بكل قوته وروحه من أجل إنقاذ الروح المُعذبة الراحلة التي كانت تنفذ إلي الوجود من خلال هاتين العينين الزرقاوين الحزيتين. كان يصلي «توم» صلاة حارة حقيقية تصحبها ابتهالات قویة ودموع غزيرة.

وعندما انقطع «توم» عن الصلاة مدّ «سانت كلير» يده نحوه وأمسك يده وتفرد فيه ملياً من دون أن ينطق بكلمة. ثمّ أغمض عينيه المتعبتين وطفق يُدمدم ويهمهم أحياناً من أنشودة يوم القصاص الكنائسية، ويده ما تزال قابضة علي يد «توم». وأمّا الكلمات التي خرجت من فمه ذلك المساء فكانت تطوف في خلايا عقله منذ زمن طويل. وكانت كلمات الترنيمة تخرج من فمه محطمة وغير مفهومة. فقال الطبيب إنه يهذي.

فقال «سانت كليير»، في عزمٍ:

- لا، فقد بلغت نهاية الطريق.

وأنهكه جهد الكلام. ورائت علي وجهه صُفرة الموت، تُرافقها سمات  
وعلامات طمأنينة وسلام أشبه بتلك التي تعلو وجه طفل مُتعب مستسلم  
للرقاد.



وظلّ كذلك بضع لحظات قصيرة، ثمّ  
رفع يده وظلّل بها رأسه، وقبل أن تفيض  
روحه فتح عينيه وظهر فيها بريق البهجة  
والاعتراف بالامتنان، ثمّ قال:

- أمّاه.

ثمّ أسلم الروح.

سانت كليير في لحظاته الأخيرة



العمر «توم» يواجه الخطر من جديد

**Uncle Tom is facing the danger of a new**

بعد انقضاء أسبوعين علي وفاة «سانت كلير» أقبل «أدولف»، أحد الأرقاء الذي سحق قلبه موت سيّده، علي «توم»، وقال في جزع:

هل تعرف يا «توم» أننا سنباع كُننا في وقتٍ قريبٍ؟

فسأله «توم» في دهشةٍ:

- وكيف عرفت؟

- لقد سمعت مولاتنا ماري تُحدّث أحد المُحامين حين كنت خلف الستائر لا يراني أحد. وقد فهمت من كلامها أنّها قرّرت بعد أن اتصلت عدة مرّات بشقيق سيّدنا الراحل أن تبيع البيت وجميع الخدم ما عدا ما تملكه هي شخصيًّا، لتتمكّن بعد ذلك من العودة إلي مزرعة أبيها.. ومعني ذلك أنّنا سنباع جميعًا عمّا قريب في المزاد العلني.

- لتكن مشيئة الله.

وطوي «توم» ذراعيه وأخذ يبكي.

- إنّ الزمن لن يوجد علينا بسيدٍ مثل الذي فقدناه، ولكنني أفضل أن أباع في سوق الرقيق علي أن أبقى تحت سلطة مولاتي هذه!

لم ينطق «توم» بأيّ كلمة علي هذا النبأ المؤلم، فقد كان قلبه يعتلج بالحزن والقلق، وبرز له طيف حريته والعودة إلي بيته بعيد المنال كمَنْ

تحطم قاربه علي الشاطئ، أو كمن يشكو العطش فراح يُمني نفسه بما يراه أمامه ظاناً أنه ماء فإذا هو سراب. ومنذ تلك اللحظة، أخذ «توم» يودع تلك الأحلام التي كانت تراود نفسه، وشدّ علي صدره وراح يزرف دموعاً مريّةً، ثمّ حاول أن يُصلي. وبعد ذلك رأى أن يلجأ إلي «أوفيليا» التي باتت تعامله باحترام أكثر بعد وفاة «إيفا»، فقال لها:

- أرجو يا آنسة أوفيليا أن تُساعديني، فقد وعدني سيدي سانت كليز أن يمنحني حريتي، وقال أنه شرع في اتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك. فهل يمكنك أن تفضلي وتُحدثي مولاتي في موضوعي هذا علّها تعتقني؟  
- سوف أحدثها بالأمر يا توم. وسأبذل جهدي لإقناعها.

وتحاملت «أوفيليا» علي نفسها وقصدت غرفة «ماري»، لتبحث معها أمر تحرير «توم»، فوجدتها تنتقي هي و«جين» Gene نماذج من القماش الأسود الرقيق.

فقالت «ماري»:

- هذه جيدة، ولكن لستُ علي يقينٍ من أنّها تصلح للبس الحداد مئة بالمئة!

فقالت «جين»:

- ولمّ لا! لقد ارتدت زوجة الجنرال درينون Drbenon ثوبًا من هذا القماش بعد وفاة زوجها في الصيف المنصرم. ولقد كان حقًا ثوبًا لطيفًا.

وهنا التفتت «ماري» إلي «أوفيليا»، وسألتها:

- ما رأيك؟

- إنها مسألة عُرف علي ما أظن، وفي استطاعتك أن تُقرّري أفضل ممّا أستطيع أنا.

- أتريدين الحق؟ إني لا أملك ثوبًا واحدًا أستطيع أن البسه في هذه المناسبة. ولما كنت عازمة أن أُغادر المنزل في الأسبوع القادم، فقد غدا لزامًا عليّ أن أبتاع ثوبًا أسود جديدًا.

- وستذهبين بهذه السرعة؟

- أجل! فقد كتبت لشقيق سانت كلير، وهو يعتقد مع مُحاميه أنّ علينا أن نبيع الأثاث والأرقاء في سوق المزاد، علي أن يبقى البيت في عُهدة المُحامي لبيعه.

- هناك مسألة أحبّ أن أحدثك بها. ذلك أنّ أوغسطين كان قد وعد «توم» بأن يمنحه حريته وشرع في اتخاذ الإجراءات الشرعية المطلوبة. فالذي أرجوه أن تعلمي جهدي لإكمال هذه الخطوة النبيلة التي بدأها سانت كلير ولم يتمها.

- لا، إني لم أعمل شيئًا من هذا القبيل. فتوم من أعلي الأرقاء عندنا، وليس في استطاعتي أن أُفرط به مهما كان الأمر. ثمّ ما الذي يسعي وراءه لو أطلقت حريته. أعتقد أنّ من الخير ألف مرّة أن يظلّ عبدًا رقيقًا من أن يعيش جائعًا عُريانًا!

ولكنّه توّاق إلي الحرية. وقد وعده سيّده بإعتاقه.

فاستاءت «ماري»، وقالت بجفاء:

- تقولين إنه توّاق إلي الحرية، وأستطيع أن أقول لك إنّهم جميعًا تواقون إلي التمتع بالحرية من دون أن يعرفوا ما هي الحرية، فقد اعتادوا أن يتدمروا، ويشكوا، ويبكوا، وأن يتشدقوا لامتلاك ما ليس بأيديهم! وعلي

كُلِّ حالٍ فإنِّي أخالف مبدأ عتق العبيد مُخالفة صريحة. فإذا ظلَّ العبد في كنف وحماية سيِّده يبقى حسن السيرة صالح الخلق، أمَّا إذا أُتِج له ونال حرَّيته عندئذٍ يتردِّي في مهاوي البطالة والكسل فينقطع عن العمل، ويتعاطي الفحش والفجور وينتهي به الحال أن يُصبح مخلوقاً مزرئاً لا نفع يُرجي منه. لهذا فإنِّي أعتقد أن إعتاق العبد يضره ولا يخدمه في شيءٍ.

- ولكن «توم» رجل مستقيم ونشيط وحسن السيرة.

- لستُ بحاجةٍ إليّ مَنْ يُخبرني عن حقيقتهم. فقد شاهدت مثله من الأرقاء مئات يحافظون علي سلوكهم الطيب ما داموا في خدمة سيِّد يتعهدهم بالعناية.

- ولكن ألا تخشين أن يُباع «توم» إلي سيِّد جديدٍ لثيم الطبع؟

- هذا هراء! وإنَّه من قبيل الصدفة أن يقع عبد طيب القلب كتوم في يد مالك سيء الخلق. وأعتقد أن أكثر الأسياد طيبو القلب وأصحاب ضمائر حيَّة رغم كل ما يُقال عنهم ويشاع. فقد ترعرعت في الجنوب، وهناك لم أعرف سيِّداً عاملاً أرقائه بغلظةٍ لا. لا تقلقي فأنا مطمئنة لهذه الناحية.

وهنا أدركت «أوفيليا» أن «ماري» لا تُريد أن تلبِّي طلبها، وأنَّها أخفقت في مهمتها، فاكتفت بهذا القدر من الرجاء، ثمَّ رجعت إلي «توم» خجلة حزينة النفس. ولكنَّها لم تشأ أن ترمي سلاحها دفعة واحدة. فقد أبت عليها كرامتها أن تكف عن مساعدة ذلك العبد الرقيق العجوز، فقامت لتوها وكتبت رسالة إلي السيِّدة «شيلبي» وذكرت ما يُقاسيه «توم» من صنوف العذاب، ورجتها أن تعمل اللأزم لاقتدائه.

وشرعت الآنسة «أوفيليا» بعد ذلك تستعد للعودة إلي موطنها في «نيو أنجلاند».

## في سوق النخاسة يباع العبيد

### In the slave market sold slaves

سيق العبيد الذي تركهم «سانت كلير» بعد موته، وفيهم «توم»، و«أدولف» إلي سوق النخاسة ودخلوا مستودع الرقيق حيث يمكنون قليلاً، قبل أن يعرضوا للبيع بطريقة المزايمة العلنية.

كان «توم» يحمل حقيبة كبيرة ملئي بالثياب شأن معظم الأرقاء رفقاءه. وهناك وجدوا عددًا غيرًا من الأرقاء المُعدين للبيع، يلهون ويضحكون.

وقد قال أحد النخّاسين:

- آه. أهلاً وسهلاً. أدخلوا يا أبنائي ادخلوا.

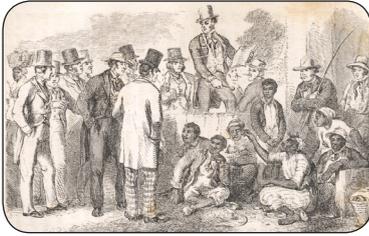
ثمّ التفت إلي زنجي كان يُرسل فكاهات نايبة قبيحة ووضيعة تُثير الضحك، وأردف:

- سامبو Samboo لا تبخل علي زبائننا الجُدد بنوادرك. إن أرقائي يجب أن يكونوا دائماً في غاية المرح.

وكان بديهيًا أن يشمئز «توم» من صيحات العبيد وضحكاتهم، فجلس علي حقيبته مُشيحًا بنظره عن الجمع وسادًا أذنيه عن صيحاتهم. وراح يغفو وقد أسند رأسه إلي جدار الغرفة. والمعروف أن المُتاجرين بالأرقاء يبذلون

جهودهم القصوى لإحاطتهم بجوٍّ من الطرب الصارخ ينسون في عمرته  
بؤسهم وشقاءهم، ويُلهمهم عن التفكير بمصائبهم التعمسة.

وكان كلُّ زنجي يُعرض للبيع يُحاط بعنايةٍ فائقةٍ واهتمامٍ بالغ. حيث  
يُدربونهم علي قسوة القلب وانعدام المشاعر. ثمَّ كانوا يُأخذون إلي مكانٍ  
صَحِّي يُناسب مزاجهم، فيه ماء غزير، ويطعمون بالأغذية الدسمة. وإذا  
أُصيب بعض العبيد بالهزال علي الرغم من هذه العناية، يهرع التاجر آنذ  
للترويح عنهم بالغناء والعريضة طوال النهار، فيسمعهم موسيقي بلادهم  
وبآلاتها نفسها فيسرون ويغنون ويرقصون، علي أنغام الموسيقي. وأمَّا العبيد  
الذين يعصون أوامر التجار، ويرفضون الأخذ بأسباب المرح والبهجة، فتنزل  
بهم أصناف شتي من التعذيب والتكيل.



توم في سوق النخاسة

وبحكم هذا التدريب. يري  
أولئك البائسون أنفسهم مضطرين  
للتظاهر بالبهجة والسرور طمعًا في  
أن يشتريهم سيّد شهم، أو ليتفادوا  
عذابًا مضمينًا قد يُحمّلهم إيّاه النخّاس  
إذا ما أظهر سوق المزاد أنّهم بضاعة  
راكدة وكاسدة.

- ماذا تفعل هنا أيها العبد؟ ما بالك؟ قل..

قال «سامبو» مخاطبًا «توم» بلهجة قاسية صارمة. وكان «سامبو» هذا  
عبدًا أسود فاحمًا، ضخم العجته نشيط الحركة، يفيض حقدًا وكُرْهاً. فأجابه  
«توم» بأنّة وتمهلٍ:

- سوف أباغ بالمزاد العلني غداً.

- سيباغ بالمزاد العلني. هاها. اسمعوا يا أولاد هذه النكتة!

وحاول «سامبو» أن يتحرّش بـ «أدولف» فصرخ هذا في وجهه:

- أرجوك دعني وشأني.

فقال «سامبو» :

- والآن أيها الأولاد، انظروا إلي هذا العبد المبيض الذي تفوح منه

الروائح العطرية!

واقترب منه وكأنه يريد أن يشمه.

فزأر «أدولف» بصوت عالٍ:

- أقول لك ابتعد عني!

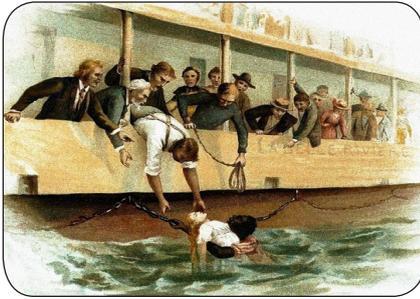
ولكن «سامبو» استمر في تندرته السمج، فما كان من «أدولف» إلا أن وثب عليه وراح يوسعه ضرباً. وضحك الأرقاء وصاحوا صيحات الشماتة. وما هي إلا لحظة حتى كان النخّاس بالباب، فصرخ وهو يهز صوته الطويل، قائلاً:

- ما هذا؟ أين النظام؟

وعاد الجميع إلي أماكنهم، ماعدا «سامبو» الذي أطلع سيّده علي أن العناصر الجديدة التي دخلت إلي العنبر هي التي أحدثت الشغب. فاقترب النخّاس من «توم»، و«أدولف» ووزع عليهما كيلاً من الكلمات الخارجة،

والركلات المؤلمة. ثم أصدر أوامره للجميع بأن يحافظوا علي الهدوء والسكينة وعاد من حيث أتى.

أما ما كان يجري في مضجع النساء و أماكن نومهم، فكان يختلف عن هذا تمامًا، فقد كانت هناك مخلوقات لا عدد لهن انبطن علي الأرض، لهن ألوان مختلفة من الأبنوس الأسود حتي الأبيض الأشقر، وكذلك تختلفن في الأعمار فها هي فتاة جميلة لا يزيد عُمرها عن العاشرة بيعت أمها فتراها تبكي وليس من يكفكف دموعها، وتلك زنجية عجوز معروقة الجلد تنبع ذراعها الهزيلتان وأصابعها المعضمة عن شدة كفاحها وشقائها في الحياة. فهي تنتظر أن تُباع غدًا كما يُباع المتاع الذي لا قيمة له بثمنٍ زهيدٍ.



وهناك امرأتان في الزاوية متمازان عن باقي النساء البالغ عددهن الخمسين أو أكثر الراقدات في المهجع، بحُسن الثياب والهندام وجمال الوجه. وقد كانت إحداهن

امرأة في منتصف العِدِّ العبيد يغنون ويرقصون في انتظار بيعهم

الخامس من عُمرها ترتدي شبه عمامة حمراء زاهية علي رأسها وتلبس ثوبا نظيفا أنيقًا.

وكانت الأخرى فتاة في الخامسة عشرة من عُمرها هي ابنتها. كانت الأمُّ «سوزان» Susan وابنتها «إميلين» Emmeline تعيشان سابقًا في منزل سيِّدة كريمة من سيِّدات «نيو أورليانز»، فتعلمتا القراءة والكتابة وألِّمَّتا ببعض

تعاليم الدين المسيحي. ولكن ابن سيّدها الوحيد، مدير العمل في ممتلكات والده، كان طائشاً مُبذراً فأنتهي به الأمر إلي الإفلاس، فكان لزاماً عليه أن يبيع أرقائه في سوق العبيد، وبين هؤلاء «سوزان»، و «إميلين».

وقد قالت البنت لأُمّها، وهي تبكي في صمتٍ:

- ماما ضعي رأسك في حضني وحاولي أن تُسلمي جفونك للنوم.

- ليس لي رغبة في النوم يا إميلين. وكيف أستطيع أن أنام وأنا أعلم أنّها قد تكون الليلة الأخيرة التي يضمنا بها سقف واحد يا حبيبي!

- آه يا ماما. لا تقولي هذا. ومنْ يدري؟ فلعلّ رجلاً واحداً يبتاعنا معاً!

- أرجو ذلك ولكني لا أري ما يدعو للتفاوض.

- ولماذا يا ماما؟ ألم يقلّ الرّجل إنّنا مليحتان، وإنّنا سنكون موضع اهتمام

المشتريين؟

ورجف قلب «سوزان» إذ تذكّرت نظرات النخّاس إلي ابنتها وكلماتها لها، وتذكّرت أيضاً كيف أنّه تطلع إلي يديّ «إميلين» ورفع شعرها الجعد، وقال بدهشة:

- إنّ ابنتك هذه سلعة من الدرجة الأولى!

وقد خافت «سوزان» علي «إميلين» ابنتها، وخشيت أن تُباع إلي مَنْ يُسخرها لحياة الإثم والعار، كما تخاف كلّ امرأة متدينة علي فئاتها. ولكن ما عساها تفعل؟ فهي علي كلّ حالٍ محرومة من الحماية وبعيدة عن كلّ أمل.

- لنحاول يا ماما أن نبدو أكثر ما يمكن من النضارة والحيوية فقد يُعجب بنا سيّد كريم فيشترينا سويًّا.

- أريد منك أن تُسرحي شعركَ غداً وتتركه علي سجيته وطبيعته.

- ولكن ذلك يُقلل من حُسن مظهري وجمال شعري يا أمّاه!

- هذا صحيح، ولكن إذا فعلتِ هذا فقد يشترِك رجل شهيم لا يسعي وراء الفتنة.

- لا أفهم قصدك يا أمّاه؟

- أعني يا بُنيّتي أن العائلات العريقة في النسب والأصل ترغب في شرائك أكثر لو بدوت زاهدة في التأنق والتبرُّج. لا تسأليني السبب فأنا أعرف طباعهم أكثر منك.

- حسناً يا ماما سوف أفعل ما ترغيبين فيه.

- ولنفرض يا عزيزتي أنّنا افترقنا غداً أو بعد غد، وأنّه قدّر لكُلّ منا أن تُباع إلي سيّد فتذكّري دومًا ما علمتك إياه من صلاحٍ وتقوي وجميع ما علمتك مولاتنا السابقة. ولا تتركي أبدًا كتابك المقدس ومجموعة الترانيم، فإذا كنتِ وفيّة للربّ الإله فالله يكون وفيًّا لكِ.



وتحت رواق كبير فخم، كان رجال من مختلف البقاع يذرعون الأرض المبلطة بالرّخام جيئةً وذهابًا، وفي كلِّ جانب من جوانب الرواق المستديرة، كانت منابر منتصبة ليقف عليها الدلالون وجماعاتهم. وقد بدا حتي الآن



منبران للبيع متقابلان من البقعة المستديرة. في أحد المنابر كان يقف أرقاء «سانت كلير» ومعهم «توم»، و «أدولف». وفي المنبر الآخر المُقابل كانت تقف «سوزان» الأُمّ وابتها تنتظران دورهما بحزنٍ وانكسارٍ.

وتجمّع حول الأرقاء المرموقين أناسٌ عديدون، بعضهم كان ينوي الشراء، والبعض الآخر همّة تضيع الوقت بالتحديق في وجوه وأجساد الأرقاء. وكان التجار يتفحصون وجوه العبيد ويبدون آراءهم في كيفية أحوالهم الصحيّة. كما يتحدّث تجار الخيول عن محاسن الخيل، أو عيوبها عندما يكونون في سوق الخيل.

- مرحبًا، ما الذي جاء بك إلي هنا؟

قال أحد الشبان ذلك، وهو يضرب براحة يده علي كتف شاب أنيق كان يفحص «أدولف» مستعينًا بإحدى النظارات.

- حسنًا إنني أبحث عن خادم. وقد سمعت أن أرقاء سانت كلير يُعرضون للبيع.



أدولف وتوم يعرضون للبيع

- لا أنصحك بشراء أي من أرقاء سانت كلير، فهم مترفون مدللون. - لا تخشي عليّ، فإني لن ألبث حتي أفهمهم حقيقة مركزهم. وأن سيّدهم الجديد غير سيّدهم القديم. ويخيّل إليّ أنني سوف أشتري هذا الفتى، فشكله يعجبني.

وكان «توم» مستغرقاً في التأملات العميقة، ناظرًا إلي الوجوه التي تحوم حوله أملاً في أن تقع عيناه علي إنسانٍ تأنس إليه نفسه، ويرتاح إليه قلبه ليدعوه بحق مولاه. لقد شاهد رجالاً عديدين، كباراً وصغاراً، ضعافاً هزلاء و ضخماً أقوياء، ضاحكين وعابسين، قُساء يسوقون أرقائهم كما يسوق البشر البهائم. أو يقبضون علي عبيدهم كما يقبض إنسان علي قطعة من الحطب ليضعها في النار أو في سلة المهملات، وأخيراً لم يجد بينهم «سانت كلير»!!

وقبيل البدء بالبيع، ظهر في الجموع وعلي المركز الذي يقف عليه «توم» رجل قصير القامة، مفتول الساعدين كان يشق طريقة بقوةٍ و حزم، فتأمله «توم» جيداً بقميصه الرقيق، و بنطاله القديم المتسخ فهو يُشبه المرابين. حتي إذا بلغ الموضوع حيث يقف أرقاء «سانت كلير» أخذ يتفحصهم واحداً واحداً. ولم يكن «توم» يراه قربه حتي شعر بقشعريرة دُعر مفاجئ، إذ كان واضحاً أنّ الرّجل علي قصر قامته يبدو قوي الجسم رديء الطبع. وكان ذا فم ضخم كبير يمضغ لفافة التبغ ثمّ يبصق بعصارة التبغ بين الفنية والفنية علي الأرض، وكانت يدها كبيرتين إلي درجةٍ قصوى، ويعلو ساعديه شعر كثيف قدر، وكانت أظافره كريهة بشكلٍ يُثير التقزز والاشمئزاز في النفس.

وحين وصل الرجل بفحصه إلي «توم»، أمسكه من فكيه و اضطره أن يفتح فاه ليري أسنانه، كما أكرهه علي أن يخلع رداءه ليري عضلاته، ثمّ طلب منه أن يقبل ويذهب، ويقفز و يشب، وبعد ذلك سأله باختصارٍ:

- أين نشأت أيها العجوز؟

فأجاب «توم»، وهو يتطلع حوله كمن يحاول النجاة من يد هذا الشرير:

- في كانتاكي أيها السيّد.



- وما كان عملك؟

- كنت أعني بمزرعة مولاي.

- غير معقول!

و تابع الرَّجل الغليظ سيره، ثمَّ وقف لحظةً أمام «أدولف»، وبصق بعدها مقدارًا كبيرًا من عصارة التبغ علي حذائه الملمع ومضي في سبيله. حتي إذا بلغ حيث كانت «سوزان»، وابتتها «إميلين»، تمهل في الفحص ومدَّ يده القذرة الغليظة إلي ذراع البنت وشدَّها نحوه، ثمَّ مدَّ يده إلي عنقها وجذعها، ولمس ذراعها بشكل مشير، بعدها تطلع إلي أسنانها ثمَّ دفعها إلي صدر أمَّها التي كانت شاحبة الوجه خوفًا علي ابتتها من كُلِّ شرير صَلِفٍ متكبر يعتدي عليها بنظراته أو بلمساته.

وارتاعت الفتاة وأخذت تصرخ.

فصرخ النخَّاس في وجهها:

- كفي أيتها الفاجرة! ليس لك أن تنتحبي. وليس المكان للصراخ. فأنتِ مُعدَّة للبيع والبيع قريب. وبدأ البيع فعلاً.



أحد النخَّاسين يفضص توم

وبيع «أدولف» بثمنٍ كبيرٍ للشباب الذي صمم علي شرائه من قبل. وتوزع أرقَّاء «سانت كلير» الآخرون بين مشتريين مختلفين.

وقال النخَّاس لـ «توم»:

- والآن جاء دورك. تقدِّم.. ألا تسمع!



النحاس يفضح إميلين بفضافة

ووقف «توم» علي المنصة، وأخذ ينظر بجزع إلي الجمع المُحتشد حوله. وقد بدا له أن كُل شيء يمتزج في جلبه عامة غير واضحة. صراخ الدلال وصيحاته وهو يُعدّد مزايا السلعة التي يعرضها للبيع باللغتين الإنجليزية والفرنسية، والأصوات المنبعثة من

جماعة المشترين، إذ كانوا يُقدمون عروضهم ويطرحون أسعارهم بنفس اللغتين. وما هي إلا لحظة حتي رست ضربة المطرقة الأخيرة إيذاناً بأن السعر الأخير هو الذي ربح للبيع. وما كاد الدلال يلفظ الكلمات الأخيرة والرقم الذي انتهى إليه السعر حتي التفت «توم» إلي الرجل الذي رست عليه المزايدة.

وبعد أن بيع «توم» دفعه الدلال عن المنصة، وأمسكه الرجل الجلف القاسي القصير من كتفه ودفعه إلي زاوية قصية بعيدة بعنف، وقال له بصوت أجش خشن:

- قف هناك.

ولم يفهم ما يرمي إليه هذا السيد الجديد، والمزايدة ما تزال مستمرة، وسقطت المطرقة من جديد وهذا كان معناه أن «سوزان» قد بيعت، وها هي تنزل عن المنصة وتقف مترية متمهلة وقد تطلعت إلي سيدها الجديد بلهفة وحرارة، وهو كهل تبدو علي ملامحه أمارات الاحترام والطيبة، وتنظر في الوقت نفسه إلي ابنتها التي كانت تمدّ يدها نحوها، وقالت للسيد الجديد:

- أرجوك أيها السيّد، أرجوك أن تشتري ابتتي.

فأجابها الرّجل برقة:

- يُسعدني أن ألبّي رغبتك، ولكنني أخشي ألاّ تُمكنني أموالِي من إنجاز طلبك.

قال الرّجل هذا الكلام، ونظر بشوقٍ أليمٍ إلي الفتاة وهي ترتقي المنصة وتنظر إلي ما حولها وهي خائفة مضطربة.

لقد شاع دم الخجل من وجنتيها وكانت من قبل شاحبتين، ولمعت عيناها ببريقٍ جذابٍ فتأوهت أمّها بعد أن رأت ابتتها الجميلة علي هذا النحو، بل كانت أجمل ممّا رأتها في أيّ يومٍ مضى. ولم يتأخر الدلال في العرض، فأفاض في وصف محاسن الفتاة بلغةٍ هي مزيج من الإنجليزية والفرنسية، فأخذت الأرقام تقفز قفزاتٍ سريعةٍ مجنونة.

- سوف أفعل أقصي ما أستطيع أن أفعله!

أجاب الرّجل الشهم أمّته الجديدة. وراح يلقي بدلوه في المزاد. وما هي إلاّ لحظاتٍ حتي بلغ ثمن الفتاة «إميلين» حدًا يعجز هذا الرّجل الشهم عن دفعه. فلاذ بالصّمت وازداد الدلال صراخًا وحماسةً، ولكن المتزايدين بدأوا يتركون ساحة المزاد واحدًا بعد الآخر، حتي أنّه لم يثبت في الميدان غير مواطنٍ أرستقراطي قديم، وصاحبنا مولِي «توم» الجلفِ القصير القدر.



إميلين تنفصل عن أمها لتباع لرجل قاسي

وزايد الارستقراطي بضعة  
دولارات قاصداً تخويف  
منافسه. ولكن خصمه القصير  
كان أكثر منه عناداً، ومحفظة  
نقوده أضخم. وما هي إلا  
لحظات قصيرة حتي أعلن

الدلال أن المزايدة رست علي الرّجل القصير القدر. وهكذا استولي هذا  
الشرس القاسي علي الفتاة «إميلين» جسداً وروحاً إلي أن تأتيها رحمة من  
الله.

وكان سيّدها هذا يدعي السيّد «ليغري». وكان يملك مزرعة قطن علي  
النهر الحمر، فانضمت إلي «توم» ورجلين آخرين. وغاصت الفتاة المسكينة  
في بكاءٍ مريّرٍ يقطع الأوصال.



## الرحلة عبر النهر الأحمر

### The trip across the Red River

كان مركبٌ صغيرٌ حقيرٌ يشق عباب النهر الأحمر، وكان «توم» في ذلك المركب مُكبَّل القدمين، والأصفاذ في رسغيه، وكان مُلقِي في القسم السفلي من المركب. ولكن الأصفاذ والقيود لم تكن شيئاً إزاء القيود النفسية التي تجثم علي فؤاده. لقد خبا نور تفاؤله فلا أمل له في النجاة من الرق. وخبأ كلَّ نور في عينيه، فلا قمر ولا نجوم تلفت نظره. وقد أخذ يتذكَّر مجري حياته، وصارت تمرُّ به صور ماضية ومستقبله كما تمرُّ به أنثد الأشجار الباسقة الخضراء. تذكَّر كوخه القديم في «كانتاكي»، وزوجته، وأولاده. ثمَّ قصر «سانت كلير» بترفه وروعته، ورأس «إيفا» الذهبي، وعينيها الشبيهتين بعيني فريسة ضحية. وتذكَّر «سانت كلير» الرَّجل الفخور بنفسه، الظريف الساخر، طيب القلب والكريم أبداً، وساعات الرَّاحة الممتعة. لقد تذكَّر كلَّ هذا، وأسف أنه لن يُتاح له أن يعود إلي ذلك مرَّة ثانية.

كان سيِّد «توم» الجديد «سايمون ليغري» Simon Legree قد ابتاع عدداً من الأرقاء يبلغ الثمانية في «نيو أورليانز»، وساقهم جميعاً مُكبَّلين بالأغلال زوجاً زوجاً إلي المركب البخاري المستعد للرحلة عبر النهر الأحمر.

وعند وصول رَتَلُ العبيد إلى المركب في صفٍ، وسارت بهم في  
عباب النهر، جاءهم سيّدهم الجديد وعلامات القسوة علي وجهه. وصار  
يستعرضهم واحدًا واحدًا حتي إذا ألقى نظرة علي «توم»، وكان ما يزال  
يرتدي بذلته المُخَطَّطة من الجوخ الجيد، وقميصه المُنشي، وحذاءه اللّامع،  
صاح به:

- قف أيها العبد النكر!

ووقف «توم».

- اخلع هذه العُقْدة!

وفيما كان «توم» يُحاول بيديه المصفتين بالأغلال أن يحلَّ عُقْدة رقبته،  
تقدّم «ليغري» لمساعدته بأن جذبها في غلظةٍ وعنقٍ من عنقه ودسها في  
جيبه.

وهنا عاد «ليغري» إلي حقيبة «توم»، وكان قد فتشها قبل ذلك، وسلب  
منها ما حلا له. فقد انتزع منها بنطالًا قديمًا، وسترة بالية كان «توم» متعودًا  
أن يلبسهما أثناء عمله في الإسطبل، وقال مُحرّرًا يدي عبده من أغلالهما  
ومُشيرًا إلي موضعٍ مستترٍ بين الصناديق:

- اذهب إلي هناك واخلع ثيابك هذه والبس تلك الثياب البالية.

وامثل «توم» لأمر سيّده الفظ.

ثمّ رجع بعد لحظات، وقال «ليغري»:

- قلت لك اخلع نعليك.



وخلع «توم» نعليه.

فصاح به مولاه وهو يلقي إليه حذاءً ضخماً غليظاً كان يلبسه الجميع:

- البس هذا.

ورغم كُّل هذه الإهانات، لم ينس «توم» أن يدس الكتاب المقدس الغالي علي قلبه في أحد جيوبه. وقد أحسن صنعاً بهذا. ذلك لأن «ليغري» أخذ يفتش جيوب الطقم الذي نزعه عن «توم»، بعد أن أعاد الأغلال إلي يدي العبد العجوز. ولقد عثر أثناء ذلك علي منديل حريري قديم في جيبه، كما وقع علي أشياء أخري كان «توم» يحملها في جيوبه إذ كانت تُذكره بـ «إيفا». ولمّا كانت هذه الأشياء لا ترضيه فقد قذف بها في مياه النهر.

وكان «توم» قد نسي كتاب التراتيل فلم يُخْفِهِ كما أخفي الكتاب المقدس، وإذ وقع ذلك الكتاب في يد السيّد «ليغري» صاح به:

- جميل! أنت تقيٌّ من غير شك. أنت عضو في الكنيسة، إيه؟

فقال «توم» في عزمٍ:

- أجل يا مولاي.

- حسنًا! إن هذا لا يرضيني مُطلقًا، ولسوف أُبدلك وأقتلع هذه العادة من نفسك حالًا. فليس في مزرعتي مكان لزنجي يضيع وقته بالصياح والصلاة أو حتي الغناء، فأنا منذ الآن كنيستك. مفهوم؟! وعليك أن تُطيعني وتكون كما أمرك أن تكون.

وفي أعماق «توم» كان صوت داخلي يجيب بكلمة (لا)، وكأَما يُرَدِّدها صوت خفي. ثمَّ طافت في مُخيلته جملة كانت «إيفا» تُرَدِّدها علي مسامعه: «لا تخف يا عمّاه فقد افتديتك وسميتك باسمي وأصبحت منذ اليوم ملكي». ولكن السيّد القاسي لم يسمع أي صوت حتمًا. فذلك صوت لم يُقدَّر لأمثاله أن يسمعه أبد الدهر. ولكنّه إذ رأي وجوم وعبوس «توم»، حدّق في وجهه لحظة ثم تابع طريقه، ثمَّ وصل «ليغري» في تفتيشه إلي حيث كانت «إميلين» تجلس مشدودة إلي امرأةٍ أُخري بالسلاسل الحديدية، فقال لها وهو يتصنع اللطف، وقد رَبَّت علي ذقنها:

- حسنًا يا عزيزتي، حافظي علي مرحك.

ولم تخطيء عينيه نظرات الذعر والنفور التي حدجته بها الفتاة، فصاح بها عابسًا:

- لا! يجب أن يكون وجهك لطيفًا حين أخاطبك، هل تسمعين أيتها

الوقعة؟

ثم التفت إلي المرأة التي شُدَّت «إميلين» إليها، وصاح:

- وأنت أيضًا، يجب أن تكوني أكثر مرحًا وانشراحًا. أفهمتِ؟

ثمَّ تراجع خطوة أو خطوتين إلي الوراء، وصرخ بهم:

- هيه أنظروا إليّ جميعكم. ضعوا أعينكم في عيني علي شكلٍ مستقيمٍ.

وحدّقت العيون كُلَّها في عيني «ليغري» الرماديتين الضاربتين إلي  
الخصرة اللتين كانتا تقدحان شرًّا كالنار. ورفع قبضته الضخمة الثقيلة فإذا  
بها أشبه ما تكون بمطرقة حداد، وقال:

- والآن أترون قبضة يدي هذه؟ شاهدوها وقدروا قوّتها.

ووضع كفه علي يد «توم»، وتابع قائلاً:

- أرايتم هذه العظام الصلبة؟ حسنًا. ويحسن لي أن أخبركم منذ الآن أن  
قبضتي لم تصبح هكذا صلبة كالحديد إلا من كثرة ما حطمت من رؤوس  
العبيد. وإني لم أصادف زنجيًا يقوي علي مقاومة قبضتي ويبقي حيًّا بعد  
لكمة واحدة.

وقرّب كفه إلي وجه «توم» كثيرًا حتي رفت جفونه وارتد إلي الوراء  
مذعورًا. وأمست النساء أنفاسهن علي نحو غير إرادي، وأطرقت جماعة  
الأرقاء كُلَّها، وعلت وجوههم أمارات الذعر والكآبة. وعندئذ رجع  
«ليغري» قاصدًا إلي حانة المركب للترفيه عن نفسه.

- تلك هي الطريقة التي استهل بها صلاتي مع العبيد!

قال «سايمون ليغري» ذلك لرجلٍ صادفه كان واقفًا بالقرب منه، حين  
ألقي خطبته علي أرقائه.

- مذهبي أن أبدأ قويًا وأن أعرفهم ما يجب عليهم أن يعرفوه أو ما قد  
يتعرّضون له.

- ولكن أصدقاءك ممتازون علي ما رأيت!

- حقًا، فإنَّ «توم» بضاعة نادرة علي ما علمت من عارفه. ولقد كلفني ثمنه عاليًا جدًّا بالنسبة إلي عُمره. وهناك أيضًا تلك المرأة صفراء الوجه، ويُخَيَّل إليَّ أن صحتَّها عليله، وقد لا تقوي علي العيش أكثر من سنه أو سنتين. فأنا لستُ من الذين يشقون أنفسهم في مداواة الزوج ومعالجتهم. إنني أقوم بتشغيلهم، وعندما يتعبون أبيعهم لأشترى غيرهم. تلك هي طريقتي. وهي لا تكلفني تعبًا كثيرًا. ولا أشكُّ مُطلقًا أنَّها الطريقة الأكثر توفيرًا واقتصادًا في النفقات.

فسأله الرَّجل الغريب:

- وكم يبقون عادةً علي قيد الحياة بعد أن تتعبهم وترهقهم؟

- لستُ أدري علي وجه الدقة، فذلك رهن بنيتهم الجسدية. أمَّا العبيد الذين يتسمون بالبدانة فيبقون ست سنوات أو سبعمًا، وأمَّا العبيد الهزيلون فيُستهلكون في سنتين أو ثلاث..



توم في مزرعة سيدلا الهمجي

**Tom on a farm master barbaric**

بعد زمن ليس بقصير، وصل المركب وحمولته ومن عليها شاطئ إحدى المدن الصغيرة، فغادر «ليغري» المركب ومعه جماعته وساروا في اتجاه المزرعة التي استطاع «ليغري» أن يفتني من غلالها في الفترة الأخيرة من حياته. وفي منتصف الطريق المؤدي إلي المزرعة، لمح «ليغري» الفتاة «إميلين» بعينيه الشريرتين وقال لها، وهو يضع كفه الغليظة علي كتفها النحيل الرقيق:

- لا تحزني يا صغيرتي العزيزة، فها نحن أوشكنا أن نصل إلي المنزل..

و سري في جسم الفتاة تيار من الذعر. وقد حاولت أن تتحاشى مُداعبات «ليغري» السمجة بأن أخذت تلتصق برفيقتها أكثر فأكثر، تلك المرأة التي شد وثاقها بها و كأنها تمثل أمها الحقيقية.

و أمسك «ليغري» أذن الفتاة، وقال:

- أحسب أنك لم تلبسي أفرأطاً في حياتك.

- لا يا مولاي.

- لا تحزني فلدي الكثير منها، وسأقدم لك قرطاً حين نبلغ المنزل شريطة أن تكوني فتاة مطيعة. لا تخافي يا فتاتي فإني لن أرهقك بالعمل، وإنك سوف تقضين وقتاً سعيداً معي وتعيشين كما تعيش السيدات في المجتمع الراقي. وكل ما أطلبه منك أن تكوني فتاة طيبة ومُحبة!

ووصلت أخيراً العربة التي تحمل «سايمون ليغري» و أرقائه إلي ممر مُعبَّد، تُحيط به علي الجانبين أشجار وارفه الظلال. ويمتد الممر حتي يقود إلي بيتٍ جميلٍ، ولكنّه يحتاج إلي النظافة والترتيب.

وعندما سمعت صوت عجلات العربة اندفعت أربعة كلاب مُخيفة لاستقبالها وصارت تنبح نباحًا غريبًا، وتتعلّق بثياب القادمين فتكاد تنهشهم بأنيابها لو لم يسرع لردها عنهم نفر من الأرقاء القُدّامى الذين جاءوا لاستقبال سيّد المزرعة.

وقال «ليغري» وهو يُداعب الكلاب في ارتياحٍ، ويوجه الكلاب لـ «توم» وأصاحبه:

- ترون بأعينكم ما نوع الهلاك الذي اعتدته لكم إذا ما سوّلت لكم أنفسكم الفرار.. لقد ربّيت الكلاب علي تعقب وملاحقة العبيد الأبقين الهاربين وافتراسهم. فخذوا حذرکم. والتفت إلي أحد الخدم، وقال:

- والآن يا «سامبو».. كيف كانت الأمور تجري أثناء غيابي؟

- علي غاية ما يُرام يا مولاي.

ثمّ وجه السؤال إلي عبدٍ آخرٍ، وقال:

- «كويمبو» quimboo.. هل فعلت ما قلت لك أن تفعله؟

- طبعًا يا مولاي وهل يمكن أن أخالفك؟

والظاهر أن هذين الرقيقين كانا من أبرز الرقيق في مزرعة «ليغري»، وقد ربّاهما علي الأساليب الوحشية القاسية كما ربّي علي ذلك كلابه، فهما يُعذبان كلّ عبد يخالف الأوامر من دون رحمة أو شفقة.

ثمّ قال «ليغري»:

- يا «سامبو»، اقتد هؤلاء الرجال إلي حظيرتهم. ودونك هذه الجارية التي اشتريتها لك.

وفصل «ليغري» المرأة عن «إميلين» ودفعها إليه دفعًا، ثم قال:

- لقد وعدتك أن آتيك بواحدة.. أتذكر؟

وصاحت المرأة:

- رفقًا بي أيها السيّد فقد تركت زوجي في نيو أورليانز.

- وما الغريب في الأمر؟ ألا تريدان واحدًا غيره؟ لا تنظقي بكلمه. اغربي

عن وجهي.

قال «ليغري» ذلك ورفع سوطه في وجهها، ثم التفت إلي «إميلين:

- أما أنت أيتها الفتاة فمكانك أن تدخلني معي إلي هنا.

وما إن دخل «ليغري» باب المنزل حتي سُمع صوت نسائي يغلط كلامًا ما بلهجة سريعة أمره، وقد سمعه «توم» الذي كان يُجبل النظر في الفتاة بلهفة وجزع، وسمع «ليغري» يُجيب بغضب ذلك الصوت الأمر:

- من الأفضل لك أن تخرسي فإني أفعل ما يحلو لي وأراه خليقًا بي.

ما عاد سكان الأكواخ المجهدون إلي مساكنهم الحقيبة إلا وكانت الشمس توارت واختفت. رجالٌ ونساءٌ عادوا مكدودين وهم يرتادون الأثواب الممزقة القدرة، وكان عليهم بعد كل ذلك التعب الذي أصابهم في جمع القطن، وسياط النظار تستحثهم منذ الفجر حتي الغروب، كان عليهم أن يذهبوا إلي المطاحن اليدوية ليطحنوا من الذرة ما يكفي لصنع أرغفة هي كل طعامهم للعشاء. إنَّ موسم القطن في أوج احتداه فكان يري السيّد أن جميع الأساليب مُباحة لحمل الأرقاء علي بذل أقصى مجهودهم في جمع القطن.

ونظر «توم» إلي وجوه الأرقاء فلم يري فيهم سوي وجوه مكفهرة عابسة، ورجالٌ قد خارت وضعفت قواهم وتحطمت نفوسهم، ونساءٌ هزيلاتٌ قد وهنت عزيمتهن.

وظلت أصوات الآلات اليدوية البدائية تُسمع حتي ساعة متأخرة من الليل. ذلك لأنَّ عددها كان أقلَّ بكثيرٍ من عدد الراغبين في الطحن. وكان القوي يطحن حصته ثمَّ يأتي دور الضعيف.

واقترب «سامبو» من المرأة التي وعده بها «ليغري»، والقي كيسًا من الذرة أمامها وقال:

- هيه، أنتِ ما الاسم الذي يدعونكِ بها؟

- لوسي.

- حسنًا لوسي أنتِ مولاتي الآن، اطحني هذه الكمية من الذرة، وأعدي لي عشايتي منها، أسمعتي؟

- فقالت المرأة في يأسٍ مريرٍ:

- لن يُتاح لك أن تسميني امرأتك، ولن أكون لك، فاذهب عني ولا تُعكر خاطري.

ورفع «سامبو» قدمه بالتهديد:

- افعلي ما أمرتكِ به وإلاَّ

رفستك بقدمي هذه.



توم يطحن غلاله

- في استطاعتك أن تقتلني إذا شئت، وكُلِّما أسرعرت بقتلي كان ذلك أفضل لي فإنني أتمني أن أموت.

وكان «توم» جائعًا من جرّاء التَّعب ورحلة النهار الطويلة في حقول القطن، وكاد يقع علي الأرض من شدّة الإعياء. ولقد انتظر دوره في الطحن حتي ساعة متأخرة من الليل، كما أنّه ساعد امرأتين تعبتين في طحن نصيبهم من الذرة، و في خبزها علي نارٍ هادئةٍ خامدةٍ. ثمّ مضى بعد عشائه فشكرته العبدتان علي عطفه. وما إن فرغ من تناول عشائه حتي جلس يقرأ في الكتاب المقدس علي ضوء النار. فتساءلت إحدى الجارتين:

- ما هذا؟

- إنّه الكتاب المقدس.

- أوه! يا إلهي، إني لم أري كتابًا مقدسًا منذ غادرت كانتاكي!

فسألها «توم» بشوق:

- وهل نشأت في كانتاكي؟

- نعم وكانت نشأة طيبة. ولم أكن أتوقع أن ينتهي بي المطاف إلي هذا المكان اللعين!

وهنا سألت المرأة الأخرى:

- وما هو ذلك الكتاب؟

فأجابتها رفيقتها:

- ألم تسمعي أحد يتحدّث عن الكتاب المقدس؟ لقد كنت استمع إلي سيّدتي وهي تتلو منه أجزاء متعاقبة في كانتاكي، ولكن وأسفي علي ما وصل إليه حالي! فهنا لم نسمع سوي السخط والعريضة والأوامر.

فقالت المرأة الأولى:

- أتل علينا يا عمّ شيئًا من كتابك.

وتلي «توم» :

- تعالوا إليّ يا جميع المُتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم.

فقالت المرأة:

- هذا الكلام حسن. مَنْ الذي قال ذلك؟

فأجاب «توم» :

- هو السيّد المسيح.

فقالت المرأة:

- تُري أين يُقيم هذا السيّد؟ ليت مَنْ يدلني علي مكان إقامته لأذهب إليه، فقد أصبحت علي ما يبدو محتاجة إلي الرّاحة الماسة فقد تشقق جلدي لكثرة ما جلدني سامبو اللّعين بسّوطه. وكذلك فإنني مضطّرة أن أسهر كلّ ليلة حتي منتصف الليل لأعد عشائي. فلا أكاد أغمض عيني حتي يوقظني البوق مُعلنًا بزوغ الفجر والقيام إلي العمل. آه! ليتني أعرف أين يُقيم هذا السيّد حتي أخبره بما ألاقني!

فقال «توم» :

- إنّه هنا، إنّه في كلّ مكان.

- لا أظنك تقنعني بذلك. إنّ السيّد ليس هنا، فلا تحاول خداعي.

قالت ذلك ومضت ورفيقتها إلي كوخهما لتناما.

و كذلك فعل «توم» ..



من تكون هذه المرأة؟

**Who are these women ?**



لم تمض أيام علي «توم» في موطنه الجديد حتي برزت مهاراته وتجلت مآثره وسجاياه الطيبة لكل ذي عين بصيرة. فقد كان هذا الزنجي العجوز قادرًا أن يُنجز بإتقانٍ أي عمل يُعهد به من قِبَل أسياده. وكان إلي جانب هذا مخلصًا في العمل. ولم يستطع البؤس والتنكيل أن ينالا منه أو يوقعاه في اليأس. فقد أثر الانصراف إلي العمل بجدٍ وصبرٍ من دون تملُّمٍ متكلاً علي الله مُسلمًا إياه أموره ومنتظر الرِّحمة من لدنه بأن يفتح باب الإنعتاق في وجهه ذات يوم.

وفي صباح أحد الأيام، وقد كان العُمال محتشدين للعمل في الحقول رأي «توم» شخصًا جديدًا أثار اهتمامه بين العاملين.

كانت امرأة فارعة الطول، رقيقة الملامح، ترتدي ثيابًا نظيفةً. وكانت هيبتها تنبئ أن عُمرها يتراوح ما بين الخامسة والثلاثين، والأربعين سنة، وأن في حياتها علي ما يبدو تخفتي مأساة مفعجة. وكانت ملامحها تدل أنها كانت علي قدرٍ عظيمٍ من الجمال في شبابها الأوَّل. أمَّا اليوم فقد تغصَّن وتجعَّد وجهها بخطوطٍ من الألم، وكانت بشرتها شاحبة تدل علي مرضٍ قد أصابها، ولكن أبرز ما في وجهها عيناها، فقد كانتا كبيرتين شديديتي السواد تُظللُّهما أهداب فاحمه تنضح بيأسٍ مفعج. وكان يبدو علي كلِّ

خط من خطوط وجهها تجبُّر شرس وتحدُّ مُتمرِّدٍ، كما كان ذلك واضحًا في كلِّ حركاتها وسكناتها وانحناءاتها أو حتي تحرُّك شفيتها. ولكن النَّاظِر إلي عينيها يري ليلًا عميقًا من اللّوعة لا ينسجم والازدراء الذي يبدو علي وجهها، والكبرياء الذي يُكلِّل هامتها.

تُري من أين أقبلت هذه الغريبة؟ ومَنْ تكون؟ ذلك ما كان يتساءل عنه «توم».

كلُّ ما عرفه أنّها كانت تسير إلي جانبه رشيقة الحركة، منتصبه القامة، رافعة الرأس. أمّا سائر الأرقاء فكانوا يعرفونها معرفة أكيدة، إذ ما كادوا يرونها بينهم تعمل حتي أخذوا يتهامسون، ويعلقون ضروب التعليقات حول وجودها.

انصرف «توم» إلي عمله، وكانت تلك المرأة الغريبة قريبة منه، فأخذ يلقي إليها بين الفينة والفينة نظرات اهتمام، فإذا به يجدها بارعة في العمل، خفيفة الحركة، فيبدو العمل بين يديها بسيطًا هيئًا إذا قيس بأوضاع العُمال الآخرين. كانت تقطف القطن بسرعةٍ ولباقةٍ بل وباستخفافٍ كأنّها تزدري العمل، وتحترق الظروف والأيام التي أوقعتها في مثل هذا الموقف.

وتصادف أن كان «توم» قريبًا في عمله من تلك المرأة المدعوة «لوسي» التي بيعت معه في سوق النخاسة، وكانت في حالةٍ شديدةٍ من الأسى والهزال، فكثيرًا ما سمعها تبتهل إلي الله وهي ترتمي خائرة القوي تكاد تسقط من شدة الإعياء. فما كان من «توم» إلّا أن اقترب منها خلسةٍ وألقي في سلتها بعض حنفيات ممّا تمّ له جمعه من القطن.

فقالَت المرأة وقد أخذتها الدهشة:



- آه! لا تفعل، لا تفعل ذلك، فقد يجزّك ذلك إليّ عناءً شديدًا!

وفي تلك اللَّحظة صادف أن جاء «سامبو». وقد بدا وكأنّه يحمل حقدًا مضمّرًا لتلك المرأة التي ترفض أن تُعاشره كزوجٍ لها. وفي لهجةٍ وحشيّةٍ، قال وهو يهز سوطه:

- ما هذا؟ أتحاولين الغش والخداع؟

ورفس المرأة بعقب حذائه الثقيل، ثمّ ارتد إليّ «توم» فضربه بالسّوط علي وجهه. واستأنف «توم» عمله في صمتٍ. ولكن المرأة التي كانت قبل ذلك علي حافة الإغماء سقطت علي الأرض مغشيًا عليها

ولم يكد «سامبو» يراها تسقط حتي هدر:

- لا تخافوا. سوف أُعيد لها وعيها، وسأعطيها منبهاً أفضل من الكافور.

وانتزع من سترته دبوسًا وغرزه في لحمها، فأنت المرأة أنيبًا موجعًا، ونهضت، فصاح بها «سامبو»:

- انهضي أيتها البهيمة واشتغلي وإلا أدقتك ما هو أقسي وأمر.

وانقضت لحظات واصلت المرأة بعدها العمل في لهفةٍ يائسةٍ، فقال لها مُجددًا:

- حذار أن تتراخي. أمّا إذا فعلتِ فثقي أن موتك سيكون هذه اللَّيلة.

وسمع «توم» المرأة، تقول:

- ليّتها تكون اللَّيلة، بل الآن.

ثمّ سمعها مرّةً ثانيةً، تقول:

- آه! يا إلهي إلي متى تهملني ولماذا لا تُساعدني!

وعلي الرغم من أن «توم» يعرف ما قد يُلاقيه من تعبٍ وعناءٍ في مساعدة تلك المرأة، تقدّم نحوها ووضع كُلاً ما جناه من القطن في سلتها، فقالت له بيأسٍ:

- لا تفعل. فأنت لا تعلم كيف ينتقمون منك؟

فقال «توم»:

- إني أستطيع أن أحتمل التعذيب أكثر منك.

وعاد إلي مكانه.

وكانت المرأة الغريبة، في تلك الأثناء، قد اقتربت من «توم»، وما إن سمعته ينطق بهذا الكلام حتي نظرت إليه نظرة فاحصة بعينيها السوداويين وركزت علي تركيزاً مقصوداً، ثم تناولت مقداراً من القطن الذي في سلتها ووضعتة في سلة «توم». ثم قالت له:

- أنت لا تعرف شيئاً عمّا يجري في هذه المزرعة؟ ولو كنت تعرف لما فعلت ما فعلت. وعندما تقضي هنا شهراً ستجد نفسك مضطراً ألا تُجدد المساعدة لأحد.

- ولكن المسيح يُحرّم هذه المظالم.

فأجابت المرأة بمرارة:

- المسيح لا يزور هذه الديار البتة!



وابتسمت ابتسامتها الصفراء، فاكتشف «سامبو» حركة المرأة، وفهم مغزى ابتساماتها فسارع إليها حتي إذا صار علي مقربةٍ منها صاح:  
- ماذا؟ أنتِ تحت تصرفي الآن. انتبهي إلي عملي وإلا أدبتكِ.  
- اضربني إذا كنت تستطيع. فلي من القوّة ما يُحوّل لحمك طعامًا للكلاب أو وقودًا للنار!

وخاف الرّجل، وتراجع خطوة خطوة إلي الوراء، ثمّ قال:  
- وما عساكِ تفعلين هنا إذًا، أنا لم أقصد أن أسيء إليك يا سيّدي «كاسي»  
.Cassy.

وعادت المرأة المُدهشة إلي الجنّي بسرعةٍ عجيبةٍ. فما اقترب مغيب الشمس حتي كانت سلتها قد امتلأت رغماً عن أنّها وضعت مقادير كثيرة في سلة «توم».

وبعد الغروب، سار الأرقاء المتعبون، وقد حمل كلّ منهم سلته علي رأسه في اتجاه البناء المخصّص لخزن القطن ووزنه وحلجه.

وكان «ليغري» هناك مستغرّفًا في الحديث مع «سامبو»، و«كويمبو».

قال «سامبو»:

- لقد تحقّقت من أن ذلك الرّجل المدعو «توم» سوف يجلب لنا متاعب طائلة، فقد شاهدته بعيني ينقل القطن من سلته ليضعه في سلة «لوسي».  
وتصرّف كهذا يوحى إلي العبيد الزوج أنّهم مظلومون!

فقال «ليغري» هاتجًا:

- سوف أؤدبه! سوف أمره أن يجلد لوسي بالسَّوط بيده. انتظر قليلاً.

وفي بطءٍ مكدودٍ متعبٍ تقدّمت المخلوقات البائسة إلى الغرفة، وقدّمت سلالها إليّ مَنْ يزنها. وكان «ليغري» يدوّن ويُسجّل عليّ لوحٍ خشبيٍّ أسماء العبيد، وقدر القطن الذي جناه كلّ منهم.

ووزنت سلة «توم» واجتازت الامتحان. وقدّمت «لوسي» سلتها، وكانت منهكة تماماً، كما لاحظ «ليغري» بلا ريب، ومع ذلك صاح بها غاضباً:

- ما هذا أيتها البهيمة الكسول؟ عدنا إليّ النقص. قفي جانباً وانتظري جزاءك.

وهنا تقدّمت «كاسي» وسلمت سلتها في كبرياءٍ ولا مبالاةٍ. ولم تكذب فعل حتى حدجها «ليغري» بنظراتٍ ساخرةٍ، وأطالت النظر إليه بعينيهما السوداويين، وبدت شفتاهما تتحرّكان لتلفظا كلاماً باللغة الفرنسية لم يفهمه أحد من العُمال. أمّا «ليغري» الذي فهم ما تكلمت به، فقد رفع قبضته فيما كانت تتكلم وكأنّه كان ينوي ضربها، ولكن نظراتها القويّة اللامبالية التي حدجته بها كانت كافية لإنزال قبضته، فمضت في حال سبيلها.

عندئذ صاح «ليغري»:

- والآن تعال إليّ هنا يا توم. إليك هذه الجارية فاجلدها بالسَّوط، وأنت مثلي تعرف تماماً السبب الذي يستوجب جلدها.

فتوسل «توم» إليّ مولاه، قائلاً:

- أرجو أن تعفيني من هذه المهمة.. فأنا لم أقم بمثل هذا العمل من قبل، ولن أقوي عليّ القيام به.

وهاج «ليغري» وماج، وضرب «توم» بالسُّوط علي وجهه ضربًا مبرحًا،  
ثم قال:

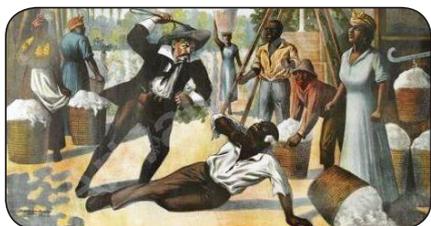
- والآن، ألا تزال مُصرًّا علي موقفك؟

- أجل يا سيّدي.

قال «توم» ذلك بإباءٍ وعزة نفسٍ، ومسح الدّم الذي أخذ يسيل من خديه،  
وقال:

- مولاي أتوسل إليك أن تعفيني من هذه المهمة. فيامكانك أن تقتلني إذا  
شئت، أمّا أن تُجبرني علي جلد إنسان فذلك مالا أوافق عليه مطلقًا، واني  
أفضّل الموت علي اقتراف مثل هذا الجرم وارتكابه.

وبرقت عينا «ليغري» ببريقٍ وحشيٍّ همجيٍّ، ثمّ صاح ثائرًا:



ليغري يجلد توم

- حسنًا اذهبوا أيها الخطاة  
فقد جاءكم في آخر الأزمان  
كلب ورعٌ تقويّ أو إنسان نبيل.  
بل جاءكم قديس ليُحدثكم  
عن متاعبكم وخطاياكم.

ولكن يبدو أنّك نسيت أيها الوغد اللئيم قول الكتاب المقدس: أيها الخدم  
أطيعوا أسيادكم. أو لست مولاك وسيّدك، ألم أبتعك بألف و مئتي دولار  
نقدًا وعدًا. ألسنتُ ملكي روحًا وجسدًا أيها الكلب.

قال ذلك ورفس «توم» رفسة عنيفةً بحذائه الغليظ.

ورفع «توم» عينيه إلي السماء، فيما كان الدمع والدمّ يمتزجان علي  
صفحة وجهه السوداء، وقال:

- لا. ثمّ. لا. إنّ رُوحِي لا تخصك أيها السيّد فأنت لم تشتريها. بل إنّك لا  
تستطيع أن تشتريها. فقد اشتراها مَنْ هو قادر علي حفظها، ومهما كنت قويًّا  
فليس في استطاعتك أن تُلحق بي أي أذيّ.

فصاح «ليغري» بجنون:

- لا استطيع؟

وضحك ضحكةً ساخرةً، ثمّ قال:

- سوف تري إذا. سامبو، كويمبو، أجلدا هذا الكلب جلدًا يفصم ظهره  
ويُقعدّه طوال هذا الشهر.

وأمسك الزنجيان الشرسان «توم» وصرخت المرأة في ذعرٍ، ونهض  
الجميع كُلهم، فيما كان «سامبو»، و«كويمبو» يسوقان الرّجل العجوز إلي  
الخارج ليجلدوه.



مأساة امرأة هزمتها الحياة

**The tragedy of a woman defeated by life**



في ساعة متأخرة من الليل كان «توم» مرمياً علي الأرض، والدّم يسيل من جراحه في غرفة قديمة مهجورة كانت مُعدّة لحلج القطن. وهناك بين الآلات المُحطمة المتراكمة وباللات القطن التالف، سمع «توم» الجريح فجأة وطء أقدام في وسط الغرفة فصاح:

- مَنْ هذا؟

وانعكس ضوء فانوس صغير علي عينيه، فقال:

- آه، هذا أنت يا سيّدي، ناولينى برّبك قليلاً من الماء.

ووضعت «كاسي» الفانوس علي الأرض، وصبت الماء من زجاجة كانت معها، ورفعت رأس «توم» وقدمت له كوب الماء.

وشرب «توم» مرّات حتي إذا ارتوي قال للمرأة الكريمة:

- أشكرك يا سيّدي.

فقال «كاسي»:

- لا تدعني سيّدتك، فما أنا سوي عبده يائسة مثلك، بل أشدّ بؤساً منك.

ولكن ما لنا ولهذا الآن؟ فجراحك بليغة تحتاج إلي العناية.

كانت «كاسي» قد عاشت زمناً طويلاً مع الأرقاء ضحايا الوحشية البشرية، فأخذت تتقن فن التمريض، فقامت لتوها بتضميد جراح «توم». وما هي إلا

برهة حتي شعر «توم» بالرّاحة، فأخذ يشكر المرأة من جديد، فيما كانت تجلس القرفصاء قبالتها، وقد بدت علي مُحيّاها موجة من الأسي المرير.

وصممت المرأة لحظة، ثمّ قالت:

- أرفأ بنفسك أيها الأخ البائس لقد كنتُ شجاعًا حقًا والحق معك، ولكن من الغبن أن تحاول النضال وتبديل العقول. نحن هنا تحت سلطة شيطان، وهو أقوى منك، وعليك أن تتعد عن كلّ محاولة تمرد أو عصيان.

- يا إلهي، وكيف استطيع ذلك؟

- لا فائدة من الدعاء. وأنا أعتقد أن كلّ شيء ضدنا. السماء والأرض. وكلّ شيء يقودنا إلي جهنم فلماذا لا نذهب إليها؟

وأغمض «توم» عينيه وارتجف لدي سماعه هذه الكلمات الكافرة.

وتابعت المرأة كلامها، فقالت:

- إنك تجهل قوانين هذا المكان علي ما يبدو، أمّا أنا فأعرفها، لقد مضى عليّ هنا خمس سنوات تحت سلطة هذا الرجل الوحش، وإني أمقتك كما أمقت الشيطان فنحن هنا في مزرعةٍ نائيةٍ معزولةٍ تبعد أكثر من عشرة أميال من أقرب مزرعةٍ مجاورة. وليس هنا رجل أبيض واحد يقوي أن يشهد ضدّ سيّدك وجلادك، إذا ما قرّر أن يدفّنك حيًّا، أو إذا ما أحرّقك بالماء الحار، أو قطعك إربًا إربًا، أو ألقي بك إلي كلابه، أو شنقك بحبل، أو جلدك بالسّوط حتي الموت. ليس هنا قانون بشري أو سماوي يستطيع أن يفيدك أو يفيدنا، فهذا الرجل المتوحش لا يتورّع عن اقتراح أبشع الجرائم.

ويكفي أن أقصّ عليك بعض ما شاهدته واختبرته أثناء وجودي عنده، حتي يتتابك الجزع والرّهبة. علي الرغم من أني لم أحب أن أعيش قربيه، اضطررت أن أجالسه طوال السنوات الخمس المنصرفة، عشتها معه



وتفانيت بخدمته في الليل وفي النهار. وآخر الأمر فقد ابتاع اليوم فتاة جديدة في الخامسة عشرة من عُمرها تقول أَنَّها نشأت نشأةً دينيةً قويمَةً، وتزعم أَنَّ سيِّدتها النبيلة علِّمتها المسيحية، وأَنَّها جلبت معها الكتاب المقدس إلي هنا. فلتهبط عليها لعنة السماء ولتذهب إلي الجحيم.

وضم «توم» ذراعيه وسط الظلمة، ورفع صوته بالدعاء:

- آه يا يسوع، يا سيِّدي يسوع تُري هل نسيتنا نحن البائسين، ساعدني أيها السيِّد فياني أموت من الألم. ساعدني. ساعدني يا سيدي.

واستطردت المرأة، ووجهها تعلوه سحابة من الألم:

- في سبيل مَنْ تُضحى براحتك وصحَّتكَ يا توم؟ بل مَنْ هم أولئك الرعاع البؤساء الذين تعمل لتخليصهم من آلامهم، إنَّ أيًّا منهم خليق بأن ينقلب عليك عند أوَّل فرصة، أو عند أقلِّ إهانة توجه إلي هذا السيِّد الشرير، إنَّهم جميعًا شرسون قُساء علي بعضهم البعض.

- يا لهم من مساكين! ما الذي جعلهم قُساء؟ لو عشت عيشتهم لغدوت مثلهم؟ لا يا سيِّدتي. لقد فقدت زوجتي وأولادي وبيتي وسيِّدًا كريمًا، فلست أستطيع أن أخسر الآخرة فوق ذلك.

قال «توم» ذلك وصار يُصلي.

فقال «كاسي»:

- أوَّاه يا عزيزي «توم» ما هذه الصلوات؟ فقد سمعت بها من قبل وكُلَّها تتحطم. وها هي إمليين الآن تعتصم بهذه الصلوات كما أنَّك تحاول أن تلجأ إليها لتُساعدك ولكن ما الفائدة منها؟ عليك أن ترضي بالأمر الواقع وإلَّا قطعك ليغري.

وصمت «كاسي» برهة، ثمَّ أردفت:

- أنظر إليَّ الآن. أنظر إليَّ حالتي. حسنًا لقد نشأت في بيتٍ ترفٍ ونعمة، وتعلّمت في أحد الأديرة الموسيقي، والفرنسية، والتطريز، حتى إذا بلغت الرابعة عشرة توفي والدي. وإذ لم تكفِ ممتلكاته لسداد الديون المتراكمة عليه، فقد وُضعت في لائحة الممتلكات التي عُرضت للبيع وفاءً لتلك الديون.

كانت أُمِّي أمةً رقيقة، وكان والدي يعتزم إعتاقها، ولكن الموت عاجله فلم يفعل. وبعد أن مات أبي اصطحبتنا زوجة أبي إلي مزرعة والدها. وكان يزورنا هناك كلَّ يومٍ مُحامٍ شاب كُلفَ انجاز تصفية الشركة. وكان هذا الشاب يُحدثني بلطفٍ جم. وفي يوم، جاءنا وبصحبه شاب جميل لم تقع عينيَّ عليَّ أجمل منه فمشيت مع الشاب الجميل في الحديقة، وتجادبنا أطراف الحديث فادعي هذا أنَّه يعرفني قبل دخولي الدير، وأني جعلته يهيم حُبًّا، وأنَّه سوف يصبح حبيبي وزوجي، ثمَّ اشتراني بألفي دولار فأصبحت ملكه، وكنتُ بذلك سعيدة لأنِّي أحببته.

ما كان أنبله، لقد أسكنني في منزلٍ جميل، ووضع تحت تصرفي الخدم والخيل والعربات، وسلمني ما أشاء من مالٍ ومتاع، ولكنني كنتُ أطمع في أن أتزوَّجُه فحدَّثته في هذا الأمر، فأقنعني بأنَّ زواجنا مستحيل، وأدعي أنَّ حُبنا المُخلص هو زواجٍ أمام الله. وهكذا رُزقت منه ولدين: الأول ذكر وسميناه باسم أبيه هنري Henry، والثاني أنثى دعوناها إليزا Eliza. يا الله! ما كان أجملهما وأحلاهما، كان زوجي يمنحهما الحُبَّ الكامل، وقال إنَّه سوف يعترف بهما ولدين شرعيين، وكان يطلب مني أن ألبسهما أجمل الثياب لنذهب معًا في عربة مكشوفة في صحبته، وكان كلُّ همِّه أن يُسمعي مديح الناس لي ولولديه. آه! ما أجمل تلك الأيام وما كان أسعدها. ولكن السَّعادة ما لبثت أن أفلتت وغابت. فقد كان لزوجي هنري ابن عمِّ قَدِم إلي نيو أورليانز، وكان صديقًا حميمًا له. أمَّا أنا فقد توجست من رؤيته شرًّا،



وأيقنت أنه يجلب لي معه الشقاء. وقد صدق حدسي فما انقضت مدة غير طويلة حتى صار هنري يقضي ليلته خارج المنزل، فلا يعود قبل الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل. وكان يُقامر، وهناك في بيت الميسر قدّمه ابن عمّه إلي فتاة فوقع في شباك غرامها. ولما اقترب من درجة الإفلاس عرض عليه ابن عمّه أن يبيعه ويبيع ولدينا ليتمكّن من وفاء ديونه، تلك الديون التي كانت تمنع زواجه من تلك الفتاة فباعنا جميعًا.

وعندما تقدّم إليّ ابن عمّه الوغد، وهو يحمل صك البيع، قذفته باللعنات، وقلت له إنني أفضل الموت علي أن أعيش معه. فهددني ببيع ولديّ، وادعي أنه أحبني منذ وقعت عيناه عليّ للمرّة الأولى، وإنه سعي لتوريط هنري بالديون، وأوقعه في شرك الفتاة ليتمكّن من الوصول إلي امتلاكها.

وشاء الأقدار أن أقع بين يديه فاستسلمت له مُرغمة كي لا يبعد عني ولديّ. وهكذا عشت معه مُسايرة أظهر له الود وأخبى له الكره. ولكن تضحيتي لم تنجني ممّا كنت أخشي وقوعه، فقد باع الوغد ولديّ إذ كنت مرّة وإياه في نزهة. وعندما عدنا لم أعثر لهما علي أثر، ولمّا سألتهم عنهما أظهر صك البيع بوقاحة، فثارت ثأرتي وقد خشي ثورتي علي ما يظهر، فأخبرني بأنّ ولديّ قد بيعا حتّمًا، ولكن أمر استعادتهما مرهون بإرادتي وبمدي استسلامي لشهواته، فأخلدت إلي الهدوء ورضيت بحكمه. وهكذا كان يُعلنني بالأمال مُدعيًا أنه ينوي تحريرهما في وقت قريب..

وفيما كنت ذات يوم في سجن البلدة، رأيت جماعة من الناس مُحشدين حول أحد الأبواب. وسمعت آنذاك صوت طفل فإذا هو ابني، ولمّا رأني أفلت من أيدي رجلين كانوا يمسكون به، واندفع صوبي يبكي ويصرخ وأخذ يتعلق بثيابي. فلحق به الرّجال وهم يهددون ويتوعدون. فقال أحدهم إنّ ولدي ذاهبًا معه إلي السجن ليلقي درسًا لا ينساه.

وعندئذ تعذبت روحي وحاولت أن أستعطف الرجلين وأتوسل إليهما فأغرقا في الضحك، وانتزعا الولد مني وهو يبكي ويصرخ بأعلى صوته: ماما، ماما. فالتفت حولي لعلي أجد من يساعدي، فوقع نظري علي رجل قرأت في ملامح وجهه شيئاً من الشفقة عليّ، فرجوته أن يتدخل في الأمر لمساعدتي، فهز رأسه نفيًا، وقال: إن مولي الولد يدعي أنه قد أذاقه الأمرين، لهذا فهو يريد إدخاله السجن لتأديبه.

وعندما رجعت إلي البيت رجوت باتلر Butler أن يتدخل من أجل إنقاذ ابني من السجن، فراح يضحك مني، ويسخر من لوعتي، وعندئذ ثارت ثارتي فزاعت عيناّي، واسودت الدنيا في نظري وأظلمت، ثم فقدت الوعي تمامًا. وحين تعافيت رأيت نفسي في غرفة نظيفة غير غرفتي، ورأيت امرأة سوداء عجوزاً تعتني بي وطبيباً يُشرف علي مُعالجتي. وبعد مدة من الزمن علمت أن باتلر غادر المكان وتركني في ذلك المنزل لأباع، وكان هو السبب الكامن لاعتنائهم بي كل ذلك الاعتناء الهائل.

ورجوت الله ألا أسفي من مرضي، ولكنني شفيت، فأخذوا يضطروني أن أظهر كل يوم بأجمل ثياب، فصار المشترون يأتون لمشاهدتي ويطرحون علي أنواعاً من الأسئلة، ويتحدثون في السعر الذي سأباع به. وجاء آخر الأمر رجل نبيل يدعي ستيوارت Stuart ولمّا رأي نفسي تقطر بالآسي اشتراني ووعد بأن يبذل كل جهده لاقتداء ولدي. وبالفعل فقد ذهب إلي الفندق الذي كان يُقيم فيه ابني، فأخبروه بأنه بيع من جديد لصاحب مزرعة عند نهر بيرل Pearl وكان ذلك آخر ما سمعته عنه. وأخيراً أكتشف مقر ابنتي، وكانت تُشرف علي تربيتها عجوز فعرض عليها مبلغاً ضخماً من المال لكنها أبت أن تزعن لرجائه. ولقد تبدي للصفيق باتلر أن ستيوارت يُحب أن يبتاع الفتاة من أجل إرضائي، فكتب إلي يهدد ويقول إنني لن أري ابنتي بعد ذلك أبد الدهر.



كان الكابتن ستيوارت شديد العطف عليّ فحملني إلي مزرعته الرائعة، وهناك عشنا سعيدين، وفي خلال عام وضعت غلامًا. آه! ما كان أجمل ذلك الولد، وكم أحببته، وكم كان شديد الشبه بولدي هنري. ولكنني كنتُ عقدت العزم علي ألا أترك ولدًا من أولادي يحيًا ويدب علي الأرض. وهكذا بعد أن بلغ الطفل أسبوعين حملته وقتلته وبكيت عليه طويلاً، ثم سقيته صبغة الأفيون وشدّدته إلي صدري فيما كان يغرق في نومه الأبدي. ولا تسل كم انتحبت عليه، وكم تراءي لي عملي هذا إثمًا جسيمًا، ولكنني مع ذلك لم أندم علي ما فعلت بولدي، ويكفي أنني أنقذته من حياةٍ بائسةٍ كان يمكن أن يحيّاها، وأبعدت عنه شبح البؤس والمذلة. تُري هل بإمكانني أن أقدم لذلك الطفل المسكين، أفضل من الموت؟

وبعد ذلك مات الكابتن ستيوارت متأثرًا بوباء الكوليرا، ومات كثيرون غيره، في حين عشتُ أنا بعد أن اقتربت من باب الآخرة. ثمّ باعوني في سوق الرقيق، وصرت انتقل من يدٍ إلي يدٍ حتي ذوي شبابي وذبلت نضارتي، فاشتراني أخيرًا هذا الوغد ليغري، وها أنا كما تراني اليوم فريسة الشقاء والألم.

وبعد أن سكنت المرأة لحظة عادت إلي الكلام، فقالت:

- وفي ذات يوم عصف اليأس في رأسي فبدا لي وكأنّ فيّ من الألم ما يكفي لتحطيم المدينة وتخريبها كلّها، فأخذت أمشي في الشوارع علي غير هدي، وتمنيت لو تُهدم المنازل وتقع علي رأسي وتريحني من بلواي! أجل يا توم، غدًا في يوم الحساب سوف أشكوهم إلي الله، وأقف شاهدة علي أولئك الذين عذبوني وعذبوا أولادي جسدًا وروحًا.

لقد كنتُ في حادثي ورعة تقيّة، فأحببت الصلاة. أمّا اليوم فلسْتُ سوي روح تائهة تلاحقني الأرواح الشريرة ليلاً ونهاراً، وتدفعني لعمل شيء يجب أن أفعله، وثِقْ بأني سوف أفعله في يومٍ من الأيام.

قالت ذلك، وجمعت كفها بقوةٍ، وقدحت عيناها شراراً مجنوناً، ثمَّ أردفت:

- سوف أرسلهُ إلي المكان الذي يستحقه في ليلةٍ ما، ولو كان ثمن ذلك إشعالي بالنار وأنا حيّة.

وبعد هذا ساد في الغرفة سكون رهيب، ثمَّ انفجرت «كاسي» بضحكةٍ هستيرية، وسقطت علي الأرض. وما هي إلا لحظات حتي عادت إلي رشدها، فاقتربت من «توم»، وقالت:

- هل تُريد مني أيها البائس المسكين أيّ خدمة. أُتريد مزيداً من الماء؟

وشرب «توم»، ونظر إليها بحنوٍ وعطفٍ، وهو يقول:

- آه! يا سيّدتي اني لا أتمنى لكِ إلا أن تذهبي إلي الذي يستطيع أن يُقدّم لكِ ولجميع الناس المياه الحيّة.

فقالت «كاسي»، وفي عينيها السوداويين وميض حُلمٍ مفرّج:

- كنتُ أري صورته فوق الهيكل، حين كنت فتاة صغيرة، ولكنّه ليس هنا.

- ليس ههنا شيء غير الإثم، وغير اليأس الطويل الذي لا ينقضي.

وتطلع إليها، وكأنّه يُريد أن يقول شيئاً، ولكنّها حالت بينه وبين الكلام،

وقالت:

- لا تتكلم أيها الرّجل البأس. حاول أن تنام إذا كان ذلك في استطاعتك؟

ووضعت مقداراً من الماء تحت تصرّفه، وغادرت المكان علي عجلٍ.



## سر خصلة الشعر

### The secret lock of hair

فيما كان «ليغري» يُعاقر الخمر في غرفة الجلوس الكبيرة الرطبة قرب الموقد، أخذ يدمدم ويقول:

- ليت سامبو يتتليه المرض، فقد أضاع عليّ مجهود الأيدي الجديدة التي جلبتها. فالعبد العجوز لن يقوي علي العمل قبل انقضاء أسبوع أو أكثر. ومتي حصل ذلك؟ الآن والموسم علي أشدّه! يا لك من شيطان يا سامبو.

فقال صوت من وراء الكرسي الذي كان يجلس عليه:

- أجل! مثلك تمامًا.

كانت «كاسي» هي صاحبة الصوت. فلم يكد «ليغري» يراها حتي قال:

- هذه أنتِ أيها الشيطانة! لقد رجعتِ من العملِ أليس كذلك؟

فقالت في لامبالاة:

- أجل ولسوف أعمل منذ اليوم ما يحلو لي أيضًا.

- إنك تهذين أيتها الماكرة الفاجرة، فأنتِ منذ اليوم ستساقين إلي العمل يوميًا كسائر العمال إن لم ترتدعي وترجعي عن غيك!

- إنني أفضل ألف مرّة أن أعمل مع العبيد علي أن أبقى تحت إمرتك هنا.

- ولكنك تحت أمري علي أية حال.. فاجلسي هنا علي ركبتي يا عزيزتي

واستمعي إلي صوت العقل. فحدجته «كاسي» بنظراتٍ شرسة، وقالت:

- سايمون ليغري، خذ حذرك. أنت خائف مني ولك الحق في ذلك. كن حذرًا فني جسدي ألف شيطان.

وهمست بالكلمات الأخيرة همسًا.

ودفعها «ليغري» بعيدًا عنه، ونظر إليها نظرات تعج بغيظ مكبوت.

- علي كُـلِّ حالٍ يا كاسي، لماذا لا نكون أصدقاء كما كنا من قبل؟

- كما كنت أفعل من قبل!

وصمتت فجأةً. لقد ثارت في قلبها دنيا من الانفعالات المريرة أكرهتها وأجبرتها علي السكوت.

كانت «كاسي» قبل ذلك الوقت قد استطاعت أن تفرض علي «ليغري» نوعًا من النفوذ الذي تلجأ إلي استخدامه المرأة القويّة الثائرة في تحطيم أشرس الرّجال، ولكنها انتهت في الآونة الأخيرة إلي أن أضحت أكثر انفعالاً وأشدّ قلقلًا وهي ترضخ لنير عبودية ذلك الوحش القاسي. ولكن «ليغري» مع ذلك كان يخشاها، وهو مُصاب بذعر خرافي.

وعندما جاء «ليغري» بـ«إميلين» إلي البيت، دبت الغيرة الأنثوية في قلب «كاسي» المُحطم، فوفقت إلي جانب الفتاة أوّل الأمر، فكان من جرّاء ذلك أن حصل شجار مُخيف بينها وبين «ليغري» الذي أقسم علي أثره بأن يقذف بها لتعمل في الحقول، إذا لم تخلد إلي السكينة، فقبلت «كاسي» التحدي وعملت يومًا كاملاً لكي تبرهن له عن استعدادها لتحديه.

وكان الظلم النازل بـ«توم» المسكين قد زاد من نقيمتها، فوجهت إلي «ليغري» أعنف اللوم تلك الليلة. وفيما هما يتشاجران فتح الباب ودخل «سامبو» حاملًا بيده شيئًا قد لف بورقة، فقال «ليغري»:

- ما هذا أيها الكلب؟



- إنها تميمة يا مولاي.

- ماذا؟

- لا شكّ في أنّها إحدى التمائم التي يضعها العبيد في أعناقهم فُتُساعدهم علي احتمال الآلام والتعذيب. كانت مُعلقة حول عنق ذلك العبد الأسود توم.

وكان «ليغري» ممّن يؤمنون بالخرافات، فتناول الورقة وفتحها بعصبية، فإذا في داخلها دولار فضي وخصلة شعر طويلة من شعر أشقر طويل، شعراً التفّ كأنه شيء حي حول أصابع «ليغري». وفي هياج مبالغٍ وقف «ليغري» وطفق يجذب خصلة الشعر بعيداً عن أصابعه، وكأنّها تحرقه، وصاح: من أين جئت بها؟ أبعدها عني أحرقتها.. أحرقتها!

وألقى الخصلة في نار الموقد، واستطرد يقول:

- لماذا جئتني بها؟ لماذا؟

وأصاب «سامبو» ذهولٌ مُرعب فلم يستطع جواباً. وتمهّلت «كاسي»، وكانت تنوي أن تبرح الغرفة، وتطلعت إلي وجه «ليغري» باستغرابٍ بالغ.

وصاح «ليغري» في وجه «سامبو»:

- أحذرك منذ اليوم أن تأتيني بشيءٍ من تلك الأشياء الشيطانية. هيا تناول الدولار الفضي واطرحه خارجاً.

عند ذلك ركن «سامبو» إلي الفرار.

وخرجت «كاسي» إلي الغرفة المهجورة حيث كان «توم» المسكين يئن من جراحة بغيّة مساعدته.

ولكن، تُري ما السرّ الذي جعل «ليغري» الوحش الشرس يثور ويضطرب بهذه الصورة لدي رؤيته خصلة الشعر؟

واقع الأمر أنّ «ليغري» غليظ القلب كان قد تربّي في أحضان أمّ تقيّة ورعة، كان همّها أنّ تغرس في نفس ابنها روح التدين، وأنّ تُحبّب إليه

الصلاة. ولما كان والده سيء الخلق مستهتراً بالمثل العليا والقيم، شبَّ «ليغري» علي ما كان عليه والده، وطرح نصائح أمه جائباً من دون أن يعمل بها. وما إن صار «ليغري» رجلاً شديد البأس حتي فارق أمه وسافر إلي أماكن بعيدة عبر البحار يلتمس الثروة غير المشروعة، والمتعة الحرام، ولم يعد إلي والدته بعد ذلك إلا مرة واحدة، فتعلقت به وراحت تُصلي من أجل خلاص روحه، وأخذت تنصحهُ بأن يتعد عن حياة الإثم والرزيلة.

وقد أثرت ابتهالات والدته فيه، وظهر في قلبه نور الإيمان، ودعته الملائكة إلي إنقاذ نفسه، وكاد يقتنع بأن التقوى أفضل من الفساد. وكان نتيجة ذلك أن حصل عراك داخل نفسه، ولكن كُتِب النصر للإثم والشرّ آخر الأمر فانكفاً «ليغري» إلي جهة الرذائل، فيئست أمه من إصلاحه.

وفي ذات يوم جاءت متوسلة وركعت عند قدميه وقد بلغ منها اليأس غايته، فرفسها بعقبه فخرت علي الأرض فاقدة الوعي. عندئذ ترك «ليغري» البيت وعاد إلي سفينته من دون أن يعرف من أمر أمه شيئاً.

وفيما كان ذات يوم يحتسي الخمر مع جماعة من رفاقه السكارى، جاءته رسالة وكاد يقصفها حتي وجد خصلة طويلة من الشعر الجعد قد التفت علي أصابعه، أمّا الرسالة فقد حملت إليه نعي والدته وأنها سامحته علي خطيئته وغفرت له، إذ كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وعندئذ ارتعدت فرائص «ليغري»، ثم أحرق خصلة الشعر وأحرق الرسالة. وفيما كان يُشاهد النار تأكل الشعر والرسالة، شعر برجفة تهز كيانه كلّهُ إذ تراءت له من خلال ذلك، النار الأبدية التي تنتظر المُجرمين، ثم أخذ يُكثر الشراب لينسي ما خالط ذهنه من صورٍ بشعة. ولكنه كثيراً ما كان يتمثل في الليالي المظلمة أمه الشاحبة نائمة قربة في الفراش، ويشعر بالتفاف شعرها التفافاً ناعماً حول أنامله، ويحس بالعرق البارد يتصبّب من جسمه فيشب من فراشة مذعوراً.



تلك حكاية «ليغري».

وهكذا ما إن وجد «ليغري» نفسه وحيدًا بعد خروج «سامبو»، و «كاسي» حتي انفجر بالغضب، وهو يقول في نفسه: «ومن أين جاء بها ذلك اللعين؟ لقد ظننت أنني نسيتها إلا ما أشقاني، وما أتعسني إذ حسبت أنني نسيتها، وعلي أية حال فأنا وحيد الآن وسأدعو إميلين عَلَيَّ أنسي معها كربتي، ولكنها تكرهني هذه اللعينة، غير أنني لن أبالي بما سَظْهره نحوي. ولسوف أحملها علي أن تحضر إلي».

وفيما هو يرتقي السُّلم، وصلت إلي أذنيه أنغام صلاة، أو غناء تنطلق في البيت. فوقف متمهلاً، وأصاخ سمعه إلي الصوت، وكان شجياً رقيقاً فإذا به يسمع أغنية من الأغاني الشائعة بين الزوج: «أوه سيكون ثمة بكاء بكاء بكاء.. أوه سيكون ثمة بكاء حين يجلس المسيح للحساب..».

ثمَّ صاح بصوتٍ أجشٍ:

- إميلين.. إميلين..

فلم يردِّ عليه غير صدي ساخر رجَّعته الجدران. وواصل الصوت العذب إنشاده: «هناك يفصل الآباء عن الأبناء.. يفصلون لغير ما لقاء..».

ثمَّ عاد الصوت يتغني باللازمة: «أوه! سيكون ثمة بكاء بكاء بكاء..».

وأصاب «ليغري» ذهول غريب جمَّده في مكانه. وقد خجل لما أصابه فهو لا يستطيع أن يروي علي مسامع أحد ما اعتراه. لقد تصبَّب العرق باردًا علي جبينه، وخفق قلبه خفقانًا غريبًا، وحُيِّل إليه أنه رأي نورًا جديدًا يُضيء الظلمة التي تكتفه وتُحيط به. ولكن أوصاله ارتعدت حين خطر في خلدته أن شبح أمه قد يبرز أمامه.

وكان أن عاد «ليغري» إلي غرفة الجلوس، فأخذ يُحدِّث نفسه، قائلاً: «لا بأس في أن أُصرِّح لنفسي بأني واثق من شيءٍ واحدٍ هو أنني سأترك ذلك العبد وشأنه بعد اليوم، وبعد فماذا يعنيني من ورقته المسحورة تلك؟ هل أكون قد سُحرت، فالعرق البارد لا يفارقني منذ تلك اللَّحظة. تُري من أين أتى بتلك الخصلة من الشعر، لا، لا يمكن أن تكون خصلة شعر أمِّي! فقد أحرقتها بالنار. إني واثق من ذلك. وكم هو مضحك أن يعتقد المرء أن في مقدور الشعر أن يُبعث حيًّا بعد أن يُحرق!».

وصفر «ليغري» للكلاب وصاح:

- لِيُنقُ بعضكم وليلازمني!

ولكن الكلاب اكتفت بأن فتحت عينًا واحدةً ناعسةً، ثمَّ أغمضتها وغرقت في الرقاد.

وقال «ليغري» في نفسه: «سوف أدعو سامبو، وكويمبو إلي هنالينشداويرقصا علي طريقتهما الهندية الخاصَّة، وبهذا أطرِد تلك الأفكار الجهنمية عني». ولبس قبعته، وقصد إلي الشرفة، ونفخ في بوقٍ تعود أن يستدعي به خادميه المقربين.

وفيما كانت «كاسي» عائدة من غرفة «توم» نحو السَّاعة الثانية بعد منتصف اللَّيل، لتخلد إلي النوم في غرفتها، سمعت عربةً وصرًا عاليًا ممزوجًا بغناءٍ يصدر من حجرة الجلوس، فصعدت إليها وألقت نظرة علي مَنْ في الغرفة، فوجدت «ليغري» وخادميه في حالٍ من السُّكر الشديد، وهم يغنون، ويرقصون، ويقلبون أثاث الغرفة رأسًا علي عقب!

فقالت في نفسها: «ليس في التخلُّص من هذا الوغد اللثيم أي إثم أو خطيئة».



رجلٌ لا يخاف الموت

## A man does not fear death



لما دخلت «كاسي» غرفة «إميلين» وجدتها جالسة مرتقبة خائفة في أقصى زاوية من زوايا الحجرة، وانتفضت «إميلين» لذي دخول «كاسي»، حتى إذا تبينت ملامحها أنست بها، واندفعت نحوها تمدّ ذراعيها مرحبةً، قائلةً:

- ما أسعدني بمجيئك يا «كاسي» أهذا أنت؟ لقد حسبته هو القادم الذي دخل غرفتي. أه! هل سمعت تلك الضجة المخيفة التي تنبعث من الطابق السفلي طوال الليل؟ وهل عرفت مثلها من قبل؟

- وكيف لا أعرفها؟ لقد سمعت مثلها مئات المرّات!

- آه يا أختاه كاسي! أليس من سبيلٍ إلي أن نبتعد عن هذا البيت الحقير؟ أليس من يُنقذنا فنفر؟

- ليس في استطاعتنا أن نفرّ إلي أيّ مكان غير القبور!

- وهل حاولت ذلك يوماً؟

- لقد رأيت كثيرًا من الأرقاء يحاولون، وعرفت ما كانت نتيجتهم!

- إني أفضّل أن أحيّا في المستنقعات حيث الأفاعي والعقارب، وأن أكل جذور الشجر علي أن أحيّا إلي جانبه، فإني لا أخشي الحيّات بقدر ما أخشاه!  
- ولقد كان هنا كثيرون يشاركونك هذا الرأي، ولكنك لن تستطيعي البقاء في المستنقعات. إنّ الكلاب خليقة بأن تتعقب آثارك وتعود بك إلي هنا، وعندئذ..

- ما الذي يعمله عندئذ..؟

- بل من الأفضل أن تسأليني وما الذي يمتنع عن عمله؟ لقد أتقن صناعة القتل جيّدًا بفضل تعاطيه القرصنة في جزر الهند الشرقية. وإني لو أروي علي مسامعك بعض ما شهدته من أهوال، لما غمض لك جفن. والله وحده هو الذي يعلم ما قد تراه أعيننا غدًا، أو بعد غدٍ.

و غاص الدّم في وجه «إميلين»، التي قالت:

- شيءٌ مخيفٌ يا كاسي، أخبريني ما الذي عليّ أن أفعله؟

- ما فعلته أنا. أعملي أقصي ما تستطيعين عمله. أعملي ما ينبغي وأعمليه ببغضٍ.

- إنّه يُكرهني علي معاورة الخمر معه وإني أكرهها و أكرهه.

- من الخير لك أن تشربي. لقد كنتُ أكرهها أيضًا، أمّا اليوم فأنا لا أستطيع أن أعيش من دونها، ذلك أنّ الأمور المُخيفة تبدو أقلّ قدرة ممّا هي عليه لمنّ يحتسي الخمر!

- ولكن أمّي حذرتني منها كثيرًا!

- كذلك فعلت أمي. ولكن لم تتعب الأمهات أنفسهن بمثل هذه النصائح و الإرشادات الباطلة؟ أمًا ما يجري هنا هو أننا نُباع جميعًا و تُدفع أثماننا لمالكننا. وتصبح نفوسنا ملكًا لكلِّ مَنْ يقدر علي استرقاقنا. ومن أجل ذلك أقول لك: اشربي الخمر، اشربي أكبر قدر منها ما استطعتِ، ففي ذلك ما يجعل حياتك أكثر احتمالاً!!



في صباح اليوم التالي دخلت «كاسي» علي «ليغري» فوجدته واجمًا، كئيب النفس بسبب حُلم رآه. رأي وجهًا مُحجَّبًا هو وجه أمه دون شك، يمدُّ إليه يدًا دقيقةً، ورأي أن تلك الخصلة من الشعر صارت تلتف حول أنامله ثم أخذت تطوّق رقبتة وتضغط عليها بشدّة حتي تكاد أن تخنقه. وزاد علي ذلك أن «كاسي» قد رمته في بئر عميقة.

قالت له «كاسي»:

- والآن يا عزيزي «سايمون ليغري» إني أقدم لك نصيحة..

- وما تلك؟

- أن تترك «توم» وشأنه.

- ولكن ما الذي يهملك من أمر توم؟

- ماذا؟ أنسيت أننا في أوج الموسم، وأنه ليس من مصلحتك أن تجعل

أنشط أيدٍ لك مغلوطة عاطلة، في حين منافسوك يتغلبون عليك.

وكان لدي «ليغري» مطمع واحد شأن معظم المزارعين هو أن ينتهي موسم القطن بأوفر محصول ممكن. وقد صادف أنه راهن مرارًا علي ذلك الموسم، ولهذا فقد أقتنع بكلام «كاسي» بسهولة ويسرٍ، وقال:

- حسنًا سأخلي سبيله. ولكن من واجبه أن يسألني العفو، وأن يعدني بأن ينهج منذ اليوم نهجًا أفضل.

- ذلك شيء لن يُقدم عليه توم!

- لا يُقدم عليه؟ ولم يا سيديتي؟

- لأنه عمل ما هو الصواب والحق فمن الصعب عليه أن يعتذر.

- ولكنك سوف تزين أنه سوف يفعل مُرغمًا، فأنا أكثر الناس معرفة بالزواج، وستزين أيضًا أنه سيتقدم إليّ ملتمسًا العفو كالكلب هذا الصباح.

- لن يفعل ذلك. فأنت لا تعرف هذه الفئة من الناس. إنه يُفضل الموت علي أن يطلب العفو.

- سنري!

قال «ليغري» ذلك، وذهب إلي الغرفة التي وُضع فيها «توم» جريًا.

في ذلك الصباح، استفاق «توم» فبد له أن وفاته قد غدت وشيكة الوقوع، وعندما أطلت أنوار الضحى علي الغرفة المهجورة، خفق قلب «توم» بهجةٍ وجبورٍ واستعد للقاء ربه. وفيما هو يُعارك الموت دخل عليه سيده «ليغري» ورفسه برجله باحتقارٍ، وقال له:



- حسناً يا توم. كيف تجد نفسك الآن؟ أحسب أنّ الدرس الذي أخذته كان كافياً!

واعتصم «توم» بالصّمت.

فصاح به «ليغري»:

- أنهض أيها الحيوان القذر.

ورفسه برجله من جديد.

فتحامل «توم» علي نفسه ونهض وواجه مولاه مرفوع الحاجبين، فتطلع

إليه «ليغري» شزراً، وقال:

- عجيبٌ أن تُقابلني بهذه الوقفة الجبارة. ويبدو أنّك لم تأخذ نصيبيك من

الضرب الكافي! حسناً أركع الآن أمامي، وأطلب الصّفح عمّا بدر منك اللّيلة الماضية!

ولم يتحرّك «توم».

- أركع أيها الكلب، أقول لك!

وضربه بسّوطه.

فقال «توم»:

- لا تحمّلني علي فعل ما لا أستطيعه. فقد فعلت ما هو حق في اعتقادي.

وسوف أقف الموقف نفسه إزاءك، إذا اضطرت إلي ذلك في المستقبل.

- إذا ما قولك لو شدّدت وثاقلك إلي جذع شجرة وأضمرت النار حولك؟

إنّهُ لمشهدٍ جميلٍ أليس كذلك؟

- مولاي أنا أعلم أنّ باستطاعتك أن تُميتني، ولكن بعد أن تقتل جسدي لن يبقي شيء تستطيع أن تُعذبه. فأنا علي استعدادٍ أن أُقدم لك قوتي كُلّها ووقتي كُلّه وإخلاصي في العمل من دون تفكير. أمّا نفسي فلا أُقدمها إلي أيّ إنسان سيفني مثلي، بل أُقدمها إلي الله وحده، وأنفذ أوامره قبل كُلّ شيء، سواء عشت أو مت.

وصمت «توم» لحظة، ثمّ استطرد يقول:

- كن علي ثقةٍ من أنني لا أخشي الموت أبداً، وأنت تستطيع أن تجلدني بالسَّياط، وأن تحرمني الطعام والماء. وأن تحرقني بالنار ولكن ذلك لا يغضبني بل إنّه، علي العكس، يُعجّل في تركي هذا العالم الفاني لأذهب إلي عالم آخر هو أحبّ إليّ من هذا العالم.



جريمة قتل لم تتم

**Murder did not take place**

عاد «توم» إلي العمل في الحقل يكدح من الصباح حتي ساعة متأخرة من الليل، فعاوده الضعف الجسماني وتراءت له مأساته مخيفة رهيبة، فخالطه الغم وسيطر عليه الأسى. لقد فكر في الرسالة التي بعثت بها الأنسة «أوفيليا» إلي أصدقائه في «كانتافي» وفيها تضرع إلي الله أن يرسل إليه مَنْ يُنقذه من هذا المصير الكئيب. وأخذ المسكين يتربص مُنقذه يوماً بعد يوم، حتي إذا خاب رجاؤه ولم يجد في حياته إلا السراب الخادع، ساورته الشكوك مرّة فأخذ يقاومها. ولكنها كانت تلقي الخوف في روعه حيناً، كما كانت تسوقه أحياناً إلي الاعتقاد بأنه لا طائل من أن يستمر في تقويّ الله لأنّ الله قد نسيه وتخلي عنه وهو في أشدّ الحاجة إليه.

ومن البديهي أنّه عندما تضعف النفس عن احتمال أي عبء ثقيل تتكاثر المشقات والأتعاب علي الأعصاب والأعضاء حتي علي المعنويات والاعتقادات. وتثور نائرتنا في يأس لزحزحة ذلك الثقل الذي يقصم ظهر الإنسان، ويقض مضجعه، ويهدّ كيانه.

إنّ الصبر والشجاعة هما وليدا المصاعب والأوجاع، وهذا ما وقع لـ«توم» نفسه. فإنّ المظالم التي تفتن «ليغري» مولاه في إنزالها به قد بلغت ذروة الوحشية والبشاعة، في حين كانت يد الإيمان لا تزال مستجيبة بالصخرة الأبدية، ولكن بقبضة حذرة دب في عروقها اليأس المرير. كان «توم» يجلس شارد الذهن موزع النفس قرب النار المتقدمة حين بدا له كُّل أمل في النجاة وكأنّه قد انهار.

وفكّر جيّدًا بذعرٍ ودهشةٍ لما أصابه، فبرز له وجه مُشرق يتوجه إكليل من الشوك، والدّم يسيل من جراحه. أمعن «توم» النظر في ذلك الوجه المُتعب والصبر الذي يتجلي علي ذلك الوجه، فاستيقظت روحه الضعيفة من شكوكها وبسط يديه وجثا علي قدميه، فيما كانت الرؤيا تتحوّل تدريجيًا وتبدّل. فإذا بالأشواك التي تُكَلِّل هامته تنقلب إلي أشعة من بهاءٍ ومحبةٍ، وإذا بذلك الوجه نفسه يلتفت إليه بحنانٍ وعطفٍ ليقول له بصوتٍ حنونٍ: طوبى لمن يصبر ويقاوم لأنّه سيجلس معي علي عرشي.

وحين ثاب «توم» إلي نفسه كانت النار قد خمدت، وإذا ثيابه تعصر بالعرق الغزير. وقد وُتّ أزمة الروح الرهيبة وانقضت وامتألت جوانح نفسه بالبشر والارتياح العلوي، فهو لا يخشي بعد ذلك الجوع، أو البرد، أو التحقير، أو الإهانة، أو التعاسة. ونظر «توم» إلي نجوم السماء الخالدة التي ما فتئت ترعي الإنسان وتلقي عليه أضواءها الملائكية، ثمّ راح ينشد في سكون الليل الجليل تمتات ترنيمة تعوّد إنشادها سابقًا، وقد غمره شعور سعيد لم يُحسّ به من قبل: إنّ الأرض سوف تذوب كالثلج، وإنّ الشمس سوف تفقد أنوارها، ولكن الله الذي دعاني هنا إليه، سوف يكون لي إلي الأبد».

وحين ظهر الصباح ولاح، كان في عداد أولئك البائسين المرتجفين من البرد، الذين استيقظوا من سباتهم ليهرعوا إلي الخيل، رجلٌ يمشي بخطي سعيدة وادعة، لأنّ إيمانه بالله العليّ القدير، إيمانه بالحُبّ الخالد كان أقوى من الأرض التي يسير عليها.

ومنذ تلك اللّحظة انفتحت في قلب ذلك المخلوق التّعَب المُعذب علي الأرض، كوة سلام لا سبيل إلي سدّها فقد زالت عنه الأحزان والمخاوف بل تلك الرّغبات التي كانت تملأه أسّي ولوعة، والتزمت تلك النفس البشرية التي طالما تعذبت وناضلت التزامًا كُليًّا بالإرادة الإلهية التي هي جزء منها.



ولاحظ «ليغري» وأرقاؤه جميعًا ذلك التطور الذي ألم بنفس «توم»، وحراروا في تعليبه وتأويله. وفيما كان «ليغري» ذات مساء عائداً من رحلة قام بها علي حصانه في المدينة المجاورة، وكانت الليلة مقمرةً والنسيم عليلاً. سمع «توم» يُنشد ترنيمة كنائسية فرجع في وجهه السوط وصاح به:

- كيف تجرؤ أن تطلق العنان لصوتك في مثل هذه السّاعة المتأخرة من الليل. الأفضل لك أن تطبق فمك الأسود وتأوي إلي فراشك.

- نعم يا مولاي.

وكان «توم» يغط في نوم عميقٍ هاديءٍ عندما أيقظته «كاسي» من شباك الغرفة، ودعته للخروج فنهضَ جذلاً مستبشراً.

كانت السّاعة تتراوح ما بين الواحدة والثانية بعد منتصف الليل، وقد لاحظ «توم» علي ضوء القمر في عيني «كاسي» الواسعتين السوداويين بريقاً وحشيّاً نائراً كان يعصف بهما.

- تعالي إليّ ولا تخف أيها الأب توم.

وجذبتة بيدها الصغيرة من معصمه إليّ الأمام بقوةٍ وعزمٍ، وقالت له:

- تعالي فعندي أخبار أريد أن أبوح لك بها.

فقال «توم»:

- سوف أنعم بها في وقتٍ قريبٍ إن شاء الله.

وتردّد «توم». فركزت عينيها السوداويين عليه، وهمست في أذنه:

- تعالي أنظر فهو نائم كالقتيل. لقد سقيته مقداراً زائداً من البراندي فغرق في النوم حتي أصبح كالमित. تعالي، فالباب الخلفي مفتوح وهناك فأس حادة. لقد أحضرتها ووضعتها هناك، وباب غرفته مفتوح وسوف أدلك علي

الطريق. لقد كنت عازمة أن أتولي قتله بنفسي، ولكن ذراعِي ضعيفتان ولا أقوى علي القيام بهذه المهمة تعالي. تعالي ونفذ ما أقوله لك.

- لا، لا يا سيّدي لن ألوث يديّ بالدم ولو أعطيت الدنيا ثمنًا لذلك!

- ولكن فكّر في هذه المخلوقات البشرية البائسة. إنّنا قد نوفق إلي تحريرهم جميعًا. ونذهب إلي مكانٍ في المستنقعات ونقطن في جزيرةٍ نستطيع أن نعيش فيها في عزلةٍ عن العالم.

وأجابها «توم» في حزم:

- لا، لا إنّ الخير لا ينبثق أبدًا من الشرّ، إني أوثر أن اقطع يميني قبل أن أقترف هذا الشرّ.

- إذا سأقوم بهذه المهمة أنا بنفسي.

- برّبك يا كاسي. لا تفعل ذلك بحق المسيح المُخلص الذي مات من أجلنا، لا تسلمي نفسك الغالية للشيطان. إنّ هذا العمل الشرير لن يعطي إلا الشرّ. إنّ الله لم يطلب منا أن نُعاقب أعداءنا، بل علينا أن نتعذب ونتحمّل حتي يأتي بملكوته.

- انتظر مجيئه! لقد انتظرت حتي ضاق صدري، واعتل قلبي، لماذا يفرض عليّ المُخلص أن أتعذب وغيري ينعم؟ لماذا يفرض علي مئات من المخلوقات التعسة أن تتعذب؟ ألا يمتص «ليغري» الشرير دمك امتصاصًا. لا. لقد دُعيت إلي العمل المُجدي النافع، وإنّ الضحايا تدعوني للانتقام، ولسوف أسفح وأريق دمّ ذلك الشرير.

- لا أستحلفك أيتها الإنسانة الضالة الشقية. إنّ مُعلمنا يسوع لم يطرح سوي دمه وحده. ولقد فعل ذلك لكي يفتدينا حين لم نكن بعد أصدقاء له. ساعدنا يا الله أن نطبق تعاليمه، ونقتفي سيرته ونُحبّ أعداءنا كما أحبّ أعداءه.



فقلت «كاسي»، وقد لمعت عيناها ببريقٍ وحشي:

- نُحِبُّ مثل هؤلاء الأعداء، ذلك ما لا طاقة للحم والدم علي احتماله.

- لا يا سيّدتني ليس ذلك بمتعذرٍ، ولكنّه هو يمنحنا القوّة لملاقاة هذا الشرّ والتغلّب عليه وهذا هو نصرنا. وعندما نستطيع أن نُحِبَّ جميع الناس ونعمل من أجلهم عندئذ نربح المعركة ومنتصر فليكن اسمه مباركًا ومجده دائماً.

ورفع «توم» رأسه إلي العلاء وعيناها دامعتان وأخذ يُصلي بصوتٍ أجشٍ. فسقطت دموع «توم» الملتهبة علي روح تلك المرأة القلقة الثائرة سقوط الندي، فخدمت النار المضطربة في قلبها، وأطرت ملياً. وحالاً لاحظ «توم» أنّ تقلّصات يديها قد ارتخت، فيما كانت تقول:

- ألم أُخبرك من قبل أنني فريسة الروح الشريرة! أه أيها الأب العزيز. إنني أتمني أن أصلي، ولكنني لا أقوي علي الصلاة. لم يُتِح لي أن أصلي منذ اليوم الذي بيع فيه ولديّ. إن ما تقوله يا «توم» هو حق، ولكنني عندما أجرب أن أصلي أجدني مضطرة أن أكره وألعن. لهذا فليسأمحني الله فأنا لا أستطيع أن أصلي.

فقال «توم» في حنانٍ:

- أيتها المرأة البائسة لا تُسلّمي نفسك للشيطان الذي يُريد أن يستولي عليك، وإنني سأصلي لك ليحفظك الرّبّ الإله من شرّ الشيطان.

ووقفت «كاسي» صامته. بينما انحدرت علي خديها دموع غزيرة مريرة.

- سيّدتني إذا كان في استطاعتك فعلاً أن تفري من هنا فإنني أنصح لك بأن تهربي مع إميلين. أعني إذا كان في إمكانكما أن تفعل ذلك من غير إراقة دماء.

- وهل تحاول معنا أيها الأب توم؟

- لا أستطيع أن أرافقتكما فمهمتي قائمة بين هؤلاء البائسين، ولسوف أظلّ معهم حتي يأتينا الله بالفرج. وسأحمل صليبي كما يحملون حتي نهاية الطريق. وإنّ الموضوع يختلف بالنسبة إليكما. فإنكما ستبقيان معذبتيين وليس في طاعتكما الصبر علي ذلك. وأري من الخير لكما أن تبرحا المكان إذا كان ذلك ممكناً.

- ليس من سبيل إلي ذلك سوي القبر. وإني لواجهه فيه راحتي لأنّ الحيوانات والطيور لا بدّ من أن تجد لها منزلاً في مكانٍ ما. وكذلك الحيات والتماسيح لها موطن تعيش فيه وترجو فيه الرّاحة. أمّا نحن فليس لنا مسكن، ولا وطن، ولا نزل نأوي إليه. فإذا ما ذهبنا إلي المستنقعات المرعبة تعقبنا الكلاب ومزقتنا. الجميع ضدنا حتي البهائم هي عدوة لنا، فإلي أين نذهب؟  
وصمت «توم» لحظة، ثمّ قال:

- إنّ الذي أنقذ دانيال من مخالب الأسود، والذي سار علي الماء، وأمر الرياح أن تهدأ فسكنت لم يمّت، وهو يمدّ لكما يد المعونة، وإني واثق أنّ في استطاعته أن يحفظكما سالمتين، حاولا وسوف أصلي بكلّ قواي من أجل سلامتكما.

لقد فكّرت «كاسي» بمختلف الخطط التي يمكن اصطناعها واختلافها لتوفيق في الهروب من ذلك الجحيم. ولكنّها كانت تستبعدّها كلّها بوصفها فاشلة وغير منطقية. ولكن خطة واحدة لمعت في ذهنها فجأةً. خطةٌ بسيطةٌ وسهلةٌ بحيث ملأت نفسها بالأمل. فقالت «كاسي» فجأةً:

- أيها الأب الحبيب سأحاول ذلك.

فقال «توم»:

- حسناً ليساعدك الرّبّ الإله.

## الحيلة الجهنمية

### The trick hellish

كانت في منزل «ليغري» عُلْيَّة واسعة عريضة، ولكنها كانت مهملة فَعَلَتْهَا طبقة من الغبار ونسجت فيها العنكبوت خيوطها. وكانت تحتوي هذه العُلْيَّة علي أمتعة متنوعة الأشكال والأنواع، وفي جانبها صندوقان كبيران لنقل الأثاث. وهناك نافذة صغيرة متربته، تخترقها أشعة باهتة تنعكس أنوارها الضعيفة علي المناضد والكراسي المهملة.

كانت تلك العُلْيَّة بوجه عام مكانًا موحشًا يبعث في النفس الرّهبة والخوف. ولهذا فقد سَرَتْ بين الزوج إشاعات مُرعبة عن الأشباح والأرواح حول ذلك المكان. وكان «ليغري» قد سجن فيها قبل عدة سنوات امرأة زنجية. وقد كان الأرقاء يتهامسون فيما بينهم إذا خلا بعضهم إلي بعض أنّ هذه المرأة أُخرجت من ذلك المكان ميتة. ثمَّ أخذت الأقوال تتردّد بعد ذلك حول ملابسات موتها، وأخذت اللعنات تُصَبّ عليها وعلي ذلك المكان المسحور المُخيف. وقد علم «ليغري» بما يتحدّث عنه العبيد، فخاف وارتاع، وأقسم ألا يترك المجال للعبيد أن يتحدّثوا عن ذلك الحادث، أو عن ذلك المكان.

ولقد تذكّرت «كاسي» فجأةً قصّة تلك المرأة المقتولة، فأحَبَّت أن تستفيد منها لانتزاع حرّيتها، وحرية «إميلين»، فعمدت إلي هذه الحيلة الجهنمية.

كانت غرفة نوم «كاسي» تقع تحت العُلَيَّة مباشرة. وفي ذات يوم أوعزت إليّ الخدم، أن ينقلوا أثاث غرفتها وأمتعتها كُلِّها إليّ غرفةٍ أُخري بعيدة. وفيما كان الخدم منهمكين في إنجاز المهمة رأهم «ليغري»، وكان عائداً من النزهة، فسأل «كاسي» عن السبب الذي من أجله رغبت في الانتقال إليّ غرفةٍ جديدةٍ، فقالت:

- لأنني بْتُ مشتاقّة إليّ أن أنعم بشيءٍ من النوم.

- النوم؟ حسناً. ولكن ما الذي يحول بينك وبين النوم؟

- إذا كان يعينك أن تعرف فيّني مستعدة أن أحدثك عن ذلك!

- تحدثني أيها الخبيثة.

- آه! لا لزوم عن الحديث. ولكني لا أعتقد أن حديثي قد يُزعجك أو يُقلِّبك. فكلّ ما هنالك أني أسمع كُلّ ليلة من العُلَيَّةِ أُناتٍ مُزعجةٍ مؤلمةٍ، وشجاراً بين أناس، وأشياء تتدحرج!

فسألها «ليغري»، في قلقٍ وهو يتكلف الضحك:

- ما هذا؟ بعض الناس في عُلَيَّة البيت ومن يكون هؤلاء يا تُري؟

ورفعت «كاسي» عينيها السوداويان الحادتين، ونظرت إليّ وجه «ليغري» نظرةً شُعر كأنّها تنفذ إليّ عظامه.

- صحيح يا «ليغري» من هم؟ أرجوك أن تخبرني. أحقاً لا تعرف من هم؟

وحاول «ليغري» أن يضربها بالسُّوط، ولكنّها أنسلت في خفةٍ، واجتازت الباب، ثمّ تلفتت إليّ الوراء، وقالت له:

- لو نمت في تلك الغرفة إذاً عرفت كلّ شيء عنهم. ولعلّ من الخير لك أن تجرب ليلة واحدة. وأغلقت الباب خلفها في الحال.



وما كادت تقول هذا حتي تملك الخوف قلب «ليغري» فاخذ يتلوي خوفاً ورعباً. وتوعد بأن يكسر باب العليّة، لكنه ما لبث أن أثر السكوت. ومضي إلي غرفة الجلوس، فعلمت «كاسي» بفراستها أنّ سهمها لم يطش، وأنّ خطتها ستنجح، فبدأت منذ ذلك الحين تُحطم أعصاب سيدها تحطيمًا متواصلًا. وأخذت تنفذ الخطة، فأدخلت في ثقبٍ مودّ إلي العليّة عنق زجاجة قديمة بشكلٍ منحني بحيث لا تكاد الريح، أو النسيم يمسه خفيفًا حتي يصدر عن فم الزجاجة ما يشبه الأنين الموجع المثير. وإذا اشتدت الريح كان الأنين يتحوّل مع الصّفير إلي ما يشبه الصراخ المُخيف.

و كان الأرقاء يسمعون في الليل هذه الأصوات حينًا بعد حين فيخافون، و تحيّا في مُخيلتهم ذكري أسطورة الأرواح القديمة. وما هي إلاّ أيام حتي امتلأ المنزل بمنّ فيه بالدعر والخوف.

ومع أنّ أحدًا لم يجرؤ علي إخبار «ليغري» عن قصّة الأموات، فقد كانت تراوده تلك المخاوف إذ كان يجد نفسه مطوّقًا ومُحاطًا بالخرافات.

وبعد ليلتين كان «ليغري» مضطجعًا في غرفة الجلوس القديمة. يصطلي و يستدفئ قرب النار، وكانت الرياح عاصفة مزمجرة تتلاعب بالنوافذ والأبواب فتكاد تحطمها، كما كانت تهزّ المدخنة فتنتثر الدخان والرماد بين الحين والآخر.

قضي «ليغري» في تلك الغرفة عدة ساعات وهو يحسب، ويقرأ الصحف، في حين جلست «كاسي» في الزاوية تُحدّق به عابسة الوجه. وألقي «ليغري» صحيفته، ثمّ تناول كتابًا كان قد رأي «كاسي» تُطالعه في الهزيع الأوّل من الليل وأخذ يتصفحه. كان الكتاب يحتوي علي عددٍ من الحكايات المخيفة المتعلقة بالأشباح والأرواح. وقد استهوته القصّة أوّل الأمر فراح يقرأها برغبةٍ حتي أدركه النعاس. ثمّ طرح الكتاب جانبًا، وسأل «كاسي»:

- أعتقد أنك لا تؤمنين بخرافة الأرواح يا كاسي، أليس كذلك؟! إنَّ ما يسمونه أرواحًا وشياطين ما هو في الواقع سوي فئران ورياح. كنتُ أسمع مثل هذه الضجة في عنبر السفينة.

لم تُجب «كاسي» بشيءٍ عن تساؤل «ليغري»، بل اعتصمت بالصمت، وحدّقت بعينيه، فتحقّقت أن «سايمون ليغري» قد أخذ يقلق ويخاف، ولكنه صاح بها:

- تكلمي أيتها المرأة الفاجرة، ألا تعتقدين بذلك؟!

- هل تستطيع الفئران أن تهبط السُّلم، وتجري عبر المدخل، وتفتح بابًا كنت قد أوصدته ووضعت كرسيًا خلفه، ثمَّ تسير وتسير حتي تبلغ مضجعي؟! وظلت «كاسي» تُحدِّق به وهي تتحدّث، كأنَّه وقع تحت وطأت كابوس ثقيل، حتي إذا وضعت يداً ثلجيةً باردةً علي يديه أرتد إلي الوراء، وصاح:

- ماذا تقصدين إذا أيتها المرأة حين يحصل مثل ذلك؟

- تستطيع أن تنام هناك إذا كان يهملك كثيرًا أن تعرف.

- هل جاءت من العُليّة يا كاسي؟

- جاءت؟ مَنْ تقصد؟ ماذا تريد أن تقول؟

- تلك الأشياء التي تتحدّثين عنها!

فقالت «كاسي» في تجهمٍ وغضبٍ:

- إني لم أحدثك عن شيء!

و أنشا «ليغري» يزرع الغرفة جيئةً وذهابًا، والقلق بادٍ علي مُحيّاه، ثمَّ صاح بها:

- سوف أفحص العُلَيَّةَ هذه اللَّيْلَةَ، وسوف أحمل مُسدسي معي.

- افعل ونم في تلك الغرفة، عَلَّنِي أتخلص من تلك المخاوف!

وفي تلك اللَّحْظَةَ دقت ساعة الحائط القديمة الثانية عشرة، ولم يعلم «ليغري» كيف سُمِّرَ في مكانه، وصعب عليه الكلام. فقد أَحَسَّ أَنَّ قَلْبًا تلبسه وسيطر عليه من رأسه حتي أخصص قدميه، في حين كانت «كاسي» تنظر إليه، وتُعد دقات السَّاعَةِ.

- الساعة الثانية عشرة.. حسناً الآن سوف نري..

قالت ذلك، واستدارت وفتحت الباب المؤدي إلي الغرفة، ووقفت وكأنَّها تستمع:

- اسمع ما هذا؟!

ورفعت إصبعها.

فقال «ليغري»:

- إنَّها الريح لا غير. ألاَّ تسمعينها كيف تهب هبوباً لعيناً؟

فوضعت «كاسي» يدها في يد «ليغري»، وقادته إلي أذني السُّلْم، وهمست في أذنه قائلةً:

- سايمون تعالي إلي هنا. هل تعرف ما هذا الصوت؟ أسمع..

وانطلقت من جهة السُّلْم صيحة مرعبة، وكانت الصيحة آتية حتمًا من جهة العُلَيَّة، فخاف «سايمون» «سايمون» وكاد يقع علي الأرض من الدُّعر. فقالت «كاسي» في سخريةٍ جَمَدت دَمَّ «ليغري»:

- أليس من الأفضل أن تأتي بُمُسدسك، إنني أريد منك أن تصعد إلي العُلَيَّة الآن!

- لن أذهب! لا، لن أذهب!

- لم لا، ليس ثمة شيء اسمه عفاريت كما تقول!

وَأرْتقت السُّلْمَ برشاقَةٍ، ونادت:

- تعالي، هيا يا ليغري..

- يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ أَنْتِ الشَّيْطَانَةُ، أَرْجِعِي أَيُّهَا السَّاحِرَةُ، أَرْجِعِي وَلَا يُحْسِنُ بِكَ أَنْ تَذْهَبِي إِلَيَّ تِلْكَ الْغُرْفَةَ.

ولكن «كاسي» أطلقت ضحكةً قويةً ومضت في سبيلها. وسمعها «ليغري» تفتح الأبواب المؤدية إلى العُليَّة فخاف. وهبَّت آنذاك من تلك الأبواب المفتوحة ریحاً عاتيةً أطفأت الشمعة التي كان يحملها في يده، كما انطلقت في الوقت نفسه تلك الصيحات المُخيفة فجمد الدَّم في عروقه.. وهكذا ظلت «كاسي» تلهو وتعبث بعقل «ليغري» ساعةً بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، حتي انتهى إلي أَنَّهُ بات يخاف من العُليَّة وكأنَّها مكان مسحور.

في تلك الأثناء كانت «كاسي» تُخزِّن في ذلك الموضع، أثناء الليالي السوداء والناس نيام، مؤونة تكفي لإقامتها وإقامة «إميلين»، وحتي أتمت جميع الترتيبات الضرورية، أخذتا تترقبان الفرصة المناسبة لتنفيذ خطتهما بحذافيرها.

اجتهدت «كاسي» في ملاطفة «ليغري» وإظهار علامات الود له، حتي أنس بها ووثق. وفي ذات يوم قبيل غروب الشمس كان «ليغري» متغيبًا في نزهةٍ إلي مزرعة مجاورة، فأخذت «كاسي» في تلك الآونة تُعدُّ مع «توم» صرتين صغيرتين. وقالت «كاسي» تُخاطب «إميلين» بقوة:

- والآن ألبسي قبعتك، ولننطلق فهذا هو الوقت المناسب.

فقالَت «إميلين»:

- ولكن في استطاعتهم أن يرونا إذا خرجنا!



— كُلُّ ما أَرْجُو هو أن يرونا. أَلَّا تَعْلَمِينَ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَتَعَقِبُونَا. إِنَّ الخِطَّةَ تَقْضِي عَيْنَا أَنْ نَمْشِيَ الْآنَ. وَلَسَوْفَ نَخْرُجُ مِنَ الْبَابِ الْخَلْفِيِّ. وَلَا شَكَّ أَنَّ «سَامِبُو»، و«كُوَيْمِبُو» سِيرَانَا فَيَلْحَقَانِ بِنَا، وَعِنْدَمَا نَبْلُغُ الْمَسْتَنْقَعَاتِ سَيَكُونَانِ عَلَيَّ أَنْتُمْ الْاسْتِعْدَادَ لِمَلَا حَقَّتْنَا، فَيَصْطَحِبَانِ كِلَابَهُمْ وَيَمْرُونَ شَطْرًا مِنْ الْمَسْتَنْقَعَاتِ كَمَا يَفْعَلُونَ دَائِمًا. وَعِنْدَ ذَلِكَ نَعُودُ خَائِضَتَيْنِ مِيَاهَ النَّهْرِ الْمُؤَدِي إِلَى الْمَنْزَلِ حَتَّى نَصِلَ إِلَى الْبَابِ الْخَلْفِيِّ. وَلَا أَشْكُّ مُطْلَقًا أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ سَيَخْرُجُونَ جَمِيعَهُمْ فِي طَلْبِنَا، فَنَكُونُ أَنْتُمْ مَخْتَبِئَتَيْنِ فِي الْعُلْيَةِ الْمَسْحُورَةِ كَمَا يَقُولُونَ. حَيْثُ أَعْدَدْتَ فَرَاشًا وَثِيْرًا فَوْقَ صَنْدُوقًا كَبِيرًا.

وهكذا هربت الرقيقتان، فأهما «ليغري» عندما كان عائدًا من نزهته فلقق بهما، ولكنه لم يتمكّن من إدراكهما. وعندما وصلنا إلى المستنقعات خاضتا المستنقع الكبير رغم عمقه المُخيف، فأري «ليغري» أن الضرورة تقضي بأن يستعين ب «سامبو»، و «كويمبو»، وسائر الأرقاء وكانوا قد عادوا من عمل النهار، فأغراهم «ليغري» بالقبض عليهما واعدًا أن يعطي من يلقي القبض عليهما خمسين دولارًا.

وأنطلق جيئًا من الأرقاء، وهم يحملون المشاعل، ومعهم الكلاب المُخيفة المُدْرِبَةُ بِاتِّجَاهِ الْمَسْتَنْقَعَاتِ، وهكذا نجحت خطة «كاسي» إذ كان البيت خاليًا عند عودتهما إليه، وقد أخذت الجاريتان تضحكان علي الأرقاء وهم في طريقهم إلي المستنقع والمشاعل في أيديهم والكلاب تتخبّط في أحوال المستنقعات نابحة هائجة.

و دب الخوف في أعماق «إميلين»، فقالت:

— يجب أن نخبئ يا كاسي.. عجلي.

فأجابتها «كاسي» في هدوءٍ:

— لا داعي للعجلة. لقد خرجوا جميعًا لاقتناصنا، وهذا ما يترك لنا المجال لنلهو هذا المساء. إنَّ في استطاعتنا أن نرتقي السُّلْمَ بِتَوْدَةٍ وَتَمَهْلٍ.

قالت ذلك، وانتزعت مفتاحًا من جيب سترة «ليغري» عندما نزعها عنه بداعي السرعة، ثمَّ أردفت تقول:

- في الوقت نفسه سوف أخذ شيئًا نستعين به علي العيش.

وفتحت «كاسي» الخزانة، وانتزعت منها رزمة من الأوراق المالية، وعدتها بسرعة.

فقالت «إميلين»:

- لا يصح أن نفعل شيئًا من هذا!

فصاحت «كاسي» مستهجنة:

- وما الذي يمنعنا أن نفعل؟ أيهما أفضل أن نجوع ونعري في المستنقعات، أم نستعين بهذه الأموال في اجتيازنا هذه الولاية للهجرة إلي إحدى الولايات التي لا تسمح بالرق؟ إنَّ المال وحده يمكننا أن نصل إلي غايتنا أيتها الأخت! وفيما كانت تتكلم دست المال في صدرها. عندئذ همست «إميلين»، وقالت:

- ولكن هذه سرقة!

فقالت «كاسي» بسخرية:

- ماذا تقولين؟ سرقة! لنذع أولئك الذين سرقوا أجسادنا وأرواحنا يتحدثون بهذه اللغة. أعلمي جيدًا يا «إميلين» إنَّ كلَّ ورقة نقدية من هذه الأوراق هي مسروقة من مخلوقات فقيرة محرومة مُجْهَدَة تنضح بالعرق. وفي سبيل جمع هذه الأموال يموت الألوفا من الأرقاء من الضنك والتعب الشديد والغم. دعي «ليغري» يتحدث عن السرقة، وتعالى الآن علينا أن نصعد إلي العليّة وعندي هناك الذخيرة من الشموع والكتب نقضي بها وقتنا، وتيقني أنَّهم لن يصعدوا للبحث عنا أبدًا.



توم يغفر لجلاديه

**Tom forgive his executioners**

ثارت ثائرة «ليغري» علي إثر فرار «كاسي»، و«إميلين» بشكلٍ لم يسبق له مثيل، فأخذ يصرف غضبه وينزل ضربته القاسية بـ «توم» المسكين المستضعف. ذلك لأنَّ «توم» عندما علم بنبأ فرار الجاريتين تهللت أساريره، ورقصت عيناه ببريق الفرح والغبطة، ثمَّ راح يرفع يديه إلي السماء شاكرًا ما أثار حفيظة «ليغري» عليه. وما دعا «ليغري» لَصَبِ النقمة علي «توم» أنَّه لم يشترك مع الأرقاء في حملة التعقُّب والملاحقة التي خرجت للقبض علي الهاربتين. وخطر ببال «ليغري» أن يكون «توم» هو مدبِّر خطة الهرب، وقرَّر أن يُذيقه العذاب ليرغمه علي البوح بالسرِّ، ولكنه عدل عن عزمه، وفضَّل أن يتركه وشأنه لعلمه بصلافة رأيه وإصراره علي التزام الصَّمت والسكوت.

وفي صباح اليوم التالي انصرف «ليغري» إلي إعداد حملة جديدة قوامها بعض الرِّجال العاملين في المزارع المجاورة والكلاب لتعقب الجاريتين. وكان قد أمر رجاله أن يطوِّقوا المستنقع ويواصلوا البحث بطريقة نظامية. فإذا ما وُفِّق في القبض علي الفتاتين كان ذلك في مصلحة «توم»، وإلَّا فإنَّ نقمته ستصَّب علي ذلك العبد المسكين للمثول بين يديه لتحطيمه أمام الجميع.

ونظرت «كاسي» في ذلك اليوم من أحد ثقوب العُلية، وقالت:

- يبدو أن الحملة الجديدة علي وشك المسير.

والحملة كانت كبيرة. أربعة من الفرسان يتبخرون علي خيولهم في الساحة المُقابلة للمنزل، وإلي قربهم جيش من الزنوج والكلاب.

ووضعت «كاسي» أذنها علي الثقب تسترق السمع فاستطاعت أن تسمع معظم الحديث. لقد سمعتهم يقتسمون مراقبة الميدان فيما بينهم، ويتناقشون في اختصاص الكلاب وقدرتها علي بلوغ مَنْ تلاحقه. كما صاروا يُحدِّدون نوع القصاص الذي ستلقاه كُلَّ جارية بعد القبض عليها.

وارتدَّت «كاسي» إلي الوراء، وتطلعت إلي أعلي، شابكة يديها، وقالت:

- أيها الإله العلي القدير. نحن جميعًا آثمون ولكن ماذا جنينا نحن أكثر من سوانا حتي نُعامل علي هذه الشاكلة.

ورانت علي وجهها وعلي صوتها انطباع أسي صارم، وتطلعت إلي «إميلين»، وقالت:

- ثقي يا إميلين أني لولايك ما سعت وراء حريتي. ولولايك لخرجت للقاء هؤلاء العبيد وكلابهم، وتقبلت السيّد الذي نُطلق عليه اسم القرصان. فما فائدة الحرية؟ هل بإمكانها أن تُعيد إليّ أولادي؟ أو تُعيد إليّ شبابي وكرامتي؟

وعندما سمعت «إميلين» كلام «كاسي» داخلها الخوف، وسرت الرعدة في أوصالها، فلم تجبها واكتفت بأن ضغطت علي يديّ «كاسي» مُلاطفة. فما كان من «كاسي» سوي أن وضعت يد الفتاة عنها بلطفٍ، وقالت:

- لا تحاولي أن تستميلي، فأنتِ توّدين إغرائي وحلمي علي حُبِّك، ولكن ثقي بأنني لا أنوي أن أُحبَّ أحدًا بعد اليوم.

فقالت «إميلين» برقة:

- أَرْجوكِ يا «كاسي»، لا تسمحي لهذا الشعور أن يملكك ويستحوذ عليك. لِمَ لا تعتقدين أن الله قد يُعيد إليك ابنتك إذا ما وهبنا الحرية؟ وعلي أية حال لِمَ لا تعامليني كابنتك، فأنا لن يُتاح لي أن أرى أُمِّي مرّة ثانية.. أعلمني أنني أُحِبُّكِ ولسوف أُحِبُّكِ يا «كاسي» مثل أُمِّي سواء منحتني الحُب أم لا. وهكذا انتصرت فكرة «إميلين» الرقيقة العذبة، فأخذتها «كاسي» بين ذراعيها، وجلست إلي جانبها، ثم طوّقتها بذراعيها، وأخذت تُداعب شعرها الأسمر الناعم بكفها، وقالت:

- آه يا «إميلين»، لا تلوميني، فقد جاءت نفسي وعطشت لرؤية أولادي، وإنَّ عيني تتحرّقان شوقاً وحنيناً لرؤاهم وأعلمني أن هذا هنا (وضربت علي صدرها مكان القلب) مقفرٌ كُلُّه وفارغ، فإذا ما أعاد الله إليّ أولادي عندئذٍ أستطيع أن أصلي.

فأجابتها «إميلين»:

- لا تقنطي ولا تياسي من رحمة الله يا «كاسي» فهو خلقنا ولذا فلن يتركنا، وإني لا أشكُّ في مساعدته لنا.

وبعد جهد شديد عادت الحملة الثانية التي جهزها «ليغري» للبحث عن «كاسي» ورفيقتها تجر أذيال الخيبة والفشل. فاستدعي إليه «توم»، وكان يعتقد أن الرّجل العجوز هو الذي مهّد السبيل لفرار الجاريتين.

ومثّل «توم» بين يدي مولاه، وكان حول «سامبو»، و«كويمبو»، فأمسكه «ليغري» بغلاظةٍ من جيب سترته الأعلى، وقال في غضبٍ مُخيفٍ:

- هل تعلم أنني قرّرت قتلك؟

فأجاب «توم» بهدوءٍ:

- قد تفعل ذلك أيها السيّد.

- حقًا إنني عازم ومُصمّم عليّ ذلك إلا إذا أعلنت إليّ بما تعرفه عن الجاريتين.

واعتصم «توم» بالصمت.

وزأر «ليغري»:

- هل تسمع أيها القدر؟

فقال «توم» بقلبٍ ثابت:

- ليس عندي ما أقوله يا مولاي، ولا أعرف عنهما شيئًا.

- أتجرؤ أن تقول إنك لا تعرف.. أيها المسيحي الأسود العجوز؟

وانفجر «ليغري» بمثل قصف الرعد ضاربًا «توم» ضربًا مبرحًا، وهو يقول:

- تكلم أيها اللعين، تكلم.

فقال «توم»:

- لا أعرف يا مولاي. لا أستطيع أن أقول شيئًا ولو أدّيت ذلك إليّ موتي.

وهنا كبت «ليغري» ثورته وأمسك ذراع «توم» وقرب وجهه إليّ وجهه، وقال بقوة:

- انتبه يا توم، واسمع، ما أقوله لك. قد تظنني هذه المرّة غير جادّ شأني

في المرّات السابقة، ولكنني قرّرت هذه المرّة أن أبطش بك البطش كلّه. لقد

اختبرتك جيدًا فوجدتك عدويّ الألدّ في هذه المزرعة. فاختر بين أمرين:



إِذَا أَنْ تَتَكَلَّمُ وَتُصْرِّحُ عَمَّا يَنْطَوِي عَلَيْهِ سَكَوتُكَ مِنْ سِرٍّ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِكَاسِي  
وَ«إِمِيلِين»، أَوْ أَنْ تَبْقِي صَامِتًا، فَانزِعْ مِنْكَ دِمَاءَكَ وَقَدْ عَدَدْتَهَا قَطْرَةَ قَطْرَةَ،  
وَبُوسَعِي أَنْ انْتزِعْهَا قَطْرَةَ قَطْرَةَ أَيْضًا.

وَنظَرِ «توم» إِلَيَّ مَوْلَاهُ بِرَفْقٍ، وَأَجَابَ:

- سَيِّدِي لَوْ أَنَّكَ مُصَابٌ بِمَرَضٍ عَضَالٍ، أَوْ أَنَّكَ تَحْتَضِرُ عَلِيَّ فِرَاشِ  
الْمَوْتِ، وَكَانَ فِي مَقْدُورِي أَنْ أُشْفِيكَ وَأَنْقُذَكَ، إِذَا لَمَّا تَأَخَّرْتَ عَنْ أَنْ أُقَدِّمَ  
لَكَ دَمِي عَنْ رِضَاءٍ وَبَطِيئَةٍ خَاطِرٍ، وَهَبَّ أَنْ تَنَازَلِي عَنْ آخِرِ قَطْرَةَ مِنْ دَمِي  
يَنْقُذُ رُوحَكَ وَجَسَدَكَ لَمَّا تَلَكَّاتُ وَتَأَخَّرْتَ عَنْ تَقْدِيمِهِمَا وَلَمَّا أَحْجَمْتَ عَنْ  
أَنْ أَسْفَحَهَا مِنْ أَجْلِكَ كَمَا سَفَحَ الْمَسِيحُ دَمَهُ مِنْ أَجْلِنَا. آه يَا مَوْلَايَ حِذَارُ أَنْ  
تَقْتَرِفَ هَذَا الْإِثْمَ الْعَظِيمَ! فَعْمَلْكَ هَذَا جَدِيرٌ بِأَنْ يُسَيِّءَ إِلَيْكَ وَإِلَيَّ رُوحَكَ  
الْغَالِيَةَ أَكْثَرَ مِمَّا يُسَيِّءُ إِلَيَّ وَيُؤْذِنِي. افْعَلْ مَا تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَهُ فَلَنْ يَلْبَثَ بِلَايِي  
أَنْ يَنْقُضِي، أَمَّا إِذَا لَمْ تَتَبَّ عَنْ فَعْلَتِكَ وَتَصْلِحْ نَفْسَكَ فَإِنَّ بِلَاءَكَ سَيَلْزَمُكَ  
إِلَيَّ الْأَبَدَ.

كَانَتْ كَلِمَاتُ «توم» الْعَابِقَةَ بِالْعَطْفِ وَالْحَنَانِ، وَالْمَشْبَعَةَ بِالْقِيمِ الدِّينِيَّةِ  
أَشْبَهَ بِنَفْحَةِ سَمَاوِيَّةٍ وَقَعَتْ عَلَيَّ أَسْمَاعُ «لِيغري» فَوْقَ مَنْذَهْلًا حَائِرًا، وَنَظَرُ  
إِلَيَّ «توم» بِصَمْتٍ وَأَخَذَ يَسْتَمِعُ إِلَيَّ تَكَاتِ السَّاعَةِ الْقَدِيمَةِ تُعْلَنُ أَنَّ الشَّرَّ  
الْإِنْسَانِي الَّذِي لَامَسَ ذَلِكَ الْقَلْبَ الْمُتَحَجِّجَ قَدْ أَخَذَ يَتَعَدَّدُ عَنْهُ.

وَمَا هِيَ إِلَّا لِحْظَاتٌ حَتَّى عَاوَدَتْ «لِيغري» رُوحَ الشَّرِّ بِأَعْنَفٍ مِنْ ذِي قَبْلِ،  
فَانْقَضَ عَلَيَّ ضَحِيَّتُهُ وَطَرَحَ «توم» عَلَيَّ الْأَرْضَ وَرَاحَ يَشْبَعُهُ ضَرْبًا وَتَعْدِيًّا.

- لَقَدْ انْتَهَى أَوْ يَكَادِي مَوْلَايَ.

قال «سامبو» ذلك، وقد أخذته الشَّفقة علي «توم»، بعد أن رأي صبره العجيب وجلده علي ضربات السَّوط التي تلهب جسده التعب. فصاح «ليغري»:

- اضربه حتي الموت. إني أريد أن انتزع آخر نقطة من دمه، أو يعترف بكُلِّ ما يعرفه عن الفتاتين.

وفتح «توم» عينيه ونظر إلي سيِّده، ثمَّ قال:

- أيها المخلوق البائس. لم يبق ما تستطيع أن تفعله بي أكثر من ذلك. إني أغفر لك من صميم قلبي.

واستغرق «توم» في اللاوعي الكامل.

وتقدَّم «ليغري» قليلاً ليري ما حلَّ بالرَّجل عن كَثِبٍ، فقال:

- يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُ انتهى. أجل لقد انتهى.

ولكن «توم» لم يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد. فكان دائماً يُصلي ليسامح الله مُعذِّبيه. وكانَّ صلواته وكلماته الأخيرة لمست بعضاها السحرية قلبي «سامبو»، و«كويمبو» اللذين كُلفا بتعذيبه حتي الموت. فلم يكد «ليغري» يُغادر الغرفة حتي هرع العبدان لمساعدة «توم» وإنقاذه من الموت من دون أن يعرفا ما الذي دفعهما إلي هذا المعروف. وقال «سامبو»:

- لاشكَّ في أننا كُنَّا آلات شريرة مُخيفة. وإني لأرجو الله أن يُحاسب سيِّدنا علي ذلك لا نحن.

وغسل العبدان جراح «توم» وأعدَّ له فراشاً من بذور القطن مدداه عليه.

وقال «كويمبو»:



- أوه! يا «توم» لقد كنا قاسيين معك.

فقال «توم» بصوتٍ خافتٍ:

- إني أغفر لكما من صميم قلبي.

وتساءل «سامبو»:

- آه يا «توم» أخبرنا مَنْ هو يسوع

علي أية حال؟ يسوع الذي كان واقفاً

إلي جانبك، طوال هذه المدة. مَنْ هو؟ توم يتعرّض للتعذيب حتي الموت

وأثار هذا السؤال الحياة في تلك الروح الضعيفة، فأطلق «توم» بعض

جمل تنضح بالقوّة والمجد عن حياة ذلك المخلّص وخلوده وقدرته علي

إنقاذ أرواح المؤمنين به.

وبكي «سامبو»، و«كويمبو».

بكي الرجلان المتوحشان.

وقال «سامبو»:

- لماذا لم أسمع بهذا الرّجل من قبل؟ ولكني أوّمن به. إني لا أستطيع إلّا

أن أوّمن. آه أسبغْ وأفضْ رحمتك يا يسوع.

فقال «توم»:

أيها المخلوقان البائسان، إني أصلي من أجلكما. ولقد استجيب دعائي.

## توم يغفر الرجل المُطل علي العالم الآخر

### The man overlooking the world's other

بعد يومين من الحادث الشنيع، وقفت عربة صغيرة أمام منزل «ليغري»، ونزل منها شاب في مقتبل العُمر، ثم أخذ يسأل عن صاحب المنزل سؤال الملهوف المتعطش لرؤيته. وكان هذا الشاب هو «جورج شيلبي».

فيما سبق كانت الأنسة «أوفيليا» قد كتبت رسالة للسيدة «شيلبي» تشرح لها ما وصلت إليه أحوال «توم»، وتطلب منها أن تفتديه. ولكن الرسالة لم تصل في حينها، وظلت مُحجزة في مركز البريد زهاء شهرين. ولمّا وصلت آخر الأمر، كان «توم» قد وقع في قبضة «ليغري» المجرمة.

وقرأت السيدة «شيلبي» الرسالة آنذاك باهتمام كبير، ولكنها لم تستطع أن تقوم بأي عمل إيجابي عاجل من أجل إنقاذ «توم». وكان زوجها طريح الفراش. كما كان ابنها «جورج» قد كبر وقوي ساعده فأخذ يُدير شؤون المزرعة بحكمة وبراعة. والذي ساعد السيدة «شيلبي» هو أن «أوفيليا» قد ذكرت في رسالتها، احتياطيًا للأمر، اسم المحامي المُكلف بتصفية شركة «سانت كلير»، علي أمل أن تتصل به عند الحاجة، ولكن وفاة السيد «شيلبي»، كانت قد أبعدها عن كل نشاط يؤدي إلي خدمة «توم».

ثم اتصلت السيدة «شيلبي» آخر الأمر بالمحامي واستوضحته الأمر، فكتب لها يقول إنه لا يعرف من الأمر شيئًا، وإنَّ الرَّجل قد بيع في مزادٍ علني.

الأمر الذي دعا «جورج» علي أن يذهب إلي «نيو أورليانز» بحثًا عن «توم» وافتدائه.

وبعد بضعة أشهر من البحث المتواصل غير المُجدي، التقى «جورج» صدفَةً برجلٍ يعلم أين يُقيم «توم». فما كان من «جورج» إلا أن امتطي متن النهر الأحمر ممنيًا نفسه بلقاء صديقه الشيخ الطيب «توم» الذي رعاه طفلاً وأحبّه يافعًا.

ورحب «ليغري» بضيفه ترحيبًا جافًا، حتي استقر المقام بالشاب، فقال:

- لتتحدث عن الموضوع حالًا. إني أعلم أنّك اشتريت في نيو أورليانز رقيقًا اسمه «توم» وقد كان سابقًا يعمل في مزرعتنا. وإني أحبُّ أن أعرف إذا كان بإمكانني أن أشتريه من جديد.

فتجهّم وجه «ليغري»، وقال في انفعالٍ واضحٍ:

- نعم أقربُ بأنّي ابتعدت ذلك العبد اللعين. ولتيني لم أفعل فقد أثار أرقائي وأغراهم بالهرب، وهكذا فقدت جاريتين تساوي كلّ منهما ألف دولار بل أكثر. والأنكي من ذلك أني حينما سألته عن مقرهما قال إنّه يعرف عنهما كلّ شيء، ولكنه لا يُريد أن يعترف لي بذلك. ولقد أصرّ علي عناده رغم السّياط اللاهبة التي كوت جسده بشكلٍ لم يسبق له مثيل. وأعتقد أن صديقك هذا يحتضر الآن ولكني أجهل متى يموت.

فسأله «جورج» بغضبٍ:

- أين هو؟ دعني أراه.

وشاع الدّم في وجه الشاب، وتطاير الشرر من عينيه.

لم يُجبه «ليغري» عن سؤاله. ولكن أحد الغلمان دلَّ «جورج» علي السقيفة التي تُروى العجوز المحتضر، فانطلق يعدو في ذلك الاتجاه.

كان «توم» منظرًا علي أرض السقيفة بعد انقضاء يومين علي ذلك الحادث المنكر. وكان الألم قد فارقه وكأنَّ أعصابه قد تبلدت وتحجرت. وما هو معروف أن أصحاب البنية القوية لا يفقدون الروح دفعة واحدة. وقد ساعده علي البقاء حيًّا ما قدَّمه أخوته المعذبون علي الأرض من مساعداتٍ بسيطةٍ ككوب ماء بارد، أو غسل وتطهير جراحه.

وقد وفدت إلي زيارة السقيفة لرؤية «توم» في اللَّيلة الماضية «كاسي»، بعد أن علمت بالتضحية الكبرى التي قام بها من أجلها ومن أجل رفيقتها «إميلين».

فخرجت من مخبئها مُتحدية أنواع المخاطر المحدقة بها. فاستمعت عن كُتبٍ إلي الكلمات الأخيرة التي كان فم ذلك الرجل يُفوه بها، فهزت نفسها وشعرت باليأس يملأ جوانحها، فما كان منها أن بكت، وأخذت تصلي صلاةً عميقة.

وحين دخل «جورج» علي «توم» أحسَّ بألمٍ في رأسه وانقباضٍ في صدره. وركع إلي جانبه وراح يُخاطبه:

- هل هذا ممكن؟ أيها العمّ «توم». أيها الصديق البائس المُعذب.

ونفذ شيء من ذلك الصوت إلي أذن الرَّجل المُطل علي العالم الآخر، فحرَّك رأسه برفقٍ وابتسم، وقال:

- باستطاعة يسوع أن يجعل فراش الاحتضار ناعمًا رقيقًا.



- أوه أيها العمّ «توم». أفتق. تكلم مرّة أخرى. انظر إليّ أنا «جورج»، ألاّ تعرفني؟

ففتح «توم» عينيه، وقال بصوتٍ ضعيفٍ:

- مولاي جورج! مولاي جورج!

وبدا ذاهلاً دهشاً.

وما هي إلاّ لحظات حتي استفاق «توم» جيداً فتركزت عينه الغارقة في محجرها، وأضاء الوجه بنورٍ غريبٍ. فتشابكت اليدان اليابستان بيدي الشاب النضرتين. وانسالت فوق خدي الشيخ دموع الفرح، وقال:

- تبارك الله! إن كلّ هذا ما أطمع فيه. إنهم لم ينسوني. إن هذا يخلع علي روحي الدفء، ويجعل قلبي مطمئناً. والآن سوف أموت مرتاح البال.



«توم» بين يدي «جورج» قبل رحيله

فصاح «جورج» في عزمٍ:

- لا. لن تموت. ينبغي ألا تموت، وألا تفكر في الموت مطلقاً. لقد جئت لكي أشتريك وأعود بك إلي كوخك القديم.

- أوه أيها المولي الصغير. لقد جئت متأخراً جداً. لقد اشتراني الرّب، وسوف يحملني إلي عالم الخلود الذي هو أفضل من كانتاكي.

- آه برّيك يا «توم». لا تمت، فإنّ موتك يقتلني وإن قلبي ينفطر أسي، إذ أفكرّ بما قاسيت وما تقاسي هنا في هذه السقيفة الوضيعة. لا تمت يا صديقي بحق السماء.

- لا تقل إنني تعس مسكين. لقد كنت تعسًا مسكينًا ولكن ذلك قد ولى وانقضي. أنا الآن في طريقي إلي المجد. آه أيها السيّد «جورج» لقد فُتحت أبواب السماء أمامي وفزت بالنصر.

وذهل «جورج» من تلك القوّة التي تحتويها كلمات «توم»، فجلس يُحدّق فيه.

وأمسك «توم» بيده، وأردف يقول:

- أرجو يا عزيزي «جورج» ألا تخبر زوجتي كلو كيف وجدنتي، فقد يُدمي فؤادها هذا الموقف. أخبرها فقط أنّك رأيتني ذاهبًا إلي المجد، إلي السماء، وإن الله كان بجانبني، وأنّه سهّل لي الأسباب، وخفّف عني. ووالداي والطفلة. لقد تفتّر قلبي المكلوم عليهم. قل لهم أن يتبعوني. أقرئ سلامي يا «جورج»، مولاي الطيب ومولاتي والدتك وكلّ إنسان في مزرعتكم، فأنا أحبّهم جميعًا، بل أحبّ كلّ مخلوق أينما كان.

وفي تلك اللّحظة تلاشت قوّة «توم» التي بعثها فيه لقاء الشاب الشهم، فأغمض عينيه وتطاوت أنفاسه وأخذ صدره العريض يعلو ويهبط، أمّا وجهه فقد ارتسمت عليه علامات النصر والظفر.

- مَنْ؟ مَنْ ذا الذي يستطيع أن يبعدنا عن حُبّ المسيح!

قال ذلك بصوتٍ كالهمس وبابتسامةٍ وادعيةٍ. وأغفي «توم» إغفاءةً الأبدية.



ونهب «جورج» مثقل القلب مهيبض الجناح، واستدار علي عقبه فإذا به وجهًا لوجه أمام «ليغري»، وألجمت رجفة الموت عاطفة الشاب الثائر، فرمقه بعينه الحادتين السوداويين، واكتفي بأن قال مُشيرًا إلي الميت:

- لقد انتزعت منه كل ما يمكنك أن تنتزعه. والآن كم يتوجب علي أن أدفع ثمنًا للجثة، فإني أرغب في حملها إلي مكانٍ بعيدٍ لمواراتها التراب؟ فقال «ليغري» في غلظة:

- أنا لا أبيع عبيدًا أمواتًا. في استطاعتك أن تدفنه أينما شئت، ومتي شئت. فوجه «جورج» خطابه إلي اثنين أو ثلاثة من الزنوج كانوا واقفين قرب الجثة.

- أيها الإخوان ساعدوني علي حمله ونقله إلي عربي وأعطوني معولًا. وانطلق أحدهم للبحث عن معول في حين تعاون الآخر مع «جورج» في نقل الجثمان إلي العربة.

ولم يقل «جورج» أية كلمة إلي «ليغري» الذي كان يُصفر في غير مبالاة، دون أن يتطلع إليه. حتي إذا انطلقت العربة لحق بهم متجههم الوجه كالح الجبين.

ونشر «جورج» معطفه فوق أرض العربة، ولف الجثمان به. ثم رجع فحدق ب «ليغري»، وقال بهدوءٍ مصطنعٍ:

- آسف لأعمالك، ولكن ثق وتحقق يا سيّد أنّ هذا الدّم الطاهر لن يذهب هدرًا بل سيثأر، وسوف أخبر السلطات بذلك، وسأخبر أوّل حاكم مسؤول بذلك وأشكوك إليه.

فقال «ليغري»، وهو يفرقع أصابعه بسخرية:

- اذهب وإني مشتاق لأراك تذهب وتشكوني!



وأدرك «جورج» حالاً التحدي الصارخ في كلام «ليغري» وفكّر في الانتقام، ولكنّه تعقّل وسكت لأنّه لم يكن هناك رجل أبيض يشهد علي ما يحدث بينهما. فشهادة العبد لا وزن ولا قيمة لها. وتألّم «جورج» في داخله وتمني لو يستطيع أن يصرخ صوتًا عظيمًا يمزق حجب السماء والأرض.

«جورج» يبكي نوم

ثمّ قال «ليغري» مواصلاً تحديه السافر:

- وعلي أيّة حال، فلا داعي لهذه الضجة كلّها من أجل زنجي حقير ميت. وعندما سمع «جورج» كلام «ليغري» شعر وكأنّ شرارة نار مست زناد نفسه، فغضب وارتد إلي الوراء وضرب «ليغري» علي وجهه ضربة طرحتة علي الأرض.

بعدها قام «ليغري» ونفض الغبار عن ثيابه، وراح يرمق العربة الماضية لسبيلها في كثيرٍ من الاحترام. بل إنَّه لم يفتح فمه إلا بعد أن غابت العربة عن بصره.

وكانت عينا «جورج» قد وقعت علي ربوةٍ قائمةٍ وراء حدود المزرعة تُظللها بضع أشجار وارقة، فأحبَّ أن يحفر فيها قبر صديقه الراحل، حتي إذا ما شقَّ القبر تساءل الزوج:

- هل نزرع المعطف أيها السيّد؟

- لا. لا. ادفنوه معه. إنَّه كل ما أستطيع أن أقدمه له فعسي أن يتقبله مني.

ودفنوه تحت التراب، وأقاموا حوله سداً، ووضعوا قليلاً من العشب الأخضر فوقه. وألقى «جورج» دولار في يد كلٍّ من الأرقاء، وقال:

- والآن تستطيعوا أن تذهبوا أيها الإخوان.

ولكنَّهم لزموا أماكنهم لا يتحرَّكون. وقد قال أحدهم:

- ليت مولاي الشاب يتعطف فيشترينا.

وقال ثان:

- سنكون له مخلصين حتي الموت.

وعاد الأول للكلام:

- إننا هنا نقضي أياماً عسيرة أيها السيّد، فتكرم يا مولاي واشترنا من مالكننا الهمجي.

فقال «جورج» في حرجٍ وخجلٍ:

- لا أستطيع.. ذلك مستحيل.

وران الأسى علي وجوه الأرقاء البائسين، وغادروا المكان صامتين.  
وانحني «جورج» فوق قبر صديقه المسكين، وقال مُعاهدًا الله علي أمرٍ  
عظيم:

- أيها الإله الذي لا يموت. أشهد عليّ بأنني سوف أعمل منذ الآن كُلَّ  
ما يمكنني أن أفعله كفردٍ لمحو عار الاسترقاق والعبودية عن جبين بلادي.



حقيقة الأشباح، وعدالة السماء

**The fact ghosts, and fairness of the sky**

راجت سوق سرد الحوادث المثيرة عن الأرواح والأشباح في تلك الأيام بين الأرقاء الذين يمتلكهم «ليغري».

فقد أخذ العبيد المساكين يروون بهمس فيما بينهم عن سماعهم وقع أقدام حقيقية لا تقبل التكذيب تطرق قرب سُلَّم العُلَيَّة. وأنَّ الأرواح أخذت تمشي هناك ليلاً. وقد بادر الأرقاء لإقفال الأبواب المؤدية إلي ذلك المكان، ولكن تلك الأبواب كانت تُفتح بمفتاح طبق الأصل، فيجدها الأرقاء مفتوحة في اليوم التالي فيشيع الذعر في صفوفهم.

و «ليغري» نفسه لم يتجاهل ما تناقله الألسنة عن العُلَيَّة وما يحدث فيها فاشتدَّ به الخوف ولازمه كظله. فلجأ إلي الخمر يُعاقرها ليصرف همومه، أو يلجأ إلي التهديد والوعيد لينفَس بها عن همِّه وغمِّه، ولكن بلاءه الأكبر كان فيما يراه من أحلامٍ مفزعةٍ مزعجةٍ.

في تلك اللَّيلة التي تلت نقل جثمان «توم»، أوصد «ليغري» باب غرفته ووضع خلفه كرسيًا، وأقام مصباحًا ليليًا فوق سريره، وأعد مُسدسه للقتال، ومنِّي نفسه بنومٍ هاديٍّ مريحٍ.

كانت تلك اللَّيلة ليلةً مقمرة، كثيرة الغيوم والضباب، وهناك رآه.. رأي شيبًا أبيض يتسلل إلي الغرفة، وسمع حفيف ثوبه الأسطوري الساكن. كان

الشيخ واقفاً إلي جانب فراشه. وامتدت يد باردة لمست يده، وهمس صوت مرعب عميق، يدعوه:

- تعال. تعال. تعال.

وفيما كان «ليغري» يتصبب عرقاً من غير أن يدري أين ذلك؟ وكيف كان؟، مضى الشيخ لسبيله. فوثب الرجل القاسي من فراشه وهو يهرع إلي الباب، فهزه بقوة فإذا بالباب موصلًا مُحكم الإقفال. فسقط علي الأرض من شدة هلعه وفزعه.

ومنذ ذلك الحين كان «ليغري» يُعاقر الخمر دون احتياط ولا اعتدال، وكان يشربها من قبل أحياناً بحكمةٍ وحذرٍ، ولكنه انقلب اليوم إلي مُدمنٍ يشربها حين يستيقظ، وحين ينام.

وما هي إلا مدةٌ يسيرة حتي شاع بين الأرقاء، بل في المنطقة بأسرها أن «ليغري» مُصاب بمرضٍ عضالٍ، وأنه يتقلب علي فراش الاحتضار. وكان مَنْ يقومون علي خدمته يسمعونَه يهذي، متخوفاً من شبح أبيض عابس، متجهم، يُناديه:

- تعال. تعال. تعال.

وفي صباح تلك الليلة، التي شاهد فيها «ليغري» هذه الرؤيا، وُجد باب غرفته مفتوحاً. كما شاهد بعض الأرقاء شخصين أبيضين كانا في سبيلهما إلي الطريق الرئيسي. وعندما أشرق أوّل ضوءٍ للفجر توقفت «كاسي»، و «توم» بعد أن غادرتا منزل «ليغري»، بالقرب من المدينة.



كانت «كاسي» مَشْحَة بالثياب السوداء علي طريقة السيّدات اللواتي يختلط دهن الإسباني بالدمّ الزنجي، وكانت تعتمر قبعة سوداء صغيرة يتدلي منها غشاء أسود موشّي ومزخرف يخفي معالم وجهها.

وقد اتفقت الجاريتان أن تُمثّل «كاسي» شخصية السيّدة ذات الدمّ الإسباني الزنجي، في حين تُمثّل «إميلين» دور الخادمة.

ولم تجد «كاسي» صعوبة في تمثيل دورها، ذلك لأنّها نشأت في بيئة غنيّة، وما زاد من إتقان دورها تلك الجواهر التي تزينت بها فجاء دورها واقعياً تاماً.

ووقفت «كاسي» في ضاحية المدينة لتبتاع حقيبة. وبعد أن دفعت للبائع الثمن، طلبت منه أن يرسل معها خادماً يحمل لها الحقيبة. فما كان من البائع إلّا أن أوعز إلي غلامه للسير معها، فتابعت طريقها يمشي معها الغلام من جهة، و«إميلين» من جهةٍ أُخري، حتي إذا بلغت النزل الصغيرة دخلته وكأنّها سيّدة أرسقراطية.

وكان أوّل ما لفت نظرها بعد وصولها إلي النزل هو «جورج شيلبي»، الذي كان ينتظر في ذلك النزل سفينة تعود به إلي موطنه. وكانت «كاسي» قد رأته عندما قدّم إلي منزل «ليغري» من خلال ثقب العُلّية التي اختبأت فيها، وشاهدته في اليوم التالي ينقل جثمان العمّ «توم»، وينتقم له من «ليغري» عندما طرحه أرضاً، نتيجة للطمّة القويّة التي وجهها إليه.

ولقد عرفت «كاسي» أيضاً، من الأحاديث التي سمعتها تدور بين الأرقاء ساعة أخذت تتجوّل في المنزل متنكرة بزي الشبح بعد أن هبط الليل، مَنْ هو ذلك الشاب، والصلة التي تربطه بـ «توم»، ولهذا شعرت نحوه بالثقة،

والطمأنينة حين اكتشفت أنه كان مثلها علي وشك السفر في السفينة المرتقبة، فلحقت به مع رفيقتها إلي المدينة.

وفي الهزيع الأول من الليل وصلت السفينة، فأخذ «جورج» يد «كاسي» وساعدها علي الصعود إلي السفينة بلطفٍ، عُرف به شاب كانتاكي، ثم أخذ يُفتش لها عن غرفة مستقلة صالحة.

ولازمت «كاسي» غرفتها وفراشها طوال تلك المدة بسبب اعتلال صحتّها، وقد كانت «توم» تُشرف علي راحتها في تفانٍ وإخلاصٍ.

وعندما انتهت السفينة إلي نهر المسيسيبي اقترح «جورج» علي السيّد الغريبة، بعد أن عرف أنّها متجهة في نفس طريقه تمامًا، أن يحجز لها غرفة مستقلة في السفينة التي يعتزم السفر علي ظهرها، وكانت تحدوه رغبة صادقة في أن يخدم تلك السيّد المريضة ما استطاع ذلك. وانتقل الرفقاء الثلاثة إلي الباخرة التي سوف تتجه صوب المسيسيبي.

وتحسنت صحّة «كاسي» رويدًا رويدًا، فصارت تظهر علي متن الباخرة، وتتناول طعامها مثل سائر الرُّكاب علي المائدة العامّة، فلفتت أنظار الجميع إليها بجمالها وبهاء طلعتها.

وقد وقعت عينا «جورج» علي «كاسي» إذ كانت ملامح وجهها تُذكره بملامح بوجه يعرفه جيدًا، فراح يُطيل النظر إليها، حتي أنّه ما كان يرفع بصره عنها إلّا عندما يلحظ أنّها متبرمة من تحديقه إليها. واضطربت «كاسي» وداخلها الشكُّ في أنّ الشاب يرتاب بأمرها، إلي أن قرّرت أخيرًا أن تُسلم أمرها لله وتقصّ عليه حكايتها بكامل تفاصيلها.



وكان «جورج» مستعدًا نفسيًا، ومُهَيَّبًا عاطفيًا للحنو عليها، مثلها مثل أيِّ إنسان وُقِّق للفرار من إقطاعية «ليغري» المشؤومة. وبعدما استمع إلي حديث «كاسي» المؤثر والدامي حتي أكَّدها أنَّه سوف ينفق كل ما يملكه من جهدٍ لحمايتها مهما كانت النتائج.

كانت تُقيم في الغرفة المجاورة لغرفة «كاسي» سيِّدة فرنسية تُدعي مدام «دي تو» De Thou وبصحبتها ابنتها الجميلة، وهي طفلة لا تتجاوز عُمرها اثني عشر عامًا. ولمَّا علمت هذه السيِّدة من خلال أحاديثها مع «جورج» أنَّه من سكان ولاية «كانتاكبي»، عنيت أن تكون صلتها به وثيقة، وكانت فتاتها ترافقهما دائمًا فطردها بوجودها ولطفها كُلِّ سأمٍ يُلِّمُّ عادةً بالركاب طوال أسبوعين كاملين.

وقد اعتاد «جورج» أن يجلس قرب غرفة تلك السيِّدة، فكان بميسور «كاسي» أن تستمع إلي ما يدور بينهما من أحاديثٍ، فكانت «دي تو» لا تفتأ تسأله بالتفصيل عن الحياة في «كانتاكبي»، لأنَّها كانت قد قضت فترة من حياتها فيها. وقد دُهِش «جورج» حين أخبرته تلك السيِّدة بأن بيت ذويها لم يكن بعيدًا عن بيت آل «شيلبي»، حتي أنَّها كانت تذكر أمامه أسماء الأشخاص والأشياء المعروفة في تلك الدار، وكأنَّها تعرفها تمام المعرفة. وذات يوم سألته «دي تو»:

- هل تعلم شيئًا عن رجل كان في جواركم يُدعي «هاريس» Harris.
- حقًّا إني أعرف رجلاً مُسنًّا بهذا الاسم لا يسكن بعيدًا عن بيتنا، ولكن صلتنا به كانت محدودة دائميًا.
- وهو أحد كبار المُتاجرين بالرقيق علي ما أعتقد.
- أجل! إنَّه كذلك.

- هل سبق وعلمت أنّه امتلك ذات يوم غلامًا يُدعي جورج؟  
- آه! طبعًا. «جورج» هاريس. أنا أعرفه جيدًا. لقد تزوّج إحدى إمءاء والديّ وفرّ معها إليّ كندا.

- فرّ إليّ كندا؟ شكرًا لله.

وُدْهش «جورج»، ولكنه لم يقل شيئًا.

وأسندت السيّدة «دي تو» رأسها عليّ يدها وأخذت تبكي، ثمّ قالت:

- إنّهُ أخي!

- سيّدي! ماذا تقولين؟

قالها «جورج» بنبرة عجب قويّة.

فكفكفت السيّدة دموعها، وقالت:

- سيّد شيلبي إنّ «جورج» هاريس هو أخي!

- إنّ ذلك يُدهشني وبيعث عجبي!

- صدقني فقد باعوني لتاجر رقيق من سكان الغرب حين كان «جورج» أخي شابًا، وكان الذي ابتاعني رجلًا طيب القلب كريم النفس فأخذني معه إليّ جزر الهند الغربيّة، حيث حرّرتني، ثمّ تزوجني، ولما لقي وجه ربّه مؤخرًا، رأيت من الأفضل أن أعود إليّ كانتاكي.

- لقد سمعته يتحدّث مرّة عن أخت له تُدعي إميلي بيعت في الجنوب.

- أجل! حقًا، أنا هي.. والآن قل لي ما رأيك فيه؟ وما تعرفه عنه؟

- إنّ أخاكِ شاب شهم، يتحلّي بأخلاقٍ عاليةٍ، ويتصف بقدر كبير من الذكاء والوفاء لأصدقائه، إنني أعرفه جيدًا فقد تزوّج إحدى إمءاء والديّ كما أخبرتكِ.



- وماذا تستطيع أن تحدثني عن زوجته؟

- إنَّ زوجته جميلة جدًّا، وذكية، وهي كنز إذا قيست ببقية النساء، يُحِبُّها ويحترمها كُلُّ مَنْ يعرفها. وهي شديدة التقوى والصلاح. وكانت أُمِّي تُعاملها كابنتها، وهي تقرأ وتكتب وتُخيط وتُطرِّز، وفضلًا عن ذلك فهي جميلة الصوت، حسنة الأداء.

- وهل وُلدت في بيتكم؟

- كلا يا سيِّدتي، فقد اشتراها أبي ذات يوم عندما كان يقوم برحلةٍ إلي نيو أورليانز، وكانت وقتها في السابعة أو الثامنة من عُمرها، ولم يخبر والدي أُمِّي مقدار ما دفع ثمنًا لها، ولكن فيما كنا نُقلِّب الأوراق القديمة التي تركها أبي منذ أيام، عثرنا علي صَكِّ البيع، فإذا به يدلنا علي أن ثمنها كان ضخمًا جدًّا. واعتقدُ أنَّ سبب ذلك ما تتمتع به من جمالٍ بارِعٍ يندر وجوده بين الأرقاء.

كانت «كاسي» جالسةً بالقرب من «جورج» حين دار الحديث، وكانت تصغي إلي كلامه بشوقٍ بالغ، ولهفةٍ عارمةٍ، حتي إذا انتهى إلي هذا الموضوع لم تتمالك أن وجَّهت إليه هذا السؤال:

- هل تعرف أسماء الذين كانوا يملكونها سابقًا؟

- أظنُّ أنَّه رجلًا اسمه «سيمونز» Simmons كان هو الشخص أو المُتصرِّف بتلك الصفقة. ذلك علي الأقلِّ الاسم المنصوص عليه في صَكِّ البيع...

وهنا صاحت «كاسي»:

- آه يا إلهي العظيم!!

وسقطت علي الأرض من هول المفاجأة.

إرادة الله صنعت المعجزة

**The will of God made a miracle**

اهتم «جورج» بأن يخدم «كاسي» فبعث إليها بصَّك البيع الخاصَّ بـ «إليزا»، فإذا التاريخ المدوَّن عليه، واسما المشتري والبائع تتفق والحقائق التي تحملها في فكرها عن ابنتها، فتحقَّقت بما لا يدع مجالاً للشكَّ أنَّ «إليزا» هذه هي ابنتها التي انتزعتها منها الأقدار وهي بعد طفلة، ولم يبق أمامها الآن سوي أن تتبع خطاها وخطا زوجها في موطنهما الجديد الذي هربا إليه.

وقد وحدت الأهداف بين السيِّدة «دي تو»، و «كاسي»، بعد أن وجدتا أن مصيرهما مرتبط أشدَّ الارتباط بالسفر إلي كندا، فقامتا برحلة استطلاع في المعسكرات التي تضم شمل الهاربين من العبودية. وهناك في مدينة «أمهرسبيرغ» Amehrsberg صادفتا مُبشِّراً كان قد حمي «جورج»، و«إليزا» عند وصولهما إلي كندا، وبواسطته تمكنت السيِّدتان من معرفة أنَّ «جورج» وزوجته يقيمان الآن في مدينة «مونتريال» Montreal الكندية، فتوجهتا يصطحبهما راعي المعسكر في «أمهرسبيرغ»، ووضع نفسه تحت تصرفهما في هذه المهمة.

أمَّا «جورج» وزوجته السعيدان فقد قضيا خمس سنين من عمُرهما في ظلِّ الحرية الوارف. حيث وجد «جورج» عملاً في مصنع للميكانيكا شهير، وصار يتقاضى أجرًا وافراً يُلبِّي به حاجة أسرته التي ازدادتْ وافدًا جديدًا هو ابنتهما «إليزا» الصغيرة.

وفي مساء يوم جميل، بينما كانت الأسرة الهائلة تستعد لتناول طعام العشاء بمنزلها الصغير الجميل، بضاحية «مونتريال»، قرع الباب عليهم، فأسرعت الزوجة لتري مَنْ الطارق. حتي إذا عرفت أنه راعي «أمهرسبيرغ» الخلق رحبت به ترحيبًا حارًا، كما رحبت بالسيدات اللتين كانا برفقته، ودعتهم جميعًا للجلوس، ثم استدعت زوجها بسرورٍ وغبطةٍ.

وكان الراعي قد رسم خطة حكيمة لتعريف البنت بأُمها، والأخ بأخته، فطالب منهما التزام السكوت والتريث، ولكن السيِّدة «دي تو» أفسدت الخطة تمامًا، فما كادت تقع عينيها علي أخيها «جورج» حتي هرعت إليه كالمجنونة وطوّقت عنقه بذراعيها، وهي تقول متأثرة:

- آه يا «جورج» ألا تعرفني؟ أنا أختك إميلي!

أمّا «كاسي» فقد ضبّطت أعصابها احترامًا للخطة التي رسمها الراعي، فمتّلت دورها بنجاح كبير، ثمّ فشلت حينما ظهرت «إليزا» الصغيرة أمامها، وكأنّها بملامحها، وبخطوط شعرها الجعد صورة حقيقية لما كانت عليه ابنتها الحبيبة يوم ودعتها آخر مرّة.

كان حقًا من الصَّعب علي السيِّدتين «كاسي»، و«دي تو» أن تحافظا علي خطة الراعي الطيب المرسومة. ولكنّه مع ذلك نجح في تهدئة الخواطر، وألقى خطبته التي كان ينوي إلقائها استهلالًا بالتعريف، وما كاد يبلغ نهايتها حتي انخرط الجميع في البكاء، ثمّ ركعوا جميعًا وصلي الراعي فيهم. وحين انتهوا من الصلاة التأم شمل العائلة من جديد بعد فراق طويل ومرير، وحمدوا الله لما منحهم من نعمةٍ وسلامٍ.

وبعد ذلك أخبرت السيِّدة «دي تو» أباها بأن زوجها الراحل قد ترك لها ثروة ضخمة، وإنَّها مستعدة لأن تضع القسم الأكبر منها تحت تصرفه. ثمَّ قرَّرت الأسرة أن تسافر إلي فرنسا لقضاء بضع سنوات في ربوعها. وفي أثناء رحلتهم هذه لفتت «إميلين» بجمالها الفاتن ربَّان السفينة فأحبَّها، وقد عقد قرانه عليها.

وفي فرنسا قضي «جورج» أربع سنوات تلقي فيها العلوم في إحدى جامعاتها، وبهذا اكتسب ثقافة رفيعة المستوى، فنضح عقله نضوجاً ملحوظاً. وقرَّر بعدها أن يعمل علي خدمة قضية تحرير العبيد من الرق والاستعباد.



فكروا في حريتكم كلما رأيتم كوخ العمر توم

**Think about your freedom as you  
have seen Uncle Tom's Cabin**

كان «جورج شيلبي» قد كتب إلي أمه رسالة لا تزيد عن سطرين حدّد لها فيها موعد عودته من رحلته. لقد خطر بباله أن يُخبرها بموت العم «توم»، لكن قلبه لم يطاوعه، فكان كلّ مرّة يكتب فيها شيئاً من هذا يُمزق الرسالة وينخرط في البكاء.

وفي الموعد المُحدّد لعودته ساد منزل «شيلبي» ضجيج فرح، فكانت أمّه جالسة في غرفة الاستقبال الوثيرة قرب النار المتقدة، وكانت مائدة العشاء قد بسّطت بإشراف «كلو» العجوز زوجة «توم»، حيث كانت ترتدي ثوباً جديداً من الخام ومترّراً نظيفاً أبيض وتعتمر شبه عمامة منشأة. وكان وجهها الأسود يلمع ببريق الغبطة والارتياح وهي تقوم بتحضير المائدة وترتيبها، متلمسة مختلف الأعدار لتُحدّث سيّدتها، فقالت:

- والآن أعتقد أن المائدة ستبدو عادية فقد وضعت طبقه حيث يجب أن يوضع قريباً من النار كما يجب، ولكن مولاي «جورج» يُحبّ ألا يكون قريباً من النار.

ثمّ استطردت تقول من جديد:

- آه! لماذا لم تُحضر «سالي» إبريق الشاي الجديد، ذلك الإبريق الذي اشتراه مولاي هدية لسيّدتني في عيد الميلاد؟ عليّ أن أحضره، وبالمناسبة هل كتب لك مولاي «جورج» شيئاً؟

فقالت السيّدة «شيلبي»:

- نعم يا كلود. ولكنّه كتب سطرًا واحدًا لا غير، سطرًا يُحدّد فيه عودته اللّيلة.

- ألم يذكر شيئًا عن زوجي «توم»؟

- لا يا «كلو». لم يذكر شيئًا بل قال إنّهُ سيخبرنا بكلّ شيء عند عودته.

- تلك هي عادة مولاي «جورج» دائمًا. إنّهُ يُفضل أن يقول كلّ شيء بنفسه.

قالت «كلو» ذلك وصمتت لحظة، ثمّ أردفت:

- لن يعرف زوجي العجوز الأولاد، فقد تركهم صغارًا فكبروا، وقد ذهبت «بولي» Polly الآن إلي البيت لتشرف علي صنع خبز الكعك. إنّ زوجي يُحبّ ذلك النوع من الكعك كثيرًا. فقد قدّمته له زادًا صباح افترقنا. لياركنا الله. أي فرح استولي عليّ منذ الصباح يا سيّدتني.

وتنهدت السيّدة «شيلبي» وشعرت بأنّ قلبها يضطرب لدي سماعها كلام «كلو». والحق أنّ القلق لم يُبارحها منذ أن تلقت رسالة ابنها الموجهة، فقد خشيت أن يكون «جورج» قد تحاشي ذكر أمر سييء وراء حجاب الإيجاز.

ثمّ قالت «كلو» بلهفة:

- وهل احتفظت سيّدتني بالأوراق المالية؟

- أجل يا «كلو».

- عفواً سيّدتى فقد وجهت إليك هذا السؤال، لأنى أرغب فى أن يرى زوجى العجوز تلك الأوراق المالية التى ربحتها عند صانع الحلويات. فقد كان جونز Jones رجلاً طيب الأخلاق، وقد قال لى: كنت أود أن تبقيين فى محلنا مدة أطول. فشكرته، وقلت له: لقد كان بوّدى أن أبقي لولا أنّ زوجى عزم أن يعود إالى كوخه، ولولا أن سيّدتى ما عادت تستطيع أن تحيّا بدونى بعد اليوم.

وكانت «كلو» قد أصرت على أن تبقي الأوراق المالية التى أخذتها أجرًا من «جونز» لثريها لزوجها برهاناً على براعتها. ولقد لبت السيّدة «شيلبي» رغبتها بغية أن تُدخل السرور إالى قلبها.

ثمّ استطردت «كلو» تقول:

- تُرى هل يعرف زوجى ابنتنا «بولى»؟ إنّ «توم» لن يعرفها بالتأكيد، فقد انقضت خمس سنوات على مُغادرته الكوخ، وكانت آنثذ طفلة لا تقوى على الوقوف، وأذكر كم كان قلقه عليها شديداً عندما كانت تحاول السير على قدميها فلا تفلح!

وإذ قالت «كلو» هذا سمع الجميع صوت عجلات عربة مُقبلة، فاندفعت العمّة «كلو» إالى النافذة، وقالت:

-إنّه سيّدى «جورج».

وهرعت السيّدة «شيلبي» إالى الباب، فطوّقت ابنها بذراعيها، فيما وقفت «كلو» تُحدق بعينها إالى الظلام بلهفةٍ وقلقٍ.

- لا تحزنى أيتها العمّة «كلو».

قال «جورج» بأسى، وتقدّم إليها وشدّ علي يدها الخشنة السوداء بيده.  
ثمّ أكمل:

- لقد كنت مُستعدًّا أن أفنديه بثروتي كلّها لو لزم الأمر. ولكنه ذهب إلي  
عالم أفضل.

وأطلقت السيِّدة «شيلبي» صيحة إشفاق وأسى. ولكن العمّة «كلو» لم  
تقل شيئًا. ودخل الجميع غرفة الطعام. وكانت الأوراق المالية التي اعتزّت  
بها «كلو» كلّ الاعتزاز ما تزال علي الطاولة. فجمعتها «كلو» بيدٍ مرتجفةً،  
وقدّمتها إلي سيِّدتها، وهي تقول:

- خذي هذه الأوراق المالية، فلا أريد أن أراها، أو أسمع بها بعد اليوم.  
لقد وقع ما كنت أخشاه. لقد تمّ ما كنت أتوقّعه. لقد بيع «توم» المسكين لسيِّد  
قاسي القلب، فقتل، ومات وحيدًا.

ونفضت «كلو» واتخذت سبيلها إلي خارج الغرفة. فلحقت بها السيِّدة  
«شيلبي» وأمسكت بإحدى يديها، وأجلستها علي كرسي وجلست هي  
إزاءها. وهي تقول لها:

- آوه! أيتها المرأة الصالحة.

وأملت «كلو» رأسها علي كتف سيِّدتها، وتنهدت، وقالت:

- آه يا سيِّدتي.. اعذريني فقد تحطم قلبي، هذا كلّ ما هنالك!

فقال السيِّدة «شيلبي» والدمع يتساقط علي وجنتيها:

- لا أجهل مقدار المصيبة علي قلبك، وليس في استطاعتي أن أواسي  
قلبك المكسور، ولكن يسوع قادر علي ذلك، فهو يُساعد ذوي القلوب  
المكلومة ويضمّد جراحاتهم.

وران الصمت لحظة علي الغرفة. وبكي الجميع بحرقه ومرارة. بعدها راح «جورج» يروي للمرأة المفجوعة كيف مات زوجها موت الأبطال والشهداء، وينقل إليها آخر كلماته وتحياته.

وبعد شهر من تلك الأحداث. جمع «جورج» جميع الأرقاء الذين يعملون في مزرعته في قاعة البيت الكبير ليلقي عليهم بضع كلمات أراد أن يُسمعهم إيّاها.

ودُهِش الأرقاء جميعهم حين شاهدوا في يده رزمة من الصكوك التي تُحدّد أثمان جميع العبيد العاملين في الإقطاعية. وتعالّت تنهاتهم وصيحاتهم حين بدأ «جورج» يتلو علي مسامعهم الوثائق واحدة واحدة، وسلم كلاً منهم وثيقته الخاصّة به.

والتف الأرقاء حوله وراحوا يتوسلون إليه كي لا يتخلي عنهم، وأمرات القلق تعلق وجوههم، كما حاولوا إعادة الوثائق له، وقد قال أحدهم:

- نحن لا نُريد أن نُفارق هذا البيت الكريم الذي احتضننا وتحنّ علينا.

فقال «جورج» عندما التزم الجميع الصمت:

- أصدقائي الطيبين، لا حاجة تدعوكم لمفارقتي، فإنّ هذا المنزل، وهذه المزرعة، يتطلبان اليوم أيادي عاملة كالماضي تمامًا. ولكنكم أصبحتم الآن أحرارًا. ولسوف أُنحکم أجورًا مُقابل عملكم. أجورًا تتناسب وتتفق مع تعبكم وجهدكم، نتفق عليها معًا. وبهذه الطريقة تنجون من خطر التشتت والبيع إذا ما رزحت تحت عبء الديون، أو قضيت نحبي. وهما أمران يحدثان في كل ساعة. إنني أريد أن أعلمكم كيف تستعملون الحقوق التي أعطيتكم إيّاها بصفتمكم أحرارًا، وأرجو أن تظلوا أناسًا طيبين صالحين،

وأن تُبدو رغبة في التعلُّم، وإني أَعاهد الله أن أكون مخلصًا لكم، راغبًا في تعليمكم، والآن أيها الأصدقاء لنبتهل إلي الله ونشكره علي نعمة الحرية. وهنا نهض زنجي قضي سحابة عُمُرِه في المزرعة، فرفع يديه المرعشتين، وقال:

- لنرفع آيات الشكر إلي الله العلي القدير.

حتى إذا ركع الجميع ركعة رجل واحد، اندفعوا يُرتلون نُمجداً يا الله. فلم تُرفع إلي السماء قط ترنيمة أعمق أثرًا، وأصدق نبرةً من تلك التي صدرت عن ذلك القلب الوفي العجوز.

ولم يكن الجميع ينهضون، حتي خاطبهم «جورج» قائلاً:

- أنتم جميعًا تذكرون صاحبنا العمّ «توم» من غير شك!

وهنا قصّ عليهم حكاية موت العمّ «توم» البطولية، ووداعه المؤثر لجميع أصدقائه، ثمّ أضاف:

... واعلموا أيها الأصدقاء أنني أَعاهد الله ألا أمتلك رقيقًا بعد اليوم. مادمت قادرًا علي إعتاقه، وأقسم بألا أسمح لأي إنسان أن يفصل إنسانًا عن أفراد عائلته لبيعه، ويموت كما مات «توم». وأقول لكم إنني عاهدت الله علي هذا أمام قبر صديقي الخالد، لأجل ذلك أطلبكم بأن تذكروا صديقنا «توم» كُلّما كنتم مسرورين، فأنتم تدينون لنفسه الطيبة بحريتكُم، فكروا في حريتكُم كُلّما رأيتم كوخ العمّ «توم»، واتخذوه مثالًا يُحتذي، وترسّموا خطاه، وكونوا مخلصين بعضكم لبعض في جميع الظروف، وأوفياء للعمّ «توم» بقدر ما كان وفيًا لكم، ومخلصًا لبني البشر جميعًا، واذكروه دائمًا منقذًا شهيدًا.



## الفهرس

الصفحة	الموضوع	مسلسل
3		المقدمة
5		تمهيد
25	الرجل الحنون.. والصفقة	الفصل الأول
31	الحرية في مقابل الموت	الفصل الثاني
37	الهروب العظيم	الفصل الثالث
43	القلوب الرحيمة تنتصر للأمل	الفصل الرابع
53	الرحيل إلي المجهول	الفصل الخامس
63	البشر التعساء في المزاد العلني	الفصل السادس
69	علي متن السفينة.. قلب الأم ينكسر	الفصل السابع
79	ثلاثة قلوب أحبت العم توم	الفصل الثامن
87	العم «توم» في وطنه الجديد	الفصل التاسع
95	امرأة غريبة الأطوار!	الفصل العاشر
103	يقاتلون من أجل حريتهم	الفصل الحادي عشر
119	حكاية الزنجية التعسة	الفصل الثاني عشر
127	الرق والعبودية بين الرحمة والقسوة	الفصل الثالث عشر
145	فتاة جديدة داخل القصر	الفصل الرابع عشر
155	من أجل افتداء العم توم	الفصل الخامس عشر
161	بحراً من زجاج يمتزج بالنار	الفصل السادس عشر
169	ما كل هذا الجمال؟	الفصل السابع عشر

الصفحة	الموضوع	مسلسل
175	الوصية الأخيرة للزهرة الحسنة	الفصل الثامن عشر
183	إيفا.. الطفلة الملاك تصعد للسماء	الفصل التاسع عشر
199	سانت كليز يلحق بعروس السماء	الفصل العشرون
215	العم «توم» يواجه الخطر من جديد	الفصل الحادي والعشرون
219	في سوق النخاسة يباع العبيد	الفصل الثاني والعشرون
231	الرحلة عبر النهر الأحمر	الفصل الثالث والعشرون
237	توم في مزرعة سيده الهمجي	الفصل الرابع والعشرون
243	من تكون هذه المرأة؟	الفصل الخامس والعشرون
251	مأساة امرأة هزمتها الحياة	الفصل السادس والعشرون
259	سر خصلة الشعر	الفصل السابع والعشرون
265	رجلٌ لا يخاف الموت	الفصل الثامن والعشرون
271	جريمة قتل لم تتم	الفصل التاسع والعشرون
277	الحيلة الجهنمية	الفصل الثلاثون
285	توم يغفر لجلاديه	الفصل الحادي والثلاثون
292	الرجل المُطل علي العالم الآخر	الفصل الثاني والثلاثون
301	حقيقة الأشباح، وعدالة السماء	الفصل الثالث والثلاثون
308	إرادة الله صنعت المعجزة	الفصل الرابع والثلاثون
311	فكروا في حريتكُم كلما رأيتم كوخ العم توم	الفصل الخامس والثلاثون



## مُعد ومُقدم الرواية

### • وفيق صفوت مختار

- حاصل على ليسانس الآداب والتربية، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.
- حاصل على الدبلومة الخاصّة في التربية وعلم النفس، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.
- عمل مُحرّرًا صحافيًا بمجلة «هو وهي»، ومجلة «دُبي الثقافية».
- فاز بجائزة الشيخ «عبد المبارك الصباح» للإبداع العلمي عن نتاجه- «المُخدرات وأثرها المُدمّر»، عن دار «سعاد الصباح» بدولة الكويت.
- سجل للتلفزيون المصري العديد من الحلقات في عدة برامج.
- تناولت جريدة الأهرام القاهرية كتابات المؤلّف بالعرض والتحليل في باب «المرأة والطفل».
- تُرجمت بعض مقالاته إلى اللغة الإنجليزية.
- الكتب التي صدرت للمؤلّف:

- 1- مشكلات الأطفال السلوكية، القاهرة: دار العلم والثقافة، 1999م.
- 2- أبنائنا وصحتهم النفسيّة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2001م.
- 3- المدرسة والمجتمع والتوافق النفسي للطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2003م.
- 4- سيكولوجية الأطفال ضعاف العقول، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 5- سيكولوجية الأطفال الموهوبين، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

- 6 - الأسرة وأساليب تربية الطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 7 - مشكلة تعاطي المواد النفسية المخدرة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 8 - سيكولوجية الطفولة، القاهرة: دار غريب، 2005م.
- 9 - بستان المعرفة، القاهرة: دار موناليزا، 2007م.
- 10 - كتب ومكتبات الأطفال وتنمية الميول القرائية، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.
- 11 - فن رعاية الطفل في البيت والمدرسة، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.
- 12 - سيكولوجية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، القاهرة: دار غريب، 2010م.
- 13 - وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال والشباب، القاهرة: دار غريب، 2010م.
- 14 - تأخر الكلام عند الأطفال، القاهرة: دار البطوسي، 2010م.
- 15 - النمو الحركي للطفل وأهم الأنشطة الترويحية والمدرسية، القاهرة: دار الطلائع، 2011م.
- 16 - الصحة النفسية وأساليب تنشئة الطفل... أسرياً، وتربوياً، ومجتمعياً، القاهرة: دار الطلائع، 2012م.
- 17 - الموسوعة الأدبية الكبرى: أشهر المبدعات في التاريخ العالمي، القاهرة: دار الطلائع، 2013م.

• للتواصل مع المؤلف:

هاتف منزل: 093 /4774608

هاتف محمول: 01063549339

E-mail: Wafeek.safwat@yahoo.com

